رواية من ملفات المخابرات المصرية

صالح مرسي



الأعمال الكاملة

الحفار

أعنف صراع بين
المخابرات
المصرية
والإسرائيلية
حول «حفار بترول»

الناشر
أبوللو

١

الطبعة الرابعة ١٩٩٠

صالح مرسي

الحفار

الطبعة الأولى ١٩٨٥م
الطبعة الثانية ١٩٨٧م
الطبعة الثالثة ١٩٨٨م
الطبعة الرابعة ١٩٩٠م

ابوللو للنشر والتوزيع
١٦ شارع البورصه ــ التوفيقية ــ
ص . ب : ٢٥١٥ القاهرة ت : ٧٥٢٢٢٤
عمارات أبو الفتوح ــ عمارة ٣٩
شقة ٤ الهرم ت : ٨٥٩٥٥٦

الحب مصر

صلاح مرسي

تصميم الغلاف الفنان : عبد الغني أبو العينين

كلمة الناشر

● يصارع المواطن العربى أمواج بحر واسع من الإحباط، تصب فيه انهار الفرقة والتناحر بين «الأشقاء»، وتتلبد سماؤه بظلمة قاتمة انعقدت من دخان الهزائم العسكرية أمام اسرائيل، ومن لهب الطغيان والقهر الذى يصطلى به المواطن العربى....

وببراعة فائقة تتلقف أجهزة المخابرات المعادية — وفى مقدمتها المخابرات الأمريكية والاسرائيلية — هذه العناصر وتضيف إليها قصصاً عن الجيش إسرائيل الذى لا يُهزم.. وعن مخابراتها التى تسمع آذانها الهمس، وترى عيونها كل حركة منها أحكمنا وسائل التأمين والسرية، والتى تستطيع أن تصل إلى أى مكان وإلى أى موقع على الأرض العربية مخترقة كل نظم الأمن العربيه... بهذا المزيج من الواقع المؤلم والاساطير الملفقة وتضخيم أحداث صغيره، يحرص العدو أن يلقى الانسان العربى تحت وطأة هذه الحاله النفسية القاتله من الاحباط، ويريد أن يثبت فى نفسه احساساً باليأس من الخلاص ليستسلم لقدر فرض عليه الهزيمة أمام هذه القوى العاتية!!

ومن هنا يتحمل كل صاحب قلم أمانة كشف هذه المؤامراه المستمرة.. والحقيقة فى هذا المجال هى أمضى سلاح نواجه به هذه المؤامره.. الحقيقة التى

صنعها «انسان عربى» فى ميدان قتال على شواطئ القناه أوعلى مشارف بيروت حيث تلاشت اسطورة الجيش الاسرائيلى الذى لا يُهزم... أوالحقيقة التى نسج خيوطها «رجل مخابرات عربى» وقدم بها البرهان على أننا ــ نحن العرب ــ نملك القدرة على الانتصار فى «حرب الذكاء والمخاطرة»، حرب المخابرات... هذه الحقائق هى طوق النجاة الذى نقدمه للانسان العربى لينجو من براثن امواج الاحباط واليأس.. وهى شعاع الأمل الذى يبدد الظلمات الكثيفة التى انعقدت فى سمائه..

كاتبنا الاستاذ صالح مرسى حمل هذه الأمانه، واختار الميدان الذى تغلفه الاسرار، ميدان المخابرات والجاسوسية، استهوت حاسه الروائى عنده، المغامرات والمخاطره ولعبة الذكاء وعالم الأسرار الرهيب، وكان هدفه أن يقول «كلمة»، أن يشهر سلاح الحقيقة الناصعة فى وجه أشباح اليأس، وأن يبحث عن جوهر «الإنسان المصرى العربى» فى أتون معارك الجاسوسية الملتهبة... عاش كاتبنا الاحداث الكبيره المثيره التى انطوت عليها الملفات وبقيت حبيسة الاضابير، واختار من هذه الوقائع «الصعود إلى الهاوية» لتكون أول أعماله فى هذا الميدان.. أو بمعنى أدق، لتكون أول خيوط الحقيقة التى يقدمها كما صنعها الرجال.. وكانت السجلات ملأى بالكثير الذى يغرى بالمتابعة.. واختار عملاً آخر هو: «دموع فى عيون وقحة».. ثم جاء «الحفار»... ولم تزل مئات السجلات تحوى الكثير، وصالح مرسى يحار بين مئات الاحداث المثيرة التى صنعها الرجال، أيها يختار لتكون عمله التالى؟ وفى اصرار يواصل كاتبنا طريقه الشاق، وتأتى المشقة من التزامه بتقديم الأحداث الحقيقية كما صنعها الرجال فى الواقع، بينما حاسة الروائى فيه تصارع لتغرى قلمة بتوشية الاحداث الواقعية بخيال الروائى، لكنه يلجم جماح الحاسة الروائية عنده قدر استطاعته حتى تبقى الاحداث كما صنعها الرجال، لأنها كما صنعوها - أروع من كل خيال أوتنميق يضاف إليها...

عزيزى القارئ..

عندما يصبح «الحفار» بين يديك فان شعوراً بالرضا والسعادة يغمرنى لأننى استطعت المساهمة بجهد متواضع فى نشر هذا العمل وأبدأ الاعداد لنشر «الصعود إلى الهاوية» ثم «دموع فى عيون وقحة»، ليكون كل منها شعاع ضوء يكشف خرافة الاسطورة التى زرعتها المخابرات الامريكية والاسرائيلية فى نفوس الكثيرين فى وطننا العربى، اسطورة المخابرات الاسرائيلية التى لا تُقهر!! وحتى يعرف القارىء العربى أن «الإنسان العربى» لم يفقد جوهره النبيل، وأن الأمل فى تحقيق النصر ليس ضربا من المستحيل، وأن عليه مواصلة الصراع للتغلب على أمواج الإحباط واليأس..

ولتكن أحداث «الحفار» وأحداث أخرى صنعها «إنسان عربى» هى «البوصلة» الهادية التى يعرف بها الانسان العربى طريق نضاله، لأنها تكشف له بوضوح عن حقيقة «العدو»، فلا ينسى للحظة أن «هذا العدو» دائم التربص به ــ بكل عربى ــ وليتزود من هذه الاحداث بزاد من الثقة فى قدرة الانسان العربى على تحقيق النصر..

القاهرة

ذو الحجة ١٤٠٥ هـ

سبتمبر ١٩٨٥م

السيد الغضبان

كلمة قبل بدء الحديث

« ... ... كان موقف جمال عبد الناصر داخل بلاده قوياً وثابتاً، ولقد بدا واضحاً كل الوضوح، لكل أجهزة المخابرات فى الغرب، أن لا سبيل إلى ازاحته، إلا عن طريق هزيمة عسكرية تطيح به!!! »

« ريتشارد ديكون »
فى كتاب: « الخدمة السرية لاسرائيل »

● ● فى بداية الستينات من هذا القرن، وصلت حرب العقول ــ أى حرب المخابرات كما نسميها فى العالم العربى ــ إلى ذروة لم يعرفها العالم من قبل، كان دخول «العلم» إلى هذا المجال قد اتسع بشكل أصبح يهدد أعظم الأسرار، وكانت الأساليب قد تطورت، والصراع قد احتدم مع وصول الحرب الباردة إلى ذروتها فى عهد الرئيس الأمريكى دوايت ايزنهاور، ووزير خارجيته جون فوستر دالاس!

وكانت منطقة الشرق الأوسط،مع تزايد نفوذ مصر وتواجدها وقيادتها للعالم الثالث وقضاياه، واحدة من تلك المناطق التى احتدمت فيها الصراعات الخفية وتعقدت، وبصرف النظر عن الصراع المخيف الذى نشب بين المخابرات العامة المصرية من ناحية. والمخابرات الإسرائيلية - الموساد - من ناحية أخرى، فلقد كانت للدول العظمى مصالح فى هذه المنطقة، وإذا كان الاتحاد السوفييتى استطاع أن يبنى مع مصر وعدد من الدول العربية علاقات متطورة فى ذلك الوقت، فإن العالم الغربى، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية، كان لابد له وأن يتواجد - بكل الثقل - فى المنطقة... ليس فقط من أجل الحد من وجود الاتحاد السوفيتى، ولكن من أجل هدف آخر، بدا لبعض الوقت، وكأنه الهدف الأسمى لأجهزة المخابرات فى الغرب، هذا الهدف هو التخلص من «جمال عبد الناصر»!

وفى كتاب «الخدمة السرية لإسرائيل» الذى وضعه الكاتب الإنجليزى «ريتشارد ديكون» * ، والذى يورد فيه المؤلف - بتحيز صارخ - عددا من القضايا الهامة والعمليات الخطيرة التى قام بها جهاز المخابرات الإسرائيلية ، فى هذا الكتاب فصل بعنوان : «حرب الأيام الستة» ، وضع المؤلف فى مقدمته تصريحا لموشى ديان ، وزير الدفاع الإسرائيلى فى تلك الأيام يقول فيه : «كل ما أستطيع أن أقوله ، هو أن دور المخابرات الإسرائيلية فى هذه الحرب ، لا يقل عن دور سلاح الطيران ، أو سلاح المدرعات» .

كان معنى هذا ببساطة ، أن حرب الأيام الستة كانت - فى المقام الأول - لعبة ذكاء ، مارستها كل الدول المعنية على رقعة الشرق الأوسط بنعومة أحيانا ، وبخشونة فائقة فى أحيان أخرى !

فهل كان التصريح الذى أدلى به موشى ديان صحيحا ؟ !

★ اسمه الحقيقى «رونالد ماك كورميك» .. ولد بمقاطعة ويلز بغرب انجلترا . أثناء الحرب العالمية الثانية ، خدم فى الاسطول البريطانى ... بعد الحرب أصبح صحفيا ، عمل فى البداية كمندوب متجول ، ثم عمل مندوبا لدى دول الكومونولث ... وأصبح أخيراً مديراً للقسم الخارجى فى جريدة «سنداى تايمز»

تحت اسم «ريتشارد ديكون» ، وتحت اسمه الحقيقى أيضاً ، كتب العديد من الأعمال التسجيلية ، التى تعتمد على سرد الحقائق ، دون تدخل الخيال القصصى كما فعل رئيسه فى المخابرات الانجليزيه «إيان فليمنج» صاحب شخصية «جيمس بوند» الخيالية !

من أهم أعمال مستر «ديكون» كتاب : «الحرب الصامته» ، وتاريخ المخابرات البحرية ، وتواريخ الروس ، والخدمة السرية بين بريطانيا والصين .. ثم : «من هو من فى قصه جاسوسية !»

هو الأن يعيش فى مقاطعة كنت !

فى هذا الفصل يورد المؤلف محاولات إسرائيل للتعاون مع أجهزة المخابرات فى الغرب ... ولقد بدأت هذه المحاولات بشكل مبكر مع المخابرات الإنجليزية ، حتى اكتشفت قضية «فلبيى» الشهيرة ، فبدأت المخابرات الإسرائيلية فى تحجيم هذا التعاون خوفا من تسلل المعلومات إلى الاتحاد السوفييتى عن طريق عملائه فى المخابرات الإنجليزية ، وبالتالى إلى مصر .

ويؤكد المؤلف — بالأدلة والأسماء - أن المخابرات الإسرائيلية قد استطاعت أن تُوجِد نوعا من التعاون «غير الرسمى» مع المخابرات الفرنسية رغم موقف ديجول الذى كان متعاطفا فى ذلك الوقت مع القضايا العربية .

أما عن التعاون مع المخابرات المركزية الأمريكية — سى . أى . أيه — فلم يكن تعاوناً بالمعنى المعروف ، بل كان شبه اندماج كامل .

وفيما يختص بحرب ١٩٦٧ بالذات ، يقول «ريتشارد ديكون» فى صفحة ١٨٢ من هذا الكتاب : «غيران المساعدات الرئيسية التى حصلت عليها إسرائيل فى مجال التخابر ، فلقد كانت من الأمريكيين والفرنسيين !!» .

ثم يقول عن تطور العلاقات بين المخابرات الإسرائيلية والأمريكية : «باختصار إن هذا يعنى أن الأمر وصل إلى حد أن المخابرات المركزية الأمريكية لم يكن لها مكتب ، ولا حتى مجرد محطة فى تل أبيب ، ليس هذا فقط ، بل إن رجال المخابرات الذين يشغلون وظائف رسمية فى السفارات عادة ، كانوا يتعاونون مع الموساد بشكل سافر ومباشر» ! ... وبعدها يؤكد مستر ديكون أن ثمة اتفاقا قد عقد بين الموساد وبين الـ «سى . أى . أيه» كان فرسانه هم : ايسار هاريل ، وافرايم ايفرون الذى أصبح فيما بعد سفيرا لإسرائيل فى الولايات المتحدة ، ثم جيمس

انجلتون رئيس شعبة **مقاومة التجسس في** المخابرات المركزية الأمريكية، وأن انجلتون بالذات، كان يرى أن تصرف الولايات المتحدة إبان عملية السويس في عام ١٩٥٦ كان أحمق، وأنه لا سبيل إلى إيقاف النفوذ السوفييتي في المنطقة، إلا بمزيد من التعاون بين الـ «سي. أي. أيه.» وبين «الموساد»، حتى إذا جاء عام ١٩٦٥. كان الضغط داخل المخابرات المركزية الأمريكية، قد تزايد للتخلص من جمال عبد الناصر، وفي ذلك يقول ديكون بالحرف الواحد: «كان موقف جمال عبد الناصر داخل بلاده قويا وثابتا، ولقد بدا واضحا كل الوضوح، أنه لا سبيل إلى إزاحته، إلا عن طريق هزيمة عسكرية تطيح به» !!!

هكذا كانت الصورة تبدو من الداخل، وكان معنى هذا أن:

أولاً: حرب ١٩٦٧ لم تكن وليدة ظروف صنعتها الساعة كما تخيل البعض، ولكنها كانت وليدة تخطيط دقيق ودءوب استمر لسنوات قبل اندلاع هذه الحرب!

ثانياً: كل هذا لم يكن يخفى — وهو أمر طبيعي للغاية — على المخابرات المصرية... وكان — في نفس الوقت — يلقي عليها عبئاً ثقيلاً!

ثالثا: تعاون الموساد مع أجهزة المخابرات الغربية، كان بالضرورة، وبحساب القوى العالمية، يزيد من التهاب المنطقة يوما بعد يوم، والتهاب الحرب الخفية فيها بالتالي.

هذه بعض الحقائق التي تعطينا صورة لمدى «ضراوة» هذه الحرب الخفية قبل حرب ١٩٦٧، ولقد قامت الحرب، ونفذت العملية كما خططوا لها

...بسيط.. غير أن المفاجأة التي قلبت كل الحسابات، هي أن «العملية» ... كعملية، لكنها لم تحقق الهدف منها !!!

ذلك أن الشعب المصري أصر على بقاء جمال عبد الناصر في مكانه، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا هو ازدياد حدة الحرب الخفية، وازدياد العبء ثقلا على كاهل المخابرات المصرية، خاصة بعد الأزمة التي نشبت في أعقاب هذه الحرب بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، والتي اشترك فيها صلاح نصر مدير جهاز المخابرات المصري في ذلك الوقت!

ومع الضجة التي أثيرت حول جهاز المخابرات المصري، ظهرت اسئلة عديدة كانت في حاجة الى أجوبة... غير أن سؤالا واحداً من هذه الأسئلة، كان يبدو أهم من كل ما عداه، هذا السؤال هو: «ألم تعلم المخابرات المصرية بما كانت تنتويه إسرائيل قبل حرب عام ١٩٦٧ ؟!».

ولقد قيل الكثير، وكُتِب الكثير حول هذا الموضوع، لكن الحقيقة **ظلت** غامضة لفترة طويلة — ربما كان من أسباب ذلك أن جهاز المخابرات المصري يتبع تلك المدرسة التي تؤمن بالصمت والترفع عن الدفاع — غير أنه، وبعد ثمانية عشر عاما، تبدو الحقيقة الآن مؤكدة وثابتة... هذه الحقيقة التي تقول: إن المخابرات العامة المصرية، قد نبهت القيادة السياسية، قبل حرب يونيو ببضعة أشهر إلى أن كل الظواهر، وكل المعلومات التي تجمعت لديها تقول بأن ظروف إسرائيل الداخلية، وعلاقاتها، وتحركاتها الخفية والظاهرة، توحي بأنها تستعد لجولة جديدة مع مصر... وتؤكد بعض المصادر الموثوق بها، أن ثمة تقريرا وضع على مكتب رئيس الجمهورية بكل هذا مشفوعا بمصادره التي كانت على مستوى

عال ، ولا يرقى الشك إلى معلوماتها ، وكان تحليل المخابرات المصرية يقول إن إسرائيل لابد وأن تنتهز فرصة التقاء رغباتها مع رغبات القيادة فى الولايات المتحدة ، وبالتحديد مع مخطط الرئيس الأمريكى ليندون جونسون.

ولكن الظروف السياسية ، والحركة الدبلوماسية العنيفة التى تمت قبل الحرب ، والتى أسماها الرئيس عبد الناصر فى إحدى خطبه بأنها كانت «خديعة دبلوماسية» ، وضعت القيادة المصرية فى وضع من كان ينتظر أن يبدأ الآخرون بالضربة الأولى.

ولهذا أصبحت الحرب الخفية بعد ١٩٦٧ ضربا من الجنون أو الخيال ، وراحت الأحداث تتسابق لتلقى فوق النار المتأججة مزيدا من الوقود ، ومع إعادة بناء الجيش المصرى ، وتصدى مصر لبعض الاستفزازات العسكرية الإسرائيلية — رأس العش والمدمرة إيلات على سبيل المثال — ثم قيام حرب الاستنزاف ، وعبور الفدائيين إلى سيناء لتدمير المنشآت الإسرائيلية وأسر الجنود ونسف المواقع ... وصلت الحرب الخفية فى المنطقة إلى ذروة مخيفة حقا.

ووسط هذا الجو الملتهب ، أعلنت إسرائيل عن عزمها على التنقيب عن البترول فى سيناء ، وشفعت هذا الإعلان بإعلان أكثر استفزازا يقول إنها بالفعل استأجرت حفارا لهذا الغرض. وأحاطت الدعاية الإسرائيلية هذا الحفار بضجة اعلامية شملت العالم كله ... وبدا واضحا للقيادة المصرية أن الغرض الرئيسى من شراء هذا الحفار لم يكن اقتصاديا ، رغم حاجة إسرائيل فى تلك الأيام إلى البترول فعلا ، ولم يكن سياسيا رغم أن وجود الحفار سيدعم خطتها بإنشاء

مستوطنات تصبح مع الأيام منشآت ثابتة تكرس بقاءها فى الأرض ... وإنما كان الغرض الرئيسى هو أذلال مصر عالميا ، وإظهارها أمام الأصدقاء والأعداء بمظهر العاجز ، لا عن حماية أرضه فقط ، بل وموارده الطبيعية فيها ...

وهكذا تحركت القيادة السياسية فى مصر بسرعة ، شملت حركتها جميع أركان الكرة الأرضية ، وجرت اتصالات على مستوى عال مع تيتو وأنديرا غاندى — قطبى عدم الانحياز — كما جرت اتصالات أخرى مع بعض الدول الغربية ، ومنها — بالتأكيد — الولايات المتحدة الأمريكية ، كانت مصر تحاول أن توقف وصول هذا الحفار ، ولقد قالت بوضوح فى رسائلها : «أن المنطقة ملتهبة ولا تحتاج إلى مزيد من الوقود ، لأن مصر لن تسكت حتى ولو أدى الأمر إلى ضرب الحفار بالطيران المصرى فى البحر الأحمر وقبل وصوله خليج العقبة».

كانت مصر جادة فى عزمها ، وكان معنى ضرب الحفار بالطيران المصرى ، أن تندلع الحرب من جديد فى المنطقة ... وجاءت كل الردود ، وبلا استثناء ، بأن المساعى الدبلوماسية — رغم ضغطها وكثافتها — لم تأت بأية نتيجة ، وأن إسرائيل مصممة على استئجار الحفار ، بل لقد استأجرته فعلا !!

ولقد ظل هذا الحفار ، ولأسابيع طويلة ، ولا أحد يعرف مكانه على الإطلاق ... كانت كل المعلومات التى حصل عليها المصريون ، فى تحركهم العنيف والسريع الذى شمل مناطق شاسعة من بحار العالم وموانيه ، تؤكد شيئا واحدا : أن الحفار موجود بالفعل !!

ولكن أين ؟!

هذا ما كان على الرجال أن يعرفوه، أن يمزقوا هذا الستار الكثيف من السرية التى أحاطت به إسرائيل حفارها ... وكان الوقت يمضى ويصبح للدقيقة الواحدة ثمن باهظ ...

وهكذا ... وجدت المخابرات العامة المصرية نفسها تسابق الزمن وهى كمن تبحث عن إبرة فى جبل من القش، فقد يكون الحفار على شواطىء أستراليا، أوآسيا، أو أوربا، أو أفريقيا، أو أمريكا الشمالية أو الجنوبية ... كان مطلوبا منها ان تتعامل مع الحفار قبل أن يعبر مضيق باب المندب، فالحقيقة المؤكدة كانت تقول: إن مصر ستضرب الحفار لو أنه دخل إلى مياه البحر الأحمر مهما كانت النتائج، كانت مصر ستفعل ذلك رغم أنها لم تستكمل بعد استعدادها للجولة التى كانت محتمة مع إسرائيل نتيجة لهذا !!

وبدأت واحدة من أغرب وأعظم الجولات، وسجلت المخابرات المصرية انتصارها فى عملية تعتبر فى هذا العالم الخفى، واحدة من أهم العمليات السرية، ولقد اشتهرت هذه العملية فى العالم كله باسم «عملية الحفار» ! ● ●

ص . م

١ ▪ الفصل الأول

التعامل مع مجهول

معكم عواطفنا ... قصائدنا ... جنوداً فى القتال.
يا حارسين الشمس من أصفاد أشباه الرجال.
ما فرقتنا الريح، إن نضال أمتكم ... نضالى.
إن خرَّ منكم فارس، شدت على عنقى حبالى!

للشاعر: محمود درويش
من قصيدته « كردستان»

.. كان الشتاء فى مصر عام ١٩٧٠ قارسا، انخفضت فيه درجة الحرارة إلى معدل .كرت الصحف اليومية أنه لم يحدث منذ ثلاثين عاما... وفى يوم من الأيام الأولى لشهر فبراير من ذلك العام، وقبل منتصف الليل بقليل، كانت شوارع العاصمة المصرية تكاد تخلو من المارة، حتى فى تلك المناطق الشعبية التى تعود الناس أن يسهروا فيها حتى أذان الفجر صيفا وشتاء... أما فى الضواحى، فلقد كانت الشوارع شبه خالية... وفى ضاحية كوبرى القبة بالذات ــ التى تتوسط المسافة فيما بين القاهرة ومصر الجديدة ــ بدا الشارع المجاور للسور الغربى لقصر القبة فى تلك الليلة موحشا أكثر من غيره من الشوارع، ليس فقط لضآلة الإضاءة فيه، ولا لخلوه من المارة والسيارات تماماً، ولا حتى لصفير الرياح التى راحت تهب عنيفة باردة من الحقول المترامية فى تلك المنطقة... ولكن لأن الشارع لم يكن به مساكن على الإطلاق... لم يكن به سوى هذا المبنى الهائل المحاط بأسوار شددت عليها الحراسة ليلا ونهاراً، وكان هذا المبنى يبدو من خلف الأسوار كالشبح الجاثم فى صمت، يحيط به الظلام كثيفا، إلا من أضواء خافتة كانت تحاول النفاذ من بضع نوافذ متناثرة هنا وهناك، يخفيها خلف الزجاج ذلك اللون الأزرق الذى طلى به منذ حرب يونيو عام ١٩٦٧، أى منذ ما يقرب من ثلاث سنوات... كان هذا المبنى هو مبنى المخابرات العامة المصرية.

وفى قلب المبنى، كان ثمة غرفة تشغى بالحركة، وكأنها خلية نحل شديدة النشاط، رغم أن حركة الرجال فيها كانت نادرة... ذلك أن أجهزة اللاسلكى المتناثرة فى المكان على حسب نظام معين، كانت تعمل بلا توقف، وكان الرجال الجالسون أمام هذه الأجهزة صامتين تماماً...قد يحرك أحدهم مؤشراً، أو يضبط موجة أو يستمع فى استغراق إلى ذلك الصفير المتقطع المنبعث من الأجهزة، والذى يكون فى النهاية رسالة ما.. وبين الحين والحين، كان واحد من الرجال يرفع رأسه نحو الحائط الذى يتصدر المكان، وقد علق عليه عدد كبير من الساعات التى تبين كل ساعة منها، التوقيت المحلى فى عاصمة من عواصم العالم شرقا وغربا.

ولدقائق مرت، كان الأمر يبدو عاديا للغاية، لولا أن تنبه واحد من هؤلاء الرجال فجأة وكأن تياراً كهربياً قد سرى فى جسده، أمسك القلم بيده استعداداً، وضغط بيسراه على السماعة التى تحيط برأسه وتغطى أذنيه!

كان النداء قد بدأ!

ومع بداية النداء، اختطفت عيناه نظرة من ساعة تبين التوقيت المحلى فى الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية، كانت الساعة تشير إلى أن التوقيت هناك هو الرابعة والنصف بعد الظهر... وبشكل تلقائى، انحدرت عيناه إلى ساعة يده ــ وهى من نوع مركب وخاص ــ وكانت تشير إلى الحادية عشرة والنصف مساء بتوقيت القاهرة!

انتهى النداء... وبدأت الرسالة!

كان الرجل يعلم أن هناك من ينتظرها ــ فى مكان آخر من الجهاز ــ

على أحر من الجمر، ليس لأنها مهمة، فكل الرسائل هنا هامة وخطيرة، ولكن خبرته الطويلة مع الغموض، كونت لديه حاسة غريبة جعلته قادراً على أن يفرق بين ما هو هام، وما هو أهم، وما هو أشد أهمية.. وإذا كانت كل الرسائل التى يتلقاها بالشفرة، وإذا كانت كلماتها من نوع «جففنا البسطرمة وقشرنا البطاطس»، إلا أنها ربما كانت تعنى أن رجلا مات، أو منشأة دمرت، أو وثيقة خطيرة تم الحصول عليها، أو... أو أن إنسانا قد صعد إلى القمر سراً!

بعد ثلاث دقائق وعشرين ثانية بالضبط ــ هكذا سجل الرجل فى الورقة ذات الطابع الخاص التى يكتب فيها ــ انتهت الرسالة، وكان مرسلها الذى وقع باسم «موريس»، قد بدأ يعيدها حتى يؤكد كل كلمة فيها... وما إن انتهت المراجعة، حتى رفع الرجل السماعة عن أذنيه، وأطفأ الجهاز، وغادر المكان وهو يحمل البرقية فى حرص... وكان يبدو فى عجلة من أمره!

لم يكن هذا التصرف طبيعياً فى الأحوال العادية، ولكن، ومنذ حوالى شهر، صدرت إليه الأوامر، بأنه بالنسبة لبرقيات بعينها ألا يتحدث فى التليفون، وألا يرسل البرقية مع أحد، وأن يسلمها يداً بيد!!!

• • •

بعد حوالى خمس وعشرين دقيقة، وكانت الساعة تقترب حثيثاً من منتصف الليل، دق جرس التليفون فى مكتب أمين هويدى مدير جهاز المخابرات العامة المصرية فى ذلك الوقت، فامتدت يده بسرعة ليرفع السماعة، كان هو الآخر،

رغم استغراقه فى العمل، وانكبابه على بعض الأوراق، يبدو متوترا كمن ينتظر خبرا هاما.

« آلو! »

قالها فى اختصار، فسرت إلى أذنه بضع كلمات عبر السماعة عرف صوت صاحبها فوراً، وبدا وكأن كل حواسه قد تنبهت فجأة، هم بالسؤال فى لهفة، غير أنه هتف:

« أنا فى انتظارك! »

هكذا كان الأتفاق بينه وبين «طاهر رسمى»، ألا يتم بينهما حوار حول «الموضوع» عبر التليفون، حتى ولو كان التليفون الداخلى للجهاز نفسه، كانت السرية المطلقة مطلوبة إلى أقصى حد، ذلك أن العملية تبدو شديدة التعقيد، ومنذ أن ظهرت إلى حيز الوجود، وكانت تحتاج إلى قدر هائل من الكتمان... وحتى الكلمات التى كانا يتبادلانها فى التليفون ـــ بخصوص العملية ـــ كانت شفرية، ولذلك، فلقد كانت الكلمات التى سمعها المدير تقول: «الوقت اتأخر يا فندم، وسيادتك لسه فى المكتب، وأنا عندى لك فنجان قهوة فرنساوى سخنة!!»... وكان هذا يعنى أنه يريد أن يراه قبل أن يغادر الجهاز، وأنه يحمل له خبراً ساخناً، أى هاماً!!

أعاد أمين هويدى السماعة، ونهض من مكانه فى نشاط مفاجئ، خطا نحو باب غرفته، وكأنه يتعجل وصول الرجل، ولأنه يعلم يقينا أن طاهر سوف يغادر المبنى الذى يقيم فيه، ثم يعبر تلك الحديقة الخلفية، ويدور حول المبنى الرئيسى، ثم يصعد على السلم، ولن يستعمل المصعد، وأن هذا كله سوف يستغرق من

ثمانى إلى عشر دقائق... **لأنه يعلم هذا،** فلقد توقف فى منتصف الغرفة، وسط مقاعد الصالون الجلدى الفاخر الذى أثث به مكتب مدير المخابرات المصرية... ورغم التدفئة الموجودة فى المكتب، فلقد أحس بقشعريرة تسرى فى جسده وهو يرفع عينيه إلى خريطة للكرة الأرضية، ويثبتهما فوق نقطة بذاتها على الشاطئ الشرقى لشمال أمريكا الشمالية...

تسمر فى مكانه، وثبت عينيه على تلك النقطة فى تركيز من يريد اختراق المكان والزمان معاً، وأن ينظر بعين الواقع إلى تلك النقطة بالتحديد... وكانت التقاء نهر سانت لورنس بالمحيط الأطلنطى فى شرق كندا...

• • •

كان أمين هويدى واحداً من الضباط الأحرار عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ومنذ شبابه المبكر كان معروفاً عنه وسط زملائه، أنه شاب ممتلىء بالحماس، شديد المثالية، عاشق للقراءة، شديد الحب والثقة والإيمان بجمال عبد الناصر!

ولم يكن عمله فى المخابرات جديداً عليه، فلقد كان ذات يوم رجلا من رجالها، ترقى فى سلمها حتى وصل إلى واحد من مناصبها الشديدة الأهمية... ثم ترك الجهاز إلى مهام أخرى أسندت إليه، منها أنه كان وزيراً للإعلام فى فترة، وفى فترة أخرى ـــ بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ـــ كان وزيراً للحربية. وفى نفس الوقت مشرفاً على جهاز المخابرات المصرى.

لذلك، فعندما عاد إلى الجهاز كمدير له، كان التعامل بينه وبين الرجال سلساً... كان كالتعامل بين فريق متجانس الأفكار، يفهم كل فرد فيه ما

يريده الآخرون دون كثير من جدل أو حوار... كانوا يعرفونه كما كان يعرفهم، بل إن بعضهم كان رفيق أيام وليال وسنوات طويلة من العمل الدائب والشاق فى بناء هذا الجهاز!!

مضت الدقائق بطيئة، لكن المدير سمع ـ أخيراً ـ دقتين خافتتين على الباب فالتفت، وفتح الباب وظهر فيه «طاهر رسمى».

كان طاهر يبدو طويلا نحيلا كشجرة السنط السامقة التى تحدد ملامح القرية التى ولد فيها، ورغم أنه يدخن بشراهة، ويشعل السيجارة من الأخرى خاصة إذا كان مستغرقا فى عمل ما، فإن جسده كان رياضيا... كانت ملامحه متسقة، وصوته خافتا، وعلى شفتيه ابتسامة من يخطو فى طريق يعرف كل شبر فيه!

اندفع هويدى ليلتقى بطاهر متسائلا:

«إيه الأخبار يا طاهر!»

«الحفار عدى على بورت الفريد، وبعدها سان سيمون فى شمال كندا... وزمانه دلوقت بمعدل السرعة اللى كان ماشى بيها، طلع المحيط!»

«امتى الكلام ده؟»

«النهارده الساعة عشرة الصبح!»

«أنت متأكد يا طاهر؟!»

ابتسم طاهر رسمى، فلقد كان يعرف أن هذا هو أسلوب المدير فى المناقشة... ومن أين له أن يتأكد إلا من خلال برقية أو رسالة وصلت إليه عبر آلاف الأميال... لوح بالبرقية التى كانت شفرتها قد حلت منذ دقائق، وقال:

«التعليمات اللى عند موريس، إنه يتابع الحفار ثانية بثانية لحد ما يطلع المحيط قدام عينيه!»

استدار أمين عائداً إلى مكتبه وقد بدا متفجراً بالحماس وهو يغمغم:

«وحاتعمل إيه فى الوقت؟!»

«حاسبقه!!»

مال هويدى فوق المكتب هاتفاً:

«لازم تسبقه يا طاهر، لازم تسبقه!»

قال هذا وهو يستدير نحو جهاز تليفون ذى لون خاص، ورفع السماعة...

أومأ طاهر نحو التليفون متسائلا:

«حاتكلم الراجل؟!»

«ضرورى!»

«احنا بقينا نص الليل!»

«هو اللى عاوز كده!»

«طب عن إذنك!»

فى حرارة هتف هويدى:

«ربنا معاك يا طاهر... ربنا معاكم كلكم!»

....

....

غادر طاهر رسمى الغرفة فساد الصمت، وظلت السماعة معلقة فى يد المدير وقد سرح ببصره وبدا وكأنه غرق فى محيط بلا نهاية من الأفكار... كان المدير

ــ بالطبع ــ يعلم معنى هذه البرقية التى وصلت منذ نصف ساعة على الأكثر، ولقد كان وصولها يعنى شيئا واحداً، أن كل الجهود السياسية والدبلوماسية التى بذلتها مصر ــ طوال ثلاثة أشهر مضت ــ قد باءت جميعها بالفشل الذريع، وأن الحركة سوف تبدأ الآن محمومة سريعة، وأن الرجال ــ منذ هذه اللحظة ــ سوف يبدءون سباقاً مروعاً مع الزمن، وأن ثمة جيشاً صغيراً من الرجال والنساء والشباب والفتيات من جميع الأعمار، ومن جنسيات شتى ولا يعرف أحدهم الآخر، سوف يتحركون من الآن حركة سريعة ونشطة وشديدة الدقة والخطر؟!

....

....

ومنذ ثلاثة أشهر ــ قبل هذا اليوم ــ لم تكن هناك فى حياة مدير **المخابرات** المصرية، ولا فى حياة الجهاز كله... مشكلة اسمها «الحفار» !!

ولقد حدث فى الأيام الأولى من شهر نوفمبر عام ١٩٦٩، أن طيرت وكالات الأنباء خبراً عن عزم إسرائيل على التنقيب عن البترول فى خليج السويس... كانت حرب الاستنزاف قد وصلت إلى ذروة خطيرة حقاً، وسببت دوريات الفدائيين التى كانت تتسلل إلى سيناء عبر قناة السويس، إزعاجاً شديداً للإسرائيليين... وظن البعض فى البداية، أن الخبر من الممكن أن يكون نوعاً من بالونات الاختبار أو حرب الأعصاب... لولا أن وكالات الأنباء عادت ــ فى نفس الأسبوع ــ تطير خبراً آخر يقول: «إن إسرائيل استأجرت من أجل التنقيب عن البترول فى سيناء حفارا سيبدأ عمله فى القريب !!»

تلقت القاهرة الخبر، وبدأت ــ على الفور ــ حركة سريعة فى كل اتجاه.

كان واضحا أشد ما يكون الوضوح، أن إسرائيل تريد أن تفرغ حرب الاستنزاف من محتواها، كانت تريد أن تقول للعالم: إن الأوضاع فى سيناء مستقرة، وإنها إذا كانت قد استأجرت حفاراً، فمعنى هذا أنها ستنقب عن البترول عند الشواطئ، وإذا كان الشاطئ الوحيد الصالح لهذا النوع من التنقيب، هو شاطئ سيناء فى خليج السويس، فإن معنى هذا ــ بصرف النظر عن المشاكل السياسية أو الاقتصادية ــ أن التنقيب سيتم أمام أعين المصريين دون أن يستطيعوا التعرض للحفار... كان الهدف الرئيسى هو إذلال مصر أمام العالم أجمع.

ولم يكن ممكناً أن تسكت مصر... كان لابد لها أن تفعل شيئاً.

ولكن، ما الذى يمكنها أن تفعله ــ عدا الاتصالات الدبلوماسية ــ والحفار بعيد عنها؟... بل، هو غير موجود، فلا أحد يعرف عنه شيئا، ولم يكن لدى مصر أية معلومات عنه، حتى اسمه!!... فأين هو هذا الحفار؟!... فى أية مياه يرسو؟!... ما حجمه؟! من هى الشركة التى صنعته؟!... والشركة التى تملكه؟!... والشركة التى استأجرته؟!... أين بنى؟!... ما هى قوة احتماله؟!... وفى أى الأجواء يمكنه العمل؟!... وعلى أى عمق يستطيع التنقيب؟!... وعمق المياه التى يعمل بها؟!... وكم يوماً يستطيع أن يبقى بعيداً عن اليابسة؟!... كم عدد رجاله؟!... ما هى جنسياتهم؟! و... و... ثم إن لكل حفار قاطرة ــ سفينة صغيرة لكنها قوية ــ تسحبه من ميناء إلى ميناء، أو من شاطئ إلى شاطئ، فأين هى القاطرة التى ستسحبه إلى البحر الأحمر؟!... ما جنسيتها وقوتها وحجم خزانات وقودها وعدد رجالها وقائدها

ومهندسها ... و... و... وعشرات الأسئلة التى طرحت نفسها على الساحة بغتة ... ولم يكن هناك سوى الظلام الدامس !!

....

....

مع الحركة الدبلوماسية المصرية التى نشطت لتشمل جزءاً كبيراً من العالم المؤثر فى الأحداث فى تلك الأيام، فلقد كانت هناك حركة أخرى خفية، حركة بدأت منذ طيرت وكالات الأنباء خبرها الأول... وكان مطلوباً — بالقطع — ألا يشعر أحد بهذه الحركة على الإطلاق!

باختصار ... كان مطلوباً من الرجال، فى جهاز المخابرات المصرى، أن يعثروا على الحفار... ليس فقط لإمكانية السيطرة على الموقف بشكل ما، ولكن... لتدعيم الحركة الدبلوماسية نفسها... فلقد كان الأمر يبدو مضحكاً ومصر تتحدث عن حفار لا وجود له!!

ثم ... كان مطلوباً منهم — إذا ما فشلت الجهود الدبلوماسية — أن يتعاملوا معه قبل أن يدخل البحر الأحمر، أى... أن يدمروه، أو على الأقل، يجعلوا منه شيئاً غير صالح للعمل نهائيا!

تلك كانت أيام...

طرحت مصر على الساحة العالمية سؤالا:

« إن الموقف فى الشرق الأوسط متفجر، واستجلاب إسرائيل للحفار سوف يزيد الأمر اشتعالا... ذلك أن مصر لن تسكت، بل ستضرب الحفار

بالطيران... فهل العالم على استعداد لمواجهة موقف كهذا، وما قد يترتب عليه من أحداث أو ردود أفعال ؟! »

وراحت الأيام تمضى بلا نتائج !.

كانت اسرائيل قد أسدلت ستاراً شديد الكثافة على مكان الحفار، أو أية معلومات قد تؤدى إليه... وفى تلك الأيام الأولى التى بدأت فيها تلك الحرب الخفية، لم تكن هناك سوى معلومة واحدة فقط، استطاع الرجال أن يحصلوا عليها، وأن يضعوها على مكتب الرئيس، فى أقل من ثمان وأربعين ساعة... هذه المعلومة هى: أن إسرائيل جادة فى الأمر ومصممة عليه !!

وبدأت الأسئلة تطرح نفسها فيما يسمى بـ «تقدير الموقف»

وكان السؤال الأول الذى طرح نفسه هو: إذا كانت اسرائيل قد أعلنت عن استئجارها لهذا الحفار، وأحاطت هذا الإعلان بضجة إعلامية كبيرة شملت العالم كله... فلماذا تخفيه إذن ؟!

إذا جاء الرد بأنها تخفيه خوفاً من الاعتداء عليه، فكيف ستخفيه إذا ما دخل إلى مياه البحر الأحمر؟!... ثم إنها تستطيع أن تحيطه بالحماية وأن تشدد عليه ومن حوله الحراسة !

ثم ...

لقد أعلنت مصر، وكانت إسرائيل تعرف أنها جادة فى إعلانها هذا، أنها سوف تضرب الحفار بسلاح الطيران... ألا يصبح منطقيا إذن، أن تخفى الحفار، وتسدل عليه ومن حوله كل هذه السرية، حتى يظهر فجأة فى مياه البحر الأحمر ؟!

وإذا كان هذا صحيحاً ... فما الذى تبتغيه إسرائيل من وراء ذلك ؟!

هل كانت إسرائيل تريد أن يضرب الحفار بالطيران المصرى ، بالفعل ، فى البحر الأحمر ؟! .

ولماذا ؟!

كانت هناك تساؤلات عديدة وشتى ... لكن الإجابة عن أى من هذه الأسئلة ، كان يستلزم العثور على الحفار أولا ، ومعرفة كل شىء عنه !

إن المعرفة ــ فى هذا العالم الخفى ــ هى السلاح المضمون الفعالية ، ورب ملاحظة قد تبدو للإنسان العادى بسيطة ولا تستحق الانتباه ، تكون هى مفتاح الحل كله عند هؤلاء الرجال ؟

بعد بضعة أيام أصبح واضحاً أمام الرجال فى المخابرات المصرية ، أن إسرائيل تخفى الحفار فى مكان غريب ، مكان لا يخطر لأحد على بال ... وهكذا شهدت الساحة العالمية تحركاً شمل الكرة الأرضية من أقصى الشرق وحتى أقصى الغرب ، وراح الرجال يكشفون البحث فى تلك الأماكن التى لا تخطر ببال أحد ... كان هذا البحث سرياً بالطبع ، وكانت الحركة قد اندفعت إلى كل موانئ الدنيا ، مهما صغر شأن الميناء ، تبحث عن « حفار ما » تريد إسرائيل أن تستأجره للبحث عن البترول فى خليج السويس !!

وكان لابد ــ قبل هذا ــ أن تسند « العملية » برمتها إلى رجل ذى مواصفات خاصة ، رجل تكون لديه المقدرة على السير فى الشوط حتى نهايته مهما كانت هذه النهاية تبدو مخيفة ... وعندما وقع الاختيار على « طاهر رسمى » ــ

هذا الرجل الذى حمل إلى المدير خبر خروج الحفار إلى المحيط ــ كان عليه بدوره أن يختار اثنين لمعاونته ... واحداً للمعلومات ، والثانى للتنفيذ !

ولم يكن أمام طاهر رسمى سوى : « عزت بلال » ، و « نديم هاشم » !

كان عزت صديقاً لطاهر ، وكان مشهوراً بين زملائه باسم « الكومبيوتر » ... ذلك أنه من المستحيل أن تمر عليه كلمة أو حادثة أو معلومة أو وجه ، وينساه أو ينساها ... بل إن البعض كان يقول مازحاً : إنه لا يستطيع ان ينسى حتى ولو أراد ... وأصبح عزت مسئولا عن المعلومات .

أما « نديم هاشم » ، أو نديم قلب الأسد كما كانوا ينادونه ، فلقد كان هو الرجل المطلوب لمثل هذه المخاطرة الخيالية ، وإذا ما تأزمت الأمور ، ووصل الأمر إلى ذروته ، فلسوف يصبح الجهاز فى حاجة إلى « قلب أسد » فعلا ، رجل شديد الشجاعة ، بارد الأعصاب فى أشد الأوقات حرجاً ... وكان هذا الرجل هو : « نديم هاشم »

وخلال الأسبوع الأول من بداية الحركة ، كان أمام الرجال الثلاثة كشف بعدد هائل من الحفارات المتناثرة فى جميع بقاع الأرض ، ولم يكن من بينها حفار استأجرته إسرائيل ، أو حتى تحوم الشبهات ولو من بعيد حول أن إسرائيل تريد استئجاره !!

ووسط أكوام البرقيات التى وصلت من كل الدنيا ، كان ثمة برقية موقعة باسم « موريس » ، وكانت البرقية آتية من كندا .

وكان نديم هاشم بالذات قد التقى من قبل بموريس فى رحلة من رحلاته السرية التى كانت تأخذه ــ دائما ــ بعيداً عن بيته وولديه ، التقى نديم بموريس

لساعات قليلة، كانت كافية لأن يصدر عليه حكماً بأنه رجل دقيق وصادق، وأنه يعتبر ثروة!

أمسك الرجال الثلاثة بالبرقية وراحوا يتبادلونها فيما بينهم، لم يكن فيها شيء غريب أو يثير الانتباه أو حتى الفضول... كان موريس، هذا اللبنانى الأصل الذى ولد فى كندا وأصبح مليونيراً يملك القصور والشركات، وأسطولا من السيارات الفاخرة، والذى يؤمن بالقومية العربية إلى حد الهوس، إلى حد تعريض نفسه — أحياناً — لأخطار حقيقية، كان موريس هذا قد أرسل معلومات عن حفار اسمه «كينتنج»

كانت المعلومات الموجودة عن «كينتنج» معلومات عادية، مثل عشرات المعلومات التى كانت تحت أيدى الرجال الآن، والمرسلة من كل أنحاء الدنيا، عن عشرات الحفارات التى تعمل هنا وهناك... كانت هناك معلومات عن حجمه وقوته وصواريه وخزاناته وبريمته وقدراته وقوة آلاته وارتفاعه وطوله وعرضه، وعمق غاطسه تحت الماء، وعدد الرجال عليه، وكان الحفار يرسو فى بحيرة اسمها «ايرى»... و... والأهم من هذا كله، كانت الرسالة تقول: إن موريس استطاع تصوير الحفار، وإن الصور فى طريقها الآن إلى مصر!

لم يكن هناك ما يشير من بعيد أو قريب، إلى أن إسرائيل سوف تستأجر هذا الحفار، بل على العكس تماماً، كان الحفار «كينتنج» قد أنتج لحساب قسم «ليفننج» للمياه الساحلية بشركة «بتروليا» — وهى شركة كندية — وكان الغرض الأساسى من إنتاجه، هو العمل على سواحل كندا... وكان الحفار يرسو على شاطئ كندى!

فما هو الشيء الغريب الذى استوقف الرجال إذن عند هذا الحفار بالذات ؟!

لا شيء... لا شيء على الإطلاق سوى هذا الإحساس الغامض الذى ينتاب المحترفين فى مهنة ما، بأن ثمة شيئاً غامضاً فى موضوع يبدو شديد الوضوح.

سأل أحد الرجال فجأة: «فين بحيرة ايرى دى ؟!»

لم يكن أحدهم يعرف موقعها، وامتدت يد «طاهر رسمى» إلى «أطلس» وراح يقلب صفحاته ثم توقف أمام خريطة لأمريكا الشمالية...

فماذا وجد ؟!

....

....

يتكون الجزء الشرقى من الحدود الأمريكية الكندية من خمس بحيرات، هى من الغرب إلى الشرق: بحيرة «سوبيريور» وبحيرة «ميتشيجان»، وبحيرة «هورن»، ثم بحيرة صغيرة ملتوية من الجنوب إلى الشمال هى بحيرة «ايرى»، وتأتى فى شمالها البحيرة الخامسة وهى بحيرة أونتاريو الشهيرة، والتى تشكل شلالات نياجرا ذات الشهرة العالمية، حداً فاصلاً بين الدولتين: الولايات المتحدة الأمريكية فى الجنوب، وكندا فى الشمال!

كان الحفار الذى تحدث عنه «موريس» فى بحيرة ايرى... وبدت بحيرة ايرى أمام الرجال ذات طابع خاص، فهى محاطة بولاية كندية واحدة شمالا، وأربع ولايات أمريكية جنوبا وشرقاً وغرباً... هذه الولايات الأربع هى من

الشرق إلى الغرب: ولاية نيويورك، ثم ولاية بنسلفانيا، وبعدها ولاية أوهايو، ثم ولاية ميتشيجان!

بدت البحيرة الصغيرة شبه محاصرة، وكان لابد — على الفور — من استبعاد هذا الحفار، فإن طريقه للخروج من بحيرة ايرى طريق صعب. ولكى يخرج إلى المحيط، كان عليه أن يمر بقناة تصل بحيرة ايرى ببحيرة أونتاريو، ثم يعبر بحيرة أونتاريو من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، ليدخل بعد ذلك فيما يسمى بالـ«سى واى» أى طريق البحر، وهو قناة صناعية شديدة الضيق والخطر، فى منتصفها هويس ينقل السفن من مستوى بحيرة أونتاريو المنخفض إلى مستوى نهر سانت لورانس مارا بمونتريال وكيوبيك سيتى حتى أقصى شمال النهر، عند التقائه بالمحيط.

برغم كل هذه الصعوبات، التى تبدو غير منطقية، ظل الرجال يفكرون فى هذا الحفار كينتنج حتى إذا ما سأل سائل منهم: «احنا مش قلنا إن إسرائيل مخبياه فى حته ماتخطرش على بال حد؟!... مين يخطر على باله بحيرة ايرى دى، ومين يعرفها؟!».. لم يرد أحد من الرجلين على السائل. فلكى يقطع «طاهر رسمى» الشك باليقين، أرسل فى نفس اليوم، برقية قطعت أجواز الفضاء إلى رجل يعيش فى إحدى الولايات المحيطة ببحيرة «ايرى»، فى ولاية ميتشيجان بالذات، بل إنه يعيش فى عاصمتها «ديترويت» بالتحديد، تلك المدينة التى اشتهرت بصناعة السيارات!

وكان مطلوباً من الرجل، أن يبحث فى بحيرة «ايرى» عن حفار اسمه

«كينتنج»، وأن يعرف كل شىء عن «حركة» الحفار فى الأيام والأسابيع القادمة.

وهكذا بدأت واحدة من المغامرات الغريبة فى هذا العالم الخفى.

....

....

فى بداية الأسبوع الثانى من شهر نوفمبر عام ١٩٦٩، وصل إلى مدينة «بافالو» الأمريكية والشديدة القرب من شلالات نياجرا، شاب وفتاة.

كان الشاب يبدو رياضى الجسد، أسمر اللون تلك السمرة البرونزية التى تفتن عادة الفتيات الأمريكيات، وكان وسيماً أنيقاً، وبدا لكل من رآه أنه ثرى، وأن ثراءه فاحش. أما لهجته، فكانت توحى بأنه مكسيكى أو واحد من أبناء أمريكا الجنوبية، برغم أوراقه التى تقول إنه أمريكى الجنسية.

فى دفتر الفندق، سجل الفتى اسمه «الفريد باهر»

وسجلت الفتاة اسمها «مسز باهر»

وأيقن الجميع أنهما عروسان يقضيان أياماً من شهر العسل، لذلك، فلقد احتفى بهما موظفو الفندق، كما احتفت بهما إدارته... أما النزلاء فلقد صفقوا تحية للعروسين، عندما نزلا لأول مرة — ليلة وصولهما — إلى حلبة الرقص، وظلا يرقصان حتى مطلع النهار!

وأصبح مستر ومسز باهر «فاسوخة» الفندق، وكان واضحاً أن هذا قد أسعدهما للغاية... ولقد كانا فى شوق إلى الحياة، ففى الصباح كانا يغادران الفندق، ولا يعودان إليه إلا مع الغروب، ولقد شوهدا ذات مرة يستأجران لنشاً

ويندفعان به بأقصى سرعة، نحو جنوب البحيرة، وشوهدا مرة ثانية وهما يبحران باللنش نحو الشمال حيث مساقط مياه شلالات نياجرا، والمناظر الخلابة هناك خاصة على الجانب الكندى.

ثم وقع حادث غريب.

حادث لفت أنظار الجميع بلا استثناء وأصابهم بالدهشة البالغة...

ذلك أن الفتى، فجأة، وقع فى حب سيدة تكبره سناً... ليس هذا فقط، بل إنها كانت زوجة لرجل آخر، هو قبطان «ڤان كيرك» قائد القاطرة الهولندية التى ترسو فى الميناء منذ أسابيع.

ولقد تعود قبطان «ڤان كيرك» منذ وصوله إلى «بافالو» أن يقضى المساء فى هذا الفندق، يشرب بشراهة رجال البحر إذا ما واجهوا عاصفة عاتية، كان يظل طوال الليل يشرب، ويراقص أية فتاة وأية سيدة فى المكان، دون أن يطلب زوجته مرة للرقص!

وكانت مسز كيرك زوجة القبطان، تجلس دائما فى صمت، تبدو شديدة الحزن، شديدة الإحساس بالوحدة، ترشف من كأسها بين الحين والحين دون أن تشربه، وتتلفت حولها، إذا ما تصرف زوجها تصرفاً لا يليق، وهى تواجه الجميع بابتسامة اعتذار رقيقة.

ولقد شهد العروسان «باهر» هذا الذى يحدث شأنهما شأن كل النزلاء.. وكان يبدو عليهما الإشفاق على زوجة القبطان المسكينة، وبين الحين والحين كانا يومئان لها إيماءة خفيفة مشجعة... ولقد قال بعض شهود الحادث فيما بعد: إنهم

...قون من أن «مسز باهر» — العروس — هى التى دفعت زوجها دفعاً كى ...راقص «مسز كيرك»، وكان طبيعيا أن تتهلل السيدة المسكينة عندما طلبها هذا الشاب الوسيم الذى يصغرها على الأقل بخمسة أعوام للرقص، لكنها قبل أن تنهض، أمسكت بكأسها ودفعته مرة واحدة إلى جوفها... وعندما توسطا الحلبة، كانت «مسزباهر» تبدو سعيدة كل السعادة، لأنها زوجة لرجل أدخل السعادة على قلب سيدة بائسة... لكن سعادة العروس لم تدم، ذلك أن الرقصة أصبحت رقصتين وثلاثاً، وأن الرقص كانت تتخلله همسات وضحكات راحت تزغرد فى المكان عالية معلنة عن نفسها، كانت مسز كيرك تبدو فى ذروة السعادة، وكان «مسترباهر» يبدو مفتوناً.

ولمح الحاضرون بوادر أزمة فى الطريق، فلقد دعا مستر باهر السيدة كيرك والقبطان إلى مائدته، وبدا الانزعاج واضحا تماما على وجه «مسزباهر»، بل إن التعبير على وجهها كان يوحى بالغضب، وكان يكفى أن يضع «مسترباهر» أمام القبطان زجاجة كاملة من خمر فاخر، كى ينسى الرجل كل شىء فى الدنيا حتى زوجته.

انفجرت الأزمة عندما نهضت العروس غاضبة، اختطفت حقيبة يدها فى عنف، وغادرت المكان فى خطوات تشى بالغضب الجامح، تركت القبطان وحده على المائدة، فلقد كان زوجها قد عاد يراقص مسز كيرك من جديد.. وظن البعض أن الشاب سوف يندفع خلف زوجته، لكنه لم يفعل... بل بدا وكأن الأمر كله لا يعنيه.

فى الصباح الباكر، شاهد موظفو الفندق السيدة باهر وهى تطلب سيارة أجرة، ثم تنصرف وقد أخذت معها حقيبة صغيرة... ولكن، برغم أنها كانت ترتدى نظارة شمسية داكنة اللون، فإن الكثيرين شهدوا دموعها تنهمر من تحت زجاج النظارة.

وليومين آخرين... شوهد مستر باهر مع مسز كيرك فى كل مكان، كانا يخرجان معاً و يعودان معا... وكان القبطان يشرب ما حلا له من الخمر، ثم يوقع لحساب «مستر باهر».

....

....

بعد ثلاثة أيام تسلم الرجال فى القاهرة رسالة من رجل ميتشيجان تقول:

«إن الحفار «كينتنج» يرسو الآن فى مياه أمريكية، وإن أحدا لا يعرف متى سيرحل بالضبط، لكن من المؤكد أن القاطرة الهولندية «جاكوب ڤان هيمو كيراك» التى يقودها القبطان «ڤان كيرك» هى التى ستسحب الحفار من بحيرة ايرى، إلى ميناء ما فى غرب أفريقيا. القبطان لا يعرف موعد الإبحار. ولا يعرف شيئا آخر... الحفار صمم فعلا من أجل العمل والتنقيب فى المياه الكندية، ولكن بعد أن تمت صناعته اكتشفوا أنه لا يصلح للعمل فى هذه المياه بالذات»

أضافت البرقية ــ دون شك ــ الكثير من الضوء على هذا الحفار الغريب «كينتنج»، ولقد مضت أيام قليلة بعد ذلك. بدا وكأن الساحة قد هدأت نسبيا، غير أن هذا كان هو الهدوء الذى يسبق الحركة السريعة المتلاحقة.

ففى يوم ١٣ نوفمبر عام ١٩٦٩ ــ بعد عشرة أيام تقريباً من إذاعة أول خبر عن الحفار ــ أذاعت إذاعة الكويت، نقلا عن وكالة «الاسوشييتد برس» خبراً تقول:

«إن الولايات المتحدة الأمريكية. حاولت إقناع اسرائيل بالتخلى عن خططها للتنقيب عن البترول فى خليج السويس، غير أن المساعى الأمريكية توقفت بعد أن طلبت إسرائيل من الولايات المتحدة ذلك!!»

هل كان هذا خبراً أم رسالة؟!

كان الخبر يعنى ــ فى المقام الأول ــ أنه بالرغم من العلاقات الدبلوماسية المقطوعة بين مصر والولايات المتحدة، فإن «اتصالا» ما قد تم بين الدولتين.. وكانت الرسالة تقول: إن الولايات المتحدة لن تصنع شيئا!!

هكذا بوضوح ودون لف أو دوران.

ولزمت مصر الصمت أمام هذا التصريح!

لزمت الصمت لأن الخيوط كانت قد بدأت تتجمع فى أيدى الرجال، ولا أحد يستطيع أن يعرف ما الذى كان يدور فى مكتب «طاهر رسمى» الجديد، فى أحد مبانى جهاز المخابرات المصرى، والذى لم يدخله أحد سوى عزت ونديم، ولا أحد يستطيع أن يعرف كيف تجمعت الخيوط فى النهاية كاملة، وأصبح للمعلومات قوة ضغط خفية..

لزمت مصر الصمت، فلزم الآخرون الصمت لستة أيام تالية!

ففى يوم ١٩ نوفمبر عام ١٩٦٩، كتبت جريدة «ديلى إكسبريس» اللندنية تقول :

«إن هناك أزمة تهدد مصالح بريطانيا فى الشرق الأوسط، وأن سبب الأزمة هو اتفاق إحدى الشركات التى مقرها لندن مع إسرائيل للتنقيب عن البترول فى سيناء... وأن العرب يشعرون أن قبول بريطانيا لذلك، معناه قبولها لاحتلال إسرائيل للأراضى العربية!»

برغم أننا لا نستطيع أن نجزم بما حدث بالضبط فإن هذا الخبر يؤكد أمرين :

الأول : أن الاتصالات الدبلوماسية المصرية بدأت تجنى بعض الثمار، فأن تنشر جريدة كالديلى إكسبريس، أن هناك أزمة تهدد المصالح البريطانية فى الشرق الأوسط، فلقد كان هذا يعنى أن «العرب» لن يسكتوا، وليس مصر وحدها!

أما الأمر الثانى فهو: أن «الآخرين» قد أيقنوا الآن أن المصريين قد توصلوا إلى «شىء ما» عن الحفار، بدليل أن الخبر حدد مقر الشركة التى ستستغل الحفار وهو: لندن أو على الأقل، أصبحت الشركة معروفة لدى الجميع!

وإذا كان المصريون حريصين على أن تظل حركتهم وما يصلهم من معلومات فى سرية كاملة... فمن الذى سرب إلى «الآخرين» معلومة أن المصريين قد عرفوا شيئا ؟!

هل هى المخابرات المصرية نفسها ؟!

وإذا كان الأمر كذلك... فلماذا فعلت ذلك ؟!

أم أنه عميل مزدوج ؟!

ومن هو هذا العميل ؟!

أسئلة تطرح نفسها — بالضرورة — حتى ولو لم نجد لها جواباً.

لكن الغريب فى الأمر، أنه بالرغم مما نشرته ديلى إكسبريس، فلقد لزمت مصر الصمت، أيضاً.. لم يعلق مسئول مصرى على الخبر، ولم تكتب عنه جريدة، ولم يذكره أحد وكأنه لم يكن، وساد الصمت هذه المرة لخمسة أيام أخرى... ثم حدثت مفاجأة.

ففى يوم ٢٤ نوفمبر صدرت ثلاثة تصريحات من ثلاث جهات مختلفة...

كان التصريح الأول للمتحدث الرسمى باسم وزارة الخارجية الكندية.

وكان التصريح الثانى للمتحدث الرسمى باسم وزارة الخارجية البريطانية.

أما التصريح الثالث فلقد أذاعته وكالة «الأسوشييتدبرس» على لسان المستر «جون كينج»

فمن هو المستر جون كينج هذا ؟!

المستر «جون كينج» هو رئيس شركة «كينج ريسورس» الأمريكية.

وما علاقة هذا بالحفار ؟!

إذن، فلنقرأ التصريح :

«إن إسرائيل مهتمة بموارد البترول والغاز مثل أية دولة فى الشرق الأوسط. وإن شركته — شركة مستر كينج الأمريكي — قد قصرت نشاطها فى إسرائيل

على الدراسات الجيولوجية عن طريق أحد فروعها فى لندن، وهى شركة «ميدبار»، أما عمليات التنقيب نفسها، فلسوف تقوم بها شركة كينج بتمتد الكبرى».

خرج الآن إلى الضوء ما كان خافياً طوال أسابيع، وطرح علانية اسم الشركة الإنجليزية التى ستقوم بالتنقيب، وهى شركة «ميدبار»، كما طرح اسم الشركة «الأم» وهى شركة «كينج ريسورس» الأمريكية.

كانت النقاط توضع فوق الحروف لتوضح الهيكل الذكى للعملية برمتها... وقد نستطيع أن نستنتج من تصريح المستر كينج، أنه لم يعد هناك ما يحرص على إخفائه، وكان معنى هذا أن المصريين كانوا يعرفون كل شىء.

ولكن.. لماذا أدلى المستر «جون كينج» بهذا التصريح أصلا، ما الذى دفعه إلى هذا؟!... إنه بالقطع لم يكن متطوعاً بطرح المعلومات التى حرصت إسرائيل — ومعها شركته — على إبقائها طى الكتمان طوال الأسابيع الماضية!!

غير أننا من الممكن أن نخمن الدافع إذا ما قرأنا تصريح المتحدث الرسمى باسم وزارة الخارجية الكندية... والذى قال فيه:

«إن مصر لم تتحدث مع كندا بشأن اشتراكها مع إسرائيل فى التنقيب عن البترول، ولكن كندا تدرك أن إحدى شركاتها، وهى شركة «كينتنج»، قد قامت بتأجير معدات حفر لشركة «ميدبار» البريطانية، لاستغلالها للتنقيب عن البترول فى أماكن مختلفة من العالم»

كانت كندا تبرر موقفها. كانت تتنصل من أية تبعة...

لكن المصريين ظلوا صامتين!

أما التصريح الثالث الذى أدلى به المتحدث الرسمى باسم وزارة الخارجية البريطانية، فلقد أذاعته محطة أل «بى. بى. سى».. قال المتحدث:

«أثبت التحقيق مع شركة «ميدبار» أنها تتبع شركة أمريكية، وهناك تحريات لمعرفة أصل هذه الشركة وماضيها!!»

هكذا اكتملت الصورة، وأصبح اللعب «على المكشوف» كما يقولون.. ولقد قالت الخارجية البريطانية إنها لاتزال تتحرى، بينما مصر كانت قد انتهت من تحرياتها، وأصبحت كل الحقائق فى يدها..

فماذا وجدت مصر؟!

ما الذى عثر عليه الرجال؟!

ما الذى اكتشفوه؟!

....

....

لقد اكتشف الرجال أنهم أمام أخطبوط...

اكتشفوا أن إسرائيل لعبت اللعبة ببراعة وذكاء لابد من الاعتراف بها.

اكتشفوا أن على مصر — إذا أرادت التعرض للحفار — أن تواجه خمس دول مرة واحدة! اكتشفوا أن الحفار: كندى. إنجليزى. أمريكى. هولندى... و... إسرائيلى.

فكيف ؟!

كان الحفار إنجليزياً، لأن شركة «ميدبار» التى ستقوم باستغلال الحفار، مقرها لندن!

وكان أمريكياً لأن «ميدبار» لم تكن سوى فرع من فروع شركة «كينج ريسورس» وهى شركة إمريكية مقرها مدينة «دنفر» بولاية كولورادو!

وكان الحفار أيضاً كنديا بالجنسية، فلقد قامت ببنائه شركة «ديفن» لبناء السفن، وهو مصمم للحفر على عمق عشرة الآف قدم فى مياه عمقها ١٥٠ قدماً، وقد تم صنع الحفار لحساب قسم «ليفيننج» للمياه الساحلية بشركة بتروليا الكندية كما ذكرنا.

وكان الحفار فى النهاية هولنديا، لأن القاطرة التى استأجرت لسحبه، والتى كان يتولى قيادتها كابتن «ڤان كيرك» كانت هولندية، واسمها: «چاكوب ڤان هيمو كيراك»!

ولابد أن يكون الحفار إسرائيلياً لأن إسرائيل هى التى استأجرته للتنقيب عن البترول فى أرض تحتلها بالقوة ولا تملكها!

كان مطلوباً إذن، أن يظل الحفار شبحاً لا وجود له حتى يظهر فجأة فى مياه البحر الأحمر، ولا تجد مصر أمامها سوى طريقين لا ثالث لهما: إما أن تنفذ تهديدها فتضرب الحفار وتواجه هذه الدول الخمس... أو... أو أن تتراجع فيتم إذلالها بالتنقيب عن البترول فى أرضها، وأمام عيون شعبها!

بعد هذا اليوم الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٦٩... ساد الصمت تماماً.

كان كل من يعنيه الأمر قد تحدث، إلا مصر!!

لكن مصر صمتت طوال اثنين وأربعين يوماً كاملة... فلِمَ صمتت؟!... هل كانت فى انتظار تصرفات أخرى، أو أنها أرادت أن تقول كلمتها أخيراً؟!

على كل... فبعد اثنين وأربعين يوماً، وبالتحديد. فى اليوم الخامس من يناير عام ١٩٧٠. أدلى المتحدث الرسمى المصرى، السيد عصمت عبد المجيد، لصحيفة «جلوبو» الإيطالية بتصريح غريب قال فيه: «إن شركة «ميدبار» بدأت البحث عن البترول فى سيناء، وإن مصر لن تتوانى عن التصرف إذا ما قررت إسرائيل استغلال المصادر البترولية فى سيناء!»

بدا التصريح وكأن مصر تلقى بالقفاز فى وجه الجميع، كانت شركة «ميدبار» قد بدأت فعلا — كما يقول التصريح — فى التنقيب عن البترول فى سيناء، وكانت مصر، بتصريحها هذا، تستفز إسرائيل وتتحداها أن تكمل مشروعها. ولكى يكتمل المشروع، فلابد من وصول الحفار..

و...و...و...

وها هو الحفار يخرج من مكمنه، ليواجه فى المحيط العريض الواسع قدره المتربص به... لقد جاء تصريح مصر بالنتيجة التى كانت مطلوبة منه، فها هو شهر واحد لم يمض، لتبدأ مرحلة أخرى، جديدة وخطيرة...

فهل يستطيع الرجال؟!

• • •

ربما همس أمين هويدى — مدير جهاز المخابرات المصرى فى ذلك الوقت —

لنفسه بهذا السؤال. أفاق من استغراقه عندما أصدرت سماعة التليفون صفارة ثاقبة تعلن أنها رفعت منذ وقت طويل دون أن يطلب رقماً... كان الرجل يعرف أن عبئاً قد أزيح، وأن على الرجال أن يحملوا من اليوم عبئاً أشد ثقلاً، كان عليهم أن يدمروا الحفار قبل أن يصل إلى مضيق باب المندب...

وكان هذا هو الحل الوحيد!

مال الرجل على قرص التليفون وراح يطلب رقم الرئيس... اشتد عمق الصمت فى الغرفة فسرى صوت جرس التليفون على الطرف الآخر عبر السماعة، انقطع الجرس فاعتدل الرجل هاتفاً:

«مساء الخير ياسيادة الريس!»

ولم يدم الحديث طويلا بين جمال عبد الناصر ومدير مخابراته، كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل، وكان المدير يطلب مقابلة الرئيس الآن... ولابد أن عبدالناصر قد أدرك أن الأمر خطير، ولابد أنه خمن أنه يخص الحفار... فدعاه إلى مكتبه فوراً.

٢ ـ الفصل الثانى

الغرفة العجيبه .

أنا شاب لكن عمرى ولا ألف عام
وحيد ولكن بين ضلوعى زحام
خايف، ولكن خوفى منى أنا.
أخرس، ولكن قلبى مليان كلام!!
عجبى!!

رباعية لـ«صلاح جاهين»

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما غادر أمين هويدى مكتبه فى المخابرات العامة، كانت هناك أوراق يريد المدير عرضها على الرئيس ضمتها حقيبته السوداء، كما ضمت ملفاً ذا لون هادئ يحوى كل المعلومات التى من الممكن أن يطلبها الرجل عن عملية «الحفار»

الطريق ما بين جهاز المخابرات فى كوبرى القبة وبين بيت عبد الناصر فى منشية البكرى، لا يستغرق، فى مثل هذا الوقت من الليل، سوى دقائق قليلة... ولقد غادر المدير المبنى ودلف إلى السيارة المرسيدس التى كانت تقف فى انتظاره فلفحت الرياح الباردة وجهه، وأحس وهو يجلس فى مقعده، وبرغم المعطف الأسود السميك الذى كان يرتديه، بقشعريرة تسرى فى جسده، فأيقن أنه مقبل على نوبة برد حادة، وقرر أن يقاومها بكل ما يستطيع من أدوية... فليس هذا وقت المرض!

انسابت السيارة لتعبر باب المبنى الخارجى، أدى حارسان التحية للمدير، فردها عليها بأسلوب من لم ينس أنه رجل عسكرى، تابع الحارسان السيارة حتى انحرفت إلى اليمين مختفية فى الشارع الموصل إلى ميدان قصر القبة، فدلف أحدهما إلى الغرفة الدافئة، وسجل فى دفتر كبير خاص، إن سيارة المدير قد غادرت المبنى الساعة الثانية عشرة وست عشرة دقيقة بالضبط!

بعد بضع مئات من الأمتار فى الشارع نصف المظلم ، انحرفت السيارة يساراً لتواجه ميدان القبة الذى كان يبدو - بإضاءته الخافتة وخلوه من الناس ، وحفيف الرياح فيه - قفراً موحشاً ... ولابد أن الرجل تذكر هذا الميدان نفسه ، قبل الحرب ، بأضوائه وناسه وسياراته وباعته وحركة الحياة فيه ، ولابد أن صدره قد جاش بذكريات مريرة راحت تتصاعد إلى وعيه فى سرعة وتدفق وتدافع ، عما حدث إبان تلك المعركة الخاسرة مع إسرائيل . ماحدث قبلها وماحدث فى أثنائها وما حدث بعدها والأسباب التى أدت إليها ، وآراؤه الصريحة التى كان يعلنها دائما ... ولابد أنه كان يفكر بعقلية الرجل الذى يعرف أكثر من غيره ، ففوق أنه كان - فى الأصل - ضابطاً بالمخابرات ، وفوق أنه الآن مدير للجهاز كله ... فإنه دائماً هناك ، فى تلك الساحة المحيطة بقمة السلطة ، يرى الحقيقة ويسمعها كاملة ... وعندما عبرت به السيارة الكوبرى الصغير الذى يعلو نفق مترو مصر الجديدة فى تلك المنطقة ، هدأ السائق من سرعتها استعداداً للانحراف إلى اليسار ، ومد هويدى يده إلى جواره وأمسك بمقبض حقيبته ، فلقد اندفعت السيارة بعد ذلك ، وبسرعة ، وفى خط مستقيم ... نحو بيت الرئيس الذى بدت بوابته الخارجية على بعد !

....

....

كل الذين التقوا بعبد الناصر فى تلك الأيام قالوا : إن الرجل - بعكس ما كان يبدو عليه فى صوره وهو يعقد الاجتماعات أو يخطب فى الجماهير - كان

مريضاً ومتعباً ، لكنهم أجمعوا على أن روحه ، تلك التى ينبئ بها بريق عينيه ، لم تخب فيها جذوة الحياة أبداً .

كان عبد الناصر قد قام منذ ما يقرب من شهر - أى فى يناير ١٩٧٠ - بجولات فى بعض الدول العربية ، ففى الرباط كان هناك اجتماع القمة الخامس ، وفى طرابلس الغرب - فى ليبيا - كانت المحادثات الثلاثية بينه وبين الرئيسين معمر القذافى وجعفر نميرى ، ثم زيارته للسودان التى استقبل فيها استقبالا حافلا ، وخطبته الشهيرة فى الخرطوم التى قال فيها : « نحن لا نريد الحرب للحرب ، ولكننا نريدها للتحرير ! »

كانت المنطقة تمور بالأحداث الجسام ، والأحداث كانت سريعة ومتلاحقة ودامية ، فلقد أعلن قبل شهر عن تكوين الجيش الشعبى الفلسطينى ، والاشتباكات بين مصر وإسرائيل لم تكف يوماً واحداً ، اشتباكات عنيفة ، دوريات مصرية تعبر القناة إلى سيناء لتدمر المواقع وتقتل الجنود وتعود بالأسرى ، إبادة مجموعة كاملة من الضفادع البشرية الإسرائيلية كانت تحاول عبور قناة السويس ، قوات السعودية والأردن والمقاومة تدخل معركة لمدة ٢١ ساعة مع قوات العدو ، إسرائيل تشن هجوماً على جزيرة شدوان الصخرية عند مدخل خليج السويس ، الهجوم يفشل ، ويفقد الإسرائيليون ثلاثين قتيلا وعشرات الجرحى ، شدوان تتحول إلى ملحمة بطولة يتحدث عنها العالم ، الفلسطينيون يفجرون ثمانية أطنان من المتفجرات فى ميناء إيلات الحربى ، مقتل عشرين وإصابة عشرات آخرين ... بعدها بأيام نسفت الضفادع البشرية المصرية سفينتين حربيتين إسرائيليتين فى إيلات أيضاً ، السفينتان كانتا محملتين بالدبابات والمصفحات

والذخيرة، وكانتا تستعدان لمغامرة حربية على الشواطئ المصرية... كانت الاحداث سريعة ومتلاحقة ويومية ولاهثة فى نفس الوقت.

وكان لابد أن يدور الحديث بين الرئيس ومدير مخابراته عن أشياء عديدة، كان لابد من طرح الأفكار، والبدائل، والأفعال، وردود الأفعال... ولم تكن قصة الحفار منذ بدايتها إلا جزءاً من هذه الكرة الملتهبة من الأحداث... ورغم أن المناقشة بين الرجلين ـ بعد طرح كل الحقائق والحسابات ـ كانت تؤدى إلى طريق واحد، هو ضرورة تدمير الحفار قبل دخوله مضيق باب المندب، برغم هذا فلقد قال عبد الناصر: إنهم سيستمرون فى بذل المحاولات الدبلوماسية لإثناء إسرائيل عن عزمها... ثم تحدث عبد الناصر عن المؤتمر الصحفى الذى عقده حاييم بارليف قبل محاولة غزو شدوان، وكيف أنه قال: إن الغرض من الغزو هو إضعاف الروح المعنوية عند المصريين... صمت الرجل قليلا ثم قال:

«هو ده اللى هم عاوزينه، عاوزين يضعفوا روحنا المعنوية، وعاوزين يقولوا للعالم إنهم مستقرين فى سيناء وإنها بقت بتاعتهم!»

بعدها... أخذ المدير يدلى للرئيس بما يحمله من معلومات حول الموضوع، لقد غادر الحفار المياه الكندية وهو الآن فى عرض المحيط... إن هناك أربع خطط جاهزة للتنفيذ قد وضعت لتدميره، أو على الأقل، لإتلافه حتى لا يمكنه العودة إلى العمل مرة أخرى، الخطة الرابعة هى الموكولة إلى القوات المسلحة، إنها الخطة الأخيرة، والتى سيضرب بها الحفار بالطيران المصرى لو فشلت الخطط الثلاث الأولى.

لا أحد حتى الآن يعرف إلى أين سيتجه الحفار؟ ومتى وأين سيتوقف للتزود بالوقود والمياه والطعام؟ السرعة التى تسير بها القاطرة «جاكوب فان هيموكيراك» التى تسحبه، من الممكن أن توصله إلى ميناء فى غرب أفريقيا بعد أسبوعين تقريبا، لكنه قد يمر على جزر الأوزرس التابعة للبرتغال فى منتصف الطريق... هناك احتمالات موضوعة، لكن الواقع أن الرجال يعملون فى ساحة شبه مظلمة ومكتظة باحتمالات أخرى كثيرة، وفوق هذا وذاك فالظروف نفسها صعبة، إن الرجال يخططون لحفار لا يعرفونه إلا على الورق فقط... إن أحداً منهم لم يره... ولم يشاهده ولو من بعيد... وهم ينتظرون ـ فى غضون أيام ـ وصول بعض الصور التى أخذت للحفار فى كندا، وهى صور ستوضح دون شك الكثير من التفاصيل، وستسهل بعض الخطوات، لكنها بالتأكيد ليست كافية... خبراء الهندسة البحرية وخبراء الملاحة أيضاً وضعوا كل إمكانياتهم الفنية فى خدمة العملية، إنهم يدرسون الآن كل الاحتمالات، سواء بالنسبة لجسم الحفار، أوبالنسبة لمساره.

أما بالنسبة لجسم الحفار وإمكانية تدميره، فليس أمام الرجال إلا التخيل أوالدراسة على حفار مشابه. المشكلة التى تواجهنا الآن، هى أن الحفار بنى خصيصاً للتنقيب عن البترول فى مناطق معينة فى السواحل الكندية، كما أنه بنى خصيصاً لشركة معينة، وقد يكون هناك تشابه فى التصميم العام، ولكن، لظروف قد لا نعرفها، قد يختلف التصميم بعض الشىء، لكننا نضع تخطيطنا الآن للتغلب على هذه العقبات!

وبالنسبة للمسار، فإنه لا يعنينا أن يتوقف الحفار فى جزر الازورس أم لا،

كل ما يعنينا فى هذا الموضوع، هو عامل الزمن، وحساب وصول الحفار إلى أحد موانئ غرب أفريقيا... ولو توقف فى جزر الازورس، التابعة للبرتغال، فلن يصبح من السهل أن نقوم بالعملية هناك، فالجزر صغيرة أكبرها جزيرة «سان ميجيل»، بها ميناء اسمه «بونتا دلجادا»، والسكان قليلون والغرباء من الممكن أن يعرفوا بسهولة، وعدد السائحين محدود للغاية... غير أن هناك ثلاث محطات لابد وأن يقف الحفار فيها أو — على الأقل — فى اثنتين منها — هكذا قرر خبراء الملاحة البحرية — هذه المحطات هى «دكار» فى السنغال، ثم «ابيدجان» فى ساحل العاج، وبعدها «لاجوس» فى نيجيريا، ونحن الآن على استعداد لاستقباله.

المشكلة الأساسية، أو الصعوبة التى يواجهها الرجال فى المقام الأول هى أنهم سوف يعملون فى أرض غريبة، حقا إننا نملك وسائل المعرفة التى بناء عليها نضع خططنا، ولكن هذا بالقطع لا يغنى عن الواقع، الواقع هو سيد أية خطة، وهو الذى يحدد معالمها... وهذا سوف يتطلب من الرجال جهداً غير عادى.

صمت رئيس المخابرات المصرية لثوان وهو ينظر إلى الرئيس الذى كان يستمع إليه، وساد الغرفة هدوء شديد، عاد بعدها الرجل يؤكد: أنه بالرغم من كل هذا فإنه فقط، يضع أمام الرئيس وبين يديه صورة صادقة للواقع الذى يتعاملون معه... لكن الخطط التى وضعت، ستجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، على الحفار أن يفلت!!

كان معروفاً عن عبد الناصر أنه مستمع جيد، ولابد أن الرجل قد استمع إلى مدير مخابراته فى تلك الليلة بانتباه بالغ، حتى إذا انتهى من عرضه بدأ عبد

الناصر الحديث، ليطرح عليه، الأبعاد السياسية للمشكلة كما يراها هو...

لابد أنه قال: إن المسألة — على المستوى السياسى — تبدو مركبة للغاية، ويكفى مصر ما لديها من مشاكل فى الوقت الراهن... ولسوف يصبح الأمر صعباً للغاية، لو أننا تورطنا فى مزيد من هذه المشاكل المحيطة بنا، مع دول نحن فى حاجة إلى تأييدها أو حتى تحييدها وتحسين علاقاتنا بها... ولسوف يصبح من أشد الأمور أهمية، ألا يشعر أحد، أو يعرف — بأى نوع من أنواع الأدلة مهما كان هذا الدليل تافها — أن مصر هى التى قامت بالعملية... إنهم بالقطع سيعرفون، بل سيكونون على يقين من أننا دمرنا الحفار، لكن المعرفة الاستنتاجية شىء، ووجود دليل على ما حدث شىء آخر... إن إسرائيل تعلم أننا لن نسكت على وصول الحفار، ولذلك فلسوف تكون الحراسة عليه مشددة إلى أقصى درجة... وهذا كله سيحتاج من الرجال إلى جهد شديد، وربما إلى معجزة فى زمن اختفت فيه المعجزات وبقيت قدرات البشر... ولكن، هذا هو السبيل الوحيد أمام مصر!

ساد الصمت بين الرجلين لثوان، وعاد عبد الناصر إلى الحديث وقد برقت عيناه، قال: إن العالم كله لابد أن يعرف أننا — رغم الهزيمة — نرفض الإذلال: «مش الإسرائيليين بس يا أمين. العالم كله لازم يعرف كده، وده مهم قوى بالنسبة لنا فى المرحلة دى!»

وبالقطع، فلقد وصلت الرسالة إلى الرجل الذى كان يستمع بانتباه شديد إلى الرئيس. كان يعلم أن الرجل مريض، وأن مرضه خطير، وأنهم يخفون أنباء هذا المرض بمشقة بالغة، وأن الأطباء منعوه من العمل المنهك

ولكن... ها هى الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحاً، والرجل فى مكتبه يعمل ويناقش ويحلل... وعندما حان وقت الرحيل، مد الرئيس يده مصافحاً أمين هويدى وهو يقول: «كل اللى أقدر أقوله إن كرامة البلد فى أيديكم!»

تمتم مدير المخابرات بكلمات يطمئن بها الرجل، صافحه واستدار منصرفا، غير أن يده ما كادت تصل إلى مقبض الباب، حتى هتف عبد الناصر باسمه، توقف مستديراً:

«أفندم!»

كان الرجل يقف فى منتصف الغرفة، وكان رأسه مشرعاً إلى الأمام كالسهم عندما قال:

«قول للرجالة كده، قول لهم إن كرامة البلد فى أيديهم؟»

وكانت هذه هى الجملة الوحيدة التى نقلها أمين هويدى، مدير جهاز المخابرات المصرى، فيما بعد، إلى «طاهر رسمى»!

• • •

ولقد كان طاهر رسمى فى هذا الوقت يركع على الأرض وسط غرفة مكتبه وهو يقلب فى بعض الأشياء الغريبة التى اكتظت بها الغرفة وتناثرت فى كل مكان، فوق المكتب وعلى الأرض والمقاعد والموائد، سيجارته بين شفتيه ترسل دخانها بلا توقف، ويداه مشغولتان دائماً، كان يفحص شيئاً ثم يضعه جانباً ليفحص شيئاً آخر... ومنذ أن ترك مكتبه الأصلى إلى هذه الغرفة، لم يعد يشعر بفرق بين ليل ونهار، قال لنفسه ذات مرة: إن الإنسان لديه قدرات لا تخطر

ال، وهو يستطيع أن يكيف نفسه وجسده على كل الظروف... أمسك شيئا ده وغمغم بكلمات تنبئ انه غير راض، فى ركن من الغرفة كان يقف «عزت بلال»، صديقه القديم وزميله، رجل المعلومات الذى لم يفارقه منذ أن ا هذا العمل... لم يذهب إلى بيته مرة، ولم يخرج مرة، كان ينام كيفما اتفق فى أى مكان، وهو دائماً على استعداد للإجابة عن أى سؤال... عزت بلال، الكومبيوتر ذو القدرة الفذة على حفظ المعلومات والتذكر، الهادئ الأعصاب، الذى يشبه نجوم السينما ولا يتحدث إلا نادراً، وإذا ما تحدث جاء حديثه مركزاً فى كلمات جد قليلة!

كان عزت يقف الآن أمام مائدة متوسطة الحجم بجوار باب فى الناحية اليسرى من الغرفة يؤدى إلى حمام جهز بكل ما يحتاج إليه إنسان يعيش فى هذه الغرفة ليل نهار، ولا يغادرها أبداً.. فوق المائدة كانت هناك معدات كهربية لصنع الشاى والقهوة، فى طرفها الأيمن وضعت خراطيش سجائر مصرية، وصناديق للبسكويت، وفى ركن من المائدة كان ثمة طبق به بقايا طعام لم يؤكل!

مرة أخرى عاد طاهر يغمغم غير راض، التفت عزت نحوه وابتسم، كان مشغولاً بصنع فنجان من القهوة الفرنسية التى يعشقها، فكر فى أن يسأل طاهر إن كان يريد كوباً من الشاى، لكنه خشى ــ إن سأله ــ أن يقطع عليه استغراقه، لذلك فقد عاد إلى المائدة، وبدأ فى صنع كوب من الشاى دون سؤال!

كانت الغرفة تبدو غريبة فى كل شىء... فى الصدر يقوم مكتب طاهر

رسمى، وقد تكدست من فوقه ومن حوله أشياء تبدو وكأن لا رباط بينها، فوق المكتب كانت هناك بعض الصناديق المعدنية الرقيقة من تلك التى تستعمل فى حفظ الكربون الذى يولد الأوكسچين للغطاسين، فى ركن من المكتب صف من الكتب الضخمة، أعلاها كان ثمة دليل بحرى عن كل السفن التى تسبح فى بحار العالم، كل السفن والقاطرات واليخوت... بجوار الكتب عدد من أحجار البطاريات من مختلف الأحجام ومن ماركات متعددة، على الطرف كانت هناك بطارية ــ مما يستعمله الغواصون ــ وكانت مضاءة، وبجوارها ساعة من نوع خاص تحسب الزمن مرتبطا بضوء البطارية وقوته... على سطح المكتب كانت هناك مجموعة من أقلام التفجير، تلك الأقلام التى تضبط الزمن وقت التفجير، كانت هناك أقلام لثلاث ساعات، وست ساعات، وأربع وعشرين ساعة... على الأرض، بجوار المكتب تماماً، صندوق خشبى صغير رسمت عليه جمجمة، وكان واضحاً، أن هذا الصندوق من النوع الذى تحفظ فيه المتفجرات... ثم عينات من حبال وزعانف مطاطية وأنابيب أوكسچين، حمالات ونشرات لبعض السفارات، وكمية هائلة من تذاكر السفر على مختلف الخطوط الجوية... أما الحوائط، فلقد امتلأت بالخرائط من مساحات مختلفة كانت تبين بدقة شديدة بعض المواقع على الساحل الغربى لأفريقيا. بعض منها كان خرائط لموانئ بعينها، مداخلها ومخارجها وأرصفتها وعمق مياهها...

على حائط آخر خريطة كبيرة للمحيط الأطلنطى رسمت عليها خطوط متقاطعة وممتدة ومنحنية وكانت هذه الخطوط تبين الطرق التى تسلكها السفن فى هذا المحيط المترامى فيما بين القارتين الأمريكية والأفريقية... بجوارها خريطة

رى لأوربا وأفريقيا بالذات، وقد امتلأت بشبكة شديدة التعقيد من الخطوط الملونة، والتى تبدأ جميعها وتنتهى عند القاهرة... كانت هذه خريطة تفصيلية لخطوط الطيران التى تصل القاهرة ببعض العواصم الأفريقية عن طريق أوربا أفريقيا أوآسيا.

فى مواجهة المكتب، كان الحائط مشغولا بعدد لا بأس به من الساعات التى تبين التوقيت المحلى فى بعض العواصم الأوربية، وموانئ غرب أفريقيا... بجوار المكتب، من ناحية اليسار، مائدة رصت عليها مجموعة من التليفونات المجهولة الأرقام، والتى لا يعرف أرقامها سوى عدد قليل لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة... فيما يلى مائدة التليفونات، فيما بين المكتب والحائط، كان هناك سرير سفرى صغير، تحت وسادته بيجاما لم تستعمل، برغم وجودها فى هذا المكان منذ ما يزيد على ثلاثة أسابيع.

ومنذ ثلاثة أسابيع مضت، وعندما بدا واضحا أن لا مفر من خوض تلك المعركة الخفية صدرت الأوامر بتجهيز غرفة مكتب أخرى للسيد طاهر رسمى، كان مطلوباً منه أن يتفرغ تفرغاً كاملاً، وألا يشغل نفسه بشىء، وألا يشغله أحد بشىء، وألا يعرف مخلوق مكانه... يومها ودع الرجل زوجته وأولاده زاعماً أنه مسافر فى مهمة تستغرق شهراً أوبعض شهر، ولقد كانت عائلة طاهر تعودت على هذا النمط من الحياة، فاستقبل الجميع الأمر بشكل طبيعى... ووقع الاختيار على هذه الغرفة التى تقع فى مبنى آخر يبعد بحوالى خمسمائة متر عن المبنى الذى يقع فيه مكتبه الأصلى، وخلال أربع وعشرين ساعة، كان هذا المكتب

قد جهز تماماً بكل ما يحتاج إليه إنسان كى يعيش فيه ليل نهار، وألا يغادره إلا للضرورة القصوى.

عندما انتهى عزت بلال من صنع كوب الشاى، وحمله إلى طاهر الذى كان يقف الآن خلف مكتبه وفى يده صندوق من تلك الصناديق المعدنية الصغيرة، وكان يضغط على الصندوق بعنف محاولا تحطيمه بكفيه... راح عزت يرقب صديقه فى صمت، ويبدو أن «طاهر» لم يعجبه شىء ما فلقد ألقى بالصندوق المعدنى الصغير على الأرض وراح يسحقه بضربات متتالية ومحكمة من قدمه... وتهشم الصندوق!

التفت طاهر نحو عزت مشيراً إلى الصندوق قائلاً:

«العلب دى لازم تتغير... لازم نشوف لها حل... النوع ده ماينفعناش!»

ظل عزت صامتاً يرقب زميله وهو ينظر إلى الصندوق المعدنى المهشم، لكنه ما لبث أن هتف:

«أنا عارف أن العلب دى مش بتتعرض لصدمات تحت المية، لكنها حاتتنقل فى طيارات وانت عارف شنط العفش بيجرى لها إيه فى المطارات خصوصاً فى الدول اللى زينا... لو صندوق من دول حصل فيه شرخ الضفدع اللى لابسه أكيد حايتخنق تحت المية؟»

ثم ما لبث أن هتف:

«الشنط... الشنط ماوصلتش!»

هذه المرة استجاب طاهر لصمت صديقه، كان عزت قد أمسك بفنجان قهوته

..رنسية بكلتا يديه طلبا للتدفئة برغم جهاز التكييف الدائر ليل نهار، والذى .. صوته فى الغرفة إلى جزء من الصمت فلم يعد الرجلان يشعران به... مد ..سر يده ورشف من كوب الشاى رشفة سرت سخونتها إلى صدره فشعر بقليل الراحة، أشعل سيجارة وعاد إلى مقعده عندما سأله عزت:

«مش حاتكلم نديم؟»

وكان هذا الأمر – بالتحديد – هو الذى يشغل طاهر رسمى منذ أن غادر ..كتب المدير، كان يشغله ويلح عليه أنه لابد وأن يطلب نديم تليفونياً ليبدأ ..مله، غمغم وكأنه يحذر نفسه:

«نديم ولاده الاثنين عيانين!»

فى استخفاف قال عزت:

«دى حصبة مش عيا!!»

ولم يرد طاهر، فلقد كان يعرف أن الحصبة – فى مصر – مرض ليس بخطير، ولكن... من أين لرجل مثل عزت بلال لم يتزوج حتى الآن ويرفض الزواج، أن يعرف إحساس الأب نحو ولده المريض... ثم، لقد كان يعلم أنه سيطلب نديم سواء أكان ولداه مريضين أم غير مريضين... إن الوقت يجرى، وأصبح للدقيقة الآن ثمن باهظ لا يمكن تعويضه، وكان يعلم معنى أن تدور العجلة، التفت نحو عزت وابتسم... هذا الهادئ دائماً، المرتب دائماً، المنظم دائماً، الثابت الوجدان دائماً، هذا الكومبيوتر الذى اشتهر منذ صباه بقوة ذاكرته على الاستيعاب والتذكر، كان يكفى – أيام الدراسة والسهر حتى الصباح – أن

تسأله سؤالا حتى يجيب **عليه بلا لحظة** تردد، وأن يذكر لك رقم الصفحة التي تحوى الإجابة فى الكتاب، وربما ذكر مكان السطر أيضاً...

« مش حاتكلم نديم ؟! »

برغم أنه المسئول، برغم إحساسه الموغل فى العمق بالمسئولية، ردد :

« الساعة واحدة وعشرة... زمانه نام ! »

ولم يرد عزت على صديقه، وهل فى مثل هذه المهنة معنى للنوم أو للساعة سواء أكانت ليلا أونهارا ؟!... اندفعت يد طاهر نحو سماعة واحد من أجهزة التليفونات المجاورة، أدار القرص فساد الصمت حتى رفعت السماعة من الطرف الآخر :

« مساء الخير يا نديم ! »

« أهلاً... مساء النور ! »

« أيه أخبار الولاد ؟ »

« لسه الحرارة عالية إنما الدكتور طمننا والحمد لله ! »

ضحك طاهر وهو يقول :

« عزت بيقول إنها حصبة مش عيا ! »

وانطلقت من الطرف الآخر ضحكة نديم وهو بيقول :

« على العموم كويس إن الاثنين أخذوها سوا علشان نرتاح منها ! »

كان الحديث يدور بين صديقين قد يكونا موظفين فى وزارة الأوقاف، أو فى إحدى شركات القطاع العام... كان حديثاً عادياً للغاية، حتى قطعه نديم متسائلا :

« لكن أنت مقلتليش... إيه أخبار مولانا الشيخ ؟! »

« حايحج السنة دى ! »

فى دهشة ممزوجة بفرح صاح نديم :

« أيه ده ؟... ده خبر حلو جدا، هو اللى قال لك ؟! »

« كلمنى من شوية وقال إنه نوى خلاص ! »

« على خيرة الله ! »

كان الحوار عادياً حقاً، فيما عدا الجزء الأخير الذى قد يبدو لأى متصنت، حوار عادى تماماً... إلا إذا كان يعلم أن كلمة « الشيخ » هى الاسم الكودى للحفار، أما كلمة « الحج » فقد كانت رمزاً للعملية كلها !!

ولقد فهم نديم هاشم كل شىء، فهم من الحوار أن الحفار قد غادر المياه الكندية إلى المحيط الأطلنطى، وأنه مطلوب فوراً، فى هذا الوقت، وعلى جناح السرعة !

• • •

عندما أعاد نديم هاشم سماعة التليفون إلى مكانها وهم بالحركة، اصطدم بزوجته التى اكتشف أنها كانت تقف إلى جواره. ولابد أنها استيقظت على **صوت جرس التليفون**، فلقد كان النوم يداعب جفونها، كانت الإضاءة فى البيت خافته، لكنها لا تمنع من الإحساس بأن البيت قد أثث بذوق خاص... تبادل معها نظرة سريعة، لكنه هرب من عينيها متسائلا :

« أيه أخبار الولاد ؟! »

كان السؤال بلا معنى، فلقد ظل طوال المساء يضع لهما الكمادات الباردة، ولذلك فهو لم يغير ملابسه، كان لديه ذلك الإحساس الغامض الذى يغزوه كلما كان مقدماً على عملية من تلك العمليات التى تتسم بالخطورة... ولقد كانت زوجته تعرف معنى هذه المكالمات، لم تكن تدرك بطبيعة الحال ما تنطوى عليه من حقائق أو أخبار، ولكنها بالتجربة والممارسة والإحساس، تعلمت أن مثل هذا الحوار يحمل فى طياته شيئاً ما سيأخذ منها زوجها بعيداً عنها وعن الولدين... كما أنها كانت تعرف أن هذا الرجل ـ الذى يلقبه أصدقاؤه بقلب الأسد ـ شديد الرقة والحنان، يحمل قلبه كماً هائلا من الحب... لذلك، فعندما سألها عن الأولاد، جاءه ردها:

« الشنطه جاهزه جنب الدولاب! »

أشاحت وهى تهم بالحركة عندما امتدت يده لتمسك بذراعها، استجابت ليده وقد اكتسى وجهها بحزن لم تستطع إخفاءه، ومنذ أسابيع مضت، كانت تشعر بأن زوجها مقدم على عمل ما، كان يجلس معهم، يلاعب الأولاد، يضاحكهم، يغازلها، لكنها، حتى وهو بين ذراعيها، كانت تشعر أنه غير موجود... كان دائماً هناك، بعيداً، حيث الخطر والموت المحتمل فى كل لحظة... ولقد سألته ذات يوم منذ سنوات، لم اختار هذه المهنة؟ فأجابها ببساطة أفحمتها: «علشان أحميكم!»... ولقد تعلمت بالتجربة ألا تسأله عن شىء، فهو لن يقول شيئاً، ولن يبوح بشىء مهما حاولت... تزوجته بعد قصة حب تحدثت بها العائلة والأصدقاء، واكتشفت بعد الزواج أنها لا تملك فى زوجها كل شىء... فى الضوء الخافت جاءها صوته مستسلما:

« مش حاغيب كتير! »

ولم تجد معنى لما قال، فهو دائماً ما يقول إنه لن يغيب طويلا، وقد لا يغيب بالفعل سوى يوم أو يومين، لكن غيبته قد تطول إلى أسابيع لا يعلم عددها إلا الله... همست وقد صعد الدمع إلى عينيها:

« خلي بالك من نفسك يا نديم! »

اختنق صوتها بالدمع فأصابته الدهشة وهمس مستنكراً:

« إيه ده بقى؟! »

لم تكن هذه هى المرة الأولى، ولقد عودته ألا تظهر مشاعرها قبل الرحيل إذا ما كان هناك رحيل، انزلقت الدموع من عينيها وهمست:

«الولاد حايسألوا عليك!»

لم يرد عليها، كان يعلم أن الحوار فى مثل هذه المواقف لايعنى شيئاً، ضمها إلى صدره فى حنان فجر الدمع من عينيها، دفعها إلى بعيد ونظر إليها باسماً وهو يقول:

«قولى لهم بابا مسافر!»

وضحكت!!

ولم يكن يريد سوى هذه الضحكة... وضع يده فى يدها، ودخلا معاً غرفة النوم، ارتدى الچاكيت وهو يطلب منها أن تأتيه بالمعطف الثقيل، غص حلقه، فلقد كان يعرف أنها لابد أن تخمن أنه مسافر إلى الشمال حيث الصقيع والبرد والثلج، وكان يعلم أنه لن يكون فى حاجة إلى معطف أصلا حيث هو ذاهب،

ولكن، وفى مثل مهنته، فالسرية تسرى حتى على أقرب الناس إليه... وضع المعطف على ذراعه وانحنى واختطف الحقيبة التى تعود أن يأخذها كلما كان فى مهمة، ولم ينس وهو فى طريقه إلى الباب ان يمر بغرفة الولدين، وأن يلقى عليهما نظرة من بعيد.

كانا مستغرقين فى النوم وقد ملأت البقع الحمراء وجهيهما، تمنى لو أنه استطاع أن يقبلهما، لكنه خشى أن يستقيظ أحدهما، فاندفع مغادراً البيت، ولكن صورتهما لم تغادر مخيلته طوال رحلته الطويلة مع الخطر!!

• • •

من التاسعة ــ من صباح اليوم التالى، أو نفس اليوم على وجه التدقيق ــ وحتى الثانية عشرة ظهراً بالضبط، دخل إلى مطار القاهرة الدولى ثلاث أشخاص، لم يكن أحدهم يعرف الآخر، وكان كل منهم مسافراً على خطوط جوية تختلف عن الآخرين... غير أن الثلاثة كان لهم نفس الهدف!.

....
....

فى التاسعة وعشر دقائق، أخذ ضابط الجوازات الشاب يقلب فى الجواز الذى قدمه له أحد المواطنين، كان اسم المواطن المدون فى الجواز هو: إبراهيم سيد فرج الله، والوظيفة: مدرس... نظر الضابط فى الصورة ثم رفع رأسه نحو إبراهيم، وكان هذا أسمر الوجه، بسيط الملابس، طيب الملامح، وكان يبدو فى وقفته أمام الضابط، وكأنه ريفى يغادر قريته لأول مرة... لم يكن هناك ما يبعث

الشك، وكانت التأشيرات كلها صحيحة، فهذه تأشيرة الى سويسرا، [illegible] الى فرنسا، ثم تأشيرة ثالثة إلى السنغال.... انتاب الضابط إحساس [illegible] تجاه هذا المواطن، فسأله:

« على فين يا أخ ابراهيم ؟! »

« دكار بإذن الله! »

« وواخد تأشيرات لفرنسا وسويسرا ليه ؟! »

لم يكن من حق الضابط أن يسأل، وكان إبراهيم ــ يقينا ــ يعرف ذلك، [illegible] أجاب فى تسليم كامل:

« أصل أنا لا مواخذه لى ابن عم بيشتغل فى الأمم المتحدة فى چنيف، ولما [illegible]رف انى مسافر دكار، بعت لى وقال لى انى لازم حاعدى على باريس، وسفرية [illegible]سفرية، قال لى ما تعدى على يومين أفرجك على سويسرا، قلت أروح أتفرج [illegible] نفسى، آهى عزومه ومش هاغرم فيها حاجة... وإذا كنت حافضل فى [illegible]اريس ١٢ ساعة، ليه ماخليهمش ٢٤ واتفسح لى يوم والا اثنين حسب [illegible]تساهيل... محدش ضامن الحكاية دى تتكرر تانى والا لأ! »

كانت لهجة المواطن إبراهيم سيد فرج الله، فوق تدفق الحديث من بين شفتيه فى سلاسة من فكر فى الأمر طويلا، صادقة بحيث دفعت الضابط إلى وضع الختم فوق الجواز وإعادته إلى صاحبه... وكأى ريفى يغادر بلده لأول مرة، دخل إبراهيم إلى صالة المطار، وسأل عن البوابة المخصصة لركاب الخطوط الجوية السويسرية، واختار مقعداً فى قاعة الانتظار، وظل جالساً عليه حتى نودى على طائرة «السويس اير» فى تمام الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة!.

حتى عندما صعد إبراهيم إلى الطائرة وقادته المضيفة الحسناء إلى مقعده، كان يبدو غشيماً إلى درجة أن المضيفة عادت إليه كى تربط له حزام المقعد، وقد تخضب وجهه بحمرة الخجل عندما انحنت عليه الغادة السويسرية التى بدت له شديدة الحسن، وكان يشعر بعيون الركاب القلائل الذين صعدوا إلى الطائرة، وهم ينظرون إليه بإشفاق أو سخرية... ولم يكن هذا فى واقع الأمر يعنيه فى كثير أو قليل، فلقد كان يشغل ذهنه إلى أقصى درجة، تلك المهمة التى أوكلت إليه، وكان عليه القيام بها فى دكار... كان عليه أن يغطى مساحة تمتد من دكار شمالا إلى أكرا فى الجنوب، حتى لا يفلت منه حفار اسمه «كينتنج» !!

....
....

فى الوقت الذى أغلقت فيه أبواب طائرة السويس اير المتجهة إلى جنيف، كان ضابط الجوازات الشاب يفحص جوازا لرجل بدا له متأنقا، كان أبيض الوجه تخضبت بشرته بحمرة من يعيش فى بحبوحة، تفوح منه رائحة عطر فرنسى اشتهر فى مصر فى تلك الأيام... كان اسم الرجل: عمر محمد السيد، وكانت المهنة: رجل أعمال، وأمام الضابط فى الجواز تأشيرة إلى المملكة المتحدة [إنجلترا] وأخرى إلى غانا... ورغم أن الجواز كان قبل ذلك ملىء بتأشيرات دخول وخروج إلى عدد من دول أوربا وأفريقيا، مما يوحى بأن الرجل كثير السفر، إلا أن الضابط أراد أن يسأله ــ دون أن يدرى هو نفسه لماذا ــ عن

سبب سفره، لكنه ما كاد يرفع عينيه إلى الرجل لتطالعه ابتسامته الواسعة الواثقة، حتى سمع من خلفه صوت أحد رؤسائه يهتف:

«عمر بيه... أهلا وسهلا!»

رحب الضابط الكبير بعمر بك هذا ترحيب من يعرف الرجل ويعرف قدره، فما كان من الضابط الشاب إلا أن امسك بالختم وأنهى الإجراءات وسلم الجواز لصاحبه الذى كان يثرثر مع الضابط الكبير ثرثرة من يعرفه معرفة قديمة... وعندما دلف عمر بك إلى صالة المطار، كان أول شىء فعله أن اتجه إلى البار وطلب كأساً، ورغم أن الوقت كان مبكراً، فإنه كان يعلم أنه لابد وأن يبدو سكيراً مقبلا على ملذات الحياة بنهم من هبطت عليه النعمة على غير توقع... وقبل أن يبدأ النداء على الخطوط الجوية البريطانية بدقائق، نهض إلى السوق الحرة، واشترى عدداً من زجاجات العطر وعدداً آخر من الكرافتات وولاعتين ثمينتين، وثلاثة أجهزة راديو صغيرة الحجم... ودفع الثمن بالإسترلينى!!

عندما استقر عمر فى مقعده بالطائرة، وربط حزام المقعد، وأسند رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه، راح يفكر فيمن يمكن الاعتماد عليهم فى تسقط الأنباء دون أن يشعروا بما يريد... لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يسافر فيها إلى أكرا، وكان له أصدقاء عديدون هناك، ولم يكن هذا يقلقه... كان ما يقلقه ــ إذا ما كان عليه أن يرسل كل ثلاث ساعات رسالة إلى القاهرة ــ أنه لن ينام حتى يصل هذا الحفار «كينتنج» إلى دكار أو أبيدجان أو لاجوس فى نيجيريا... لكنه عندما تذكر، وسط زحام أفكاره أنه سيقضى فى لندن أربعاً

وعشرين ساعة، ابتسم، فبرغم كراهيته الشديدة للإنجليز ــ استشهد جده لأمه برصاصة إنجليزية فى ثورة ١٩١٩ ــ إلا أنه كان يعشق بلادهم!

....

....

فى الثانية عشرة ظهراً، كان ضابط الجوازات الشاب يستعد لتسليم نوبته إلى أحد زملائه، لذلك... فعندما تسلم جواز المواطن أحمد زين العابدين محمود، الذى كان ذاهباً لأداء العمرة، ختم الجواز بسرعة دون أن يكلف نفسه مشقة النظر إلى وجهه.

وكان المواطن أحمد زين العابدين فى طريقه لأداء العمرة فعلا... وكان سعيداً سعادة خفية، برغم أنه يعلم أنه لن يستطيع زيارة مسجد الرسول، فلقد كان عليه أن يطير من جده إلى مقديشو فى الصومال بعد ثمان وأربعين ساعة، وكان عليه أن يغطى الشاطىء الشرقى لأفريقيا كله فى انتظار حفار قد يصل بعد أسابيع طويلة، أو لا يصل... وكانت مهنته التى لم يلق لها ضابط الجوازات اعتبارا هى: صاحب مصنع جلود فى المغربلين!

• • •

فى الوقت الذى دخل فيه أحمد زين العابدين محمود إلى صالة المطار، كان ثمة سيارة صغيرة ذات موديل يرجع إلى أكثر من عشر سنوات مضت، تنهب الطريق الصحراوى فيما بين القاهرة والإسكندرية بسرعة تفوق سرعتها حتى وهى جديدة... ويبدو أن سائق السيارة كان مستغرقا فى التفكير إلى الحد الذى

ـاه قدرة سيارته على إحتمال تلك السرعة! ... وكان لابد لصاحبنا من أن ـب أفكاره، فهو مقدم ــ وسط جو ملتهب بالعواصف والنار والدم ــ على ما ـف يزيد النار اشتعالا... والذى كان يشغل باله، إنه يريد رجالا من نوع ـص... إنه شخصياً لم يذهب إلى دكار أو أبيدجان أو لاجوس من قبل، ـا لا يعنيه كثيراً وإن كان يشكل واحدة من الصعوبات التى يجب أن يتغلب ـها... لكن الصعوبة الحقيقية كانت فى هؤلاء الرجال الذى سيصبح عليهم أن ـتعدوا ــ منذ الغد ــ للسفر إلى عاصمة لن يعرفوها إلا والواحد منهم فى المطار ـسلم جواز سفره، ثم هم سيذهبون إلى بلد لم يروه من قبل، ولا يعرفون لغة ـكانه... والأكثر أن أحدهم لن يعرف المهمة التى سيقوم بها إلا قبل أن يقوم ـها بساعة على الأكثر... ثم سيصبح عليه أن يسبح فى قلب مياه لم يسبح فيها، وأن يدمر حفاراً لا يعرف عنه شيئاً...

ومنذ أيام قليلة، بالتحديد فى يوم الجمعة ٦ فبراير من عام ١٩٧٠، سمع عن بعض هؤلاء الرجال الذين هزوا الدنيا بعمليتهم الجريئة التى دمروا فيها سفينتين إسرائيليتين فى ميناء إيلات، تحدث العالم كله عن هذه العملية... وهى لم تكن عملية، بل كانت ضربا من الجنون... وضرب من الجنون أن تطلب منهم الآن، ولم يكتمل أسبوع على ما قاموا به، أن يقطعوا آلاف الأميال، بعيداً بعيداً عن الوطن، ليعيدوا الكرة من جديد... ولكنه ــ أيضاً ــ ضرب من الجنون، ألا يستعين بهم مهما كانت المخاطر!

نظر فى ساعة يده وأيقن أن «طاهر رسمى» يجلس الآن فى مكتب نائب

رئيس المخابرات الحربية، وقدر أنه سيصل إلى الإسكندرية فى خلال ساعتين، ويكفى نصف ساعة أخرى ليصل إلى مقر القوات البحرية فى رأس التين ... وهو وقت كاف لأن تكون المقابلة قد تمت، والتعليمات قد صدرت باستقباله!

• • •

ولم يستغرق اللقاء بين «طاهر رسمى» واللواء محرز نائب رئيس المخابرات الحربية أكثر من نصف ساعة، كانت هناك تعليمات من رئاسة الجمهورية بتسهيل المهمة بأقصى سرعة وبأية تكاليف، كان الحديث بين الرجلين ودياً للغاية، وبرغم هذا لم يسأل اللواء محرز عن طبيعة هذه المهمة التى تتطلب هذا العدد الهائل من الضفادع البشرية الذى يطلبه «طاهر رسمى»

«العدد اللى انت طالبه كبير قوى يا طاهر!»

«ماهى العملية كمان كبيرة!»

«أنت عاوز ستاشر ضفدع، أجيبهم لك منين؟!»

غير أنه كان يعلم، كما كان طاهر يعلم، أنه سيوافق... فرفع سماعة التليفون وتحدث إلى مدير مخابرات القوات البحرية، وطلب منه أن يسهل مهمة السيد، «صبرى غنيم» الذى سيصل إلى الاسكندرية بين ساعة وأخرى، وأن يلبى كل طلباته!

وانتهت المكالمة...

لكن مدير المخابرات البحرية كان يتساءل وهو يعيد السماعة إلى مكانها: أيه مهمة هذه، وأية طلبات تلك التى سيطلبها السيد «صبرى غنيم».

ولم يكن صبرى غنيم هذا، سوى «نديم هاشم» بعينه!

٣ ▪ الفصل الثالث

العريف.. والمتدين.. والملازم.. والقرش.

«... ... ... لكنه الأن أمام هدف يسير. يسير بلا توقف، هدف دائم الحركة. هدف لن يتوقف إلا فى قلب الحماية وخلف أسوارها المنيعة... وإذا ما توقف فى أثناء المسير، فليوم أوليومين كى يتزود بما يحتاج إليه، ثم يعاود الحركة من جديد... وفرصته الوحيدة، فى هذا التوقف المؤقت.
فكيف؟!!»

□ عبثا حاول طاهر رسمى أن ينام، كان يعلم أن جسمه فى حاجة إلى النوم، والنوم العميق، وأن ذهنه فى حاجة إلى الراحة... وبرغم هذا، مضت ساعتان وهو يتقلب فى الفراش دون أن يغمض له جفن... نهض جالساً وألقى ببصره إلى حيث كان «عزت بلال» قد تمدد غير بعيد على مقعدين متقابلين، حاول أن يرسله إلى بيته، أو إلى غرفة مكتبه المجهزة هى الأخرى بكل وسائل الإقامة دون جدوى... كان عزت يعلم أن مكالمة قد تأتى عبر البحار، أو رسالة أو برقية تحتاج منه إلى معلومة، مهما صغرت، فلابد إذن أن يكون موجوداً، فليس هناك وقت يضيع فى الحديث التليفونى، أو مشوار من مكتب إلى مكتب حتى ولو كان يستغرق دقيقة واحدة... ليس هناك وقت، لأن الوقت يجرى بسرعة مذهلة، والحفار يخب فى المحيط متحركاً بلا توقف نحو هدفه... وها هو الليل يمضى والسكون يجثم على كل شىء إلا من صوت جهاز التكييف وحفيف الرياح على الشجر فى الخارج.

نظر طاهر فى ساعة يده على الضوء الخافت لمصباح مكتبه القريب من الفراش، وكانت الساعة تقترب من الثالثة صباحاً، أشعل سيجارة ونهض متثاقلا إلى حيث النافذة، سار على أطراف أصابعه حتى لا يوقظ صديقه النائم، راح يرقب

المشهد من خلف الزجاج، وعلى ضوء المصابيح الزرقاء فى الخارج كان رذاذ المطر يلتمع دون صوت، ولا شىء سوى ساحة صغيرة تتوسطها رقعة خضراء، ثم جهامة المبانى المحيطة بالمكان، ولابد له من أن يعيد ترتيب أفكاره... أفلا يمل من إعادة ترتيب أفكاره ؟!.

ترى ... أين يكون الحفار الآن ؟!... فى أية بقعة من المحيط المترامى يخب وراء قاطرته الهولندية ؟!

ماذا لو هبت عاصفة عاتية وابتلعته ؟!
هل يفرح أم يحزن ؟!

سيحزن بالتأكيد لأن غرق الحفار سيحرمه من متعة تقديم شىء لهذا الوطن... الوطن كلمة تبدو مبهمة لهؤلاء الذين لا يمارسون معرفة الحقيقة، لكنها لمن كل مثله تحمل فى طيات حروفها شحنات رهيبة من الحب والإجلال والعزة وغريزة البقاء مرفوع الرأس !

أتاح له عمله أن يعرف مصر على حقيقتها، بلا رتوش ولا زواق ولا حماس. هاهى ... مصر اللحم والدم والنيل والأرض، فكم ثار عليها، وكم عشقها ؟!

ضابط المخابرات كالطيار ... يتكلف كثيراً، ألوف الألوف من الجنيهات يتكلفها حتى يصبح حقاً ضابطاً للمخابرات، ولقد تكلفت مصر كثيراً كى تعلمه، وعلمته... أفلا يرد لها بعض الدين ؟!

....

....

كانت المشكلة الأساسية التى تواجه طاهر رسمى، هى ذلك التناقض الذى فرضته عليه العملية منذ اللحظة الأولى... وأية عملية من هذا النوع لابد وأن تتوافر لها عنصران أساسيان، عنصران يكمل بعضهما البعض فى تناسق وتناغم وتماسك وتكامل كلحن موسيقى مركب... ولكن هذين العنصرين - فى هذه العملية بالذات - متناقضان !!

الأمن ... والكفاءة !

قطبا أى نجاح، وسلاحا أية معركة، والطريق الحقيقى لأى انتصار... هكذا تعلم يوم تقرر أن يصبح واحداً من هؤلاء الرجال الذين اختاروا الظل مكاناً لحياتهم، وهكذا علمته التجارب والسنون والصراع الوحشى من أجل الحفاظ على كيان هذه الأمة !

الأمن يتطلب «سرية مطلقة» وكتماناً شديداً، وإخفاء كاملا لتلك الحركة المحسوبة فى حقل ترصد فيه كل حركة وكل همسة وكل إيماءة، بل كل نظرة... تسعون فى المائة من نجاح هذه العملية يتوقف على عدم إحساس إسرائيل بما هو مقدم عليه ... والأمن ... يتطلب عدداً قليلا من الأفراد... أقل عدد ممكن منهم ... وأنت تستطيع أن تحفظ سراً بين اثنين، ولكنك تضمن إخفاء هذا السر تماماً إذا لم تبح به لأحد !!

وإذا كان الأمن يتطلب عدداً قليلا، فإن الكفاءة ... كفاءة الأداء، وكفاءة الحركة، وكفاءة التخطيط، ثم كفاءة التنفيذ. كلها تتطلب عدداً مناسباً من الأفراد ... والعدد المناسب هنا يصل إلى العشرات، فى كل أنحاء العالم،

من أقصى الشمال حتى قرب خط الاستواء وما تحته بالآف الأميال، ومن أقصى الغرب عند القارة الأمريكية، حتى منتصف الطريق إلى الشرق الأقصى !!

فكيف ؟!

كيف يمكن التوفيق بين عنصر يتطلب عدداً محدوداً، وعنصر يتطلب عدداً كبيراً ؟!

كيف يمكن التوفيق بين نقيضين ؟!!

ثم ... لم يكن هذا هو اللغز الوحيد الذى أصبح عليه أن يحله. لم تكن هذه هى المشكلة الوحيدة.. فلقد كانت مشكلة المشاكل أنه يتعامل مع «هدف متحرك»... وإذا ما كان الهدف ثابتاً، فإنك تستطيع أن تعمل بهدوء، أن تراقب وتخطط وترتب وتتعرف على الفجوات والثغرات، ونقاط الضعف ونقاط القوة، وتختار الرجال كما تختار الوقت المناسب... ثم ... ثم تنفذ!

ولكنه الآن أمام هدف يسير، يسير بلا توقف، هدف دائم الحركة، هدف لن يتوقف إلا فى قلب الحماية وخلف أسوارها المنيعة ... وإذا ما توقف فى أثناء المسير، فليوم أو يومين كى يتزود بما يحتاج إليه، ثم يعاود الحركة من جديد ... وفرصته الوحيدة، فى هذا التوقف المؤقت.

فكيف ؟!!

وما الذى يمكن أن يحدث لو أن الحفار توقف فى ميناء ما، ورحت تخطط، وترسم، وتدبر، ثم ... إذا ما حان وقت التنفيذ، وجدته يتحرك من جديد ؟!

فى أى الموانىء سوف يرسو؟!... فى أية مياه ؟!

هناك ثلاث محطات انتهى إليها تقديره للموقف، هى: دكار فى السنغال، وأبيدجان فى ساحل العاج، ثم لاجوس فى نيجيريا .. وفى ضوء كل الاحتمالات التى وضعت، وفى ضوء ما قاله خبراء البحرية من مهندسين وقباطنة، فإنه لابد للحفار، فى أسوأ الظروف، أن يتوقف فى اثنتين من هذه الموانىء الثلاث... ولكن لنفرض أن الإسرائيليين، وضعوا تخطيطاً آخر، وكما يحاول هو أن يفكر بعقلية الإسرائيليين، فإن الإسرائيليين سيحاولون ــ بالتأكيد ــ أن يفكروا بعقليته.. إن كل المحاولات التى بذلت لمعرفة الموانىء التى سيتوقف فيها الحفار، باءت بالفشل.. حتى القبطان الهولندى «ڤان كيرك»، قائد القاطرة التى تسحب الحفار، لا يعرف أين سيرسو وفى أى ميناء ... كل ما يعرفه الرجل أن عليه أن يتجه الى غرب افريقيا، وأنه سوف يتلقى وهو فى عرض المحيط، رسالة لاسلكية تنبئه بالميناء الذى سيصبح عليه التوقف فيه!!

السباق إذن، ليس مع الزمن وحده... السباق مع كم كثيف من الصعوبات!

السباق الآن بين العقول!

....

....

فجأة، توقف ذهن طاهر رسمى عن الحركة عند نقطة بعينها... خطر له خاطر فاندفع نحو مكتبه على أطراف أصابعه حتى لا يوقظ عزت بلال الذى بدا مستغرقا فى النوم، جذب خريطة للمحيط الأطلنطى وضعها تحت مصباح مكتبه وركز عينيه فوق بضع نقاط فى عرض المحيط، فيما بين أمريكا وأوربا... كانت

هذه هى جزر «الازورس» التابعة للبرتغال، تحتها بقليل ـ وأمام الساحل الأفريقى ـ جزر «ماديرا» التى اشتهرت بنبيذها الشديد الجودة، وهى أيضاً تابعة للبرتغال، ولكن... ثمة سؤال خطر بباله فتمتم بصوت خافت:

«بقى ده معقول ؟!... أناناس فى منطقة باردة بالشكل ده ؟!»

كان يحدث نفسه. وكان صوته شديد الخفوت، لكن الإجابه جاءته من عزت بصوت صاح: «طبعا معقول!»

رفع رأسه نحو عزت بلال الذى قفز من مكانه باسماً وهو يتجه نحو مائدة القهوة....

«طب ازاى!»

قال عزت وهو يعد فنجان قهوته:

«يرفعوا درجة حرارة الحقول!»

«برضه ازاى ؟!»

«فى مزارع مغلقة، مزارع يغطوها بخيمة بلاستيك كبيرة، ويرفعوا درجة حرارتها لحد ما تبقى استوائيه ويزرعو الأناناس.!»

«طب ما يستوردوه أرخص!»

«ده لو كانوا حياكلوه!»

«أمال بيزرعوه ليه ؟!»

«علشان يعملوا منه ليكير يضاربوا بيه نبيذ ماديرا»

«تعرف ايه اللى قالقنى ؟!»

ولم يرد عزت، بل تشاغل فى تجهيز فنجان القهوة، كان موقناً أنه أوصل صديقه الآن إلى بر الحديث... ولذلك فلقد عاد طاهر يقول:

«ياترى فرناندو حايلحق الحفار قبل ما يدخل الازورس ؟!»

«أكيد ؟!»

«اشمعنى ؟!»

«لأن الحفار لو وقف فى الازورس. مفيش قدامه غير ميناء «بونتا دلجادا» الى فى جزيرة «سان ميجيل»، ودى تعتبر الميناء الرئيسى فى كل الجزر، وسان ميجيل تبعد عن لشبونة ٧٠٠ميل بس!»

«يعنى فرناندوا ممكن يوصل فى ٤٨ ساعة بالمركب!»

«ومش ممكن الحفار يوصل بونتا دلجادا قبل الوقت ده!»

وهكذا أحس طاهر رسمى بالراحة. فغمغم:

«اعمل لى معاك كباية شاى!»

• • •

فى عصر اليوم السابق، فى نفس الوقت الذى كان فيه نديم هاشم فى الإسكندرية ينهى مهمته فى إختيار رجال الضفادع البشرية، سعيدا بأنماط من هؤلاء الرجال الذين كانوا ـ من أجل مصر ـ قد تعرضوا لموت محقق قبل ذلك ببضعة أيام فى ميناء إيلات الإسرائيلى، وكانوا على استعداد للبذل من جديد فى بساطة من يتناول كوباً من الشاى... فى نفس هذا الوقت مع اختلاف التوقيت ـ كانت حركة الملاحة فى ميناء لشبونة ـ عاصمة البرتغال ـ تبدو

طبيعية وهادئة وبعيدة تماماً عن كل ما يثير... كانت هناك سفن آتية من المحيط وسفن مقلعة إليه ، وسفن آتية من الشمال متجة نحو الجنوب ، وأخرى آتية من الجنوب متجهة نحو الشمال ، لتفرغ بضائعها ، أو تتزود بما تحتاج إليه من مياه ووقود أو طعام...

على الشاطئ الشرقى لنهر التاج ، يقوم منذ سنوات ليست كثيرة تمثال هائل للسيد المسيح ، يفرد ذراعيه متجها بصدره نحو المحيط ، وكأنه يبارك السفن المبحرة ، ويرحب بالسفن الآتيه.... تحت أقدام هذا التمثال كان السواح يتسابقون للصعود إلى قته فى المصعد الذى كان يمتلىء صاعداً ويمتلىء هابطاً... المطاعم متناثرة هنا وهناك ، ومطربو الفادو — الغناء الشعبى البرتغالى — يستعدون لقدوم الليل بالجيتار والأحزان يطلقونها فناً مليئاً بالشجن ، يشكو ديكتاتورية سالازار وحكمه الصارم ، وكانت رائحة السمك تملأ الجو!

فى واحد من هذه المطاعم — وكان يبدو غريباً بعض الشىء — كان ثمة سائحة عجوز تثرثر مع زوجها وهى تلتهم طبق السمك الذى وضع أمامها ، ثم ترشف من كأسها بعضاً من نبيذ ماديرا الشهير ، ولقد توقفت هذه السيدة للحظات ، أطلت فيها على نهر التاج الذى كان يسرى فى سكون لا تعكره سوى رفاصات السفن السابحة فيه ، ثم قالت لزوجها :

«أليس المكان ساحراً يا ماك ؟!»

كان زوجها رجلا ضخم الجثة مفتول العضلات ، توحى هيئته بأنه واحد

من عمال السكك الحديدية الذين أحيلوا إلى المعاش... وبرغم برودة الجو الشديدة ، وعمر الرجل الذى تجاوز الخامسة والستين ، فإنه كان يرتدى قيصاً مليئاً بالرسوم الغريبة ، وكانت أزرار القميص مفتوحة حتى منتصف الصدر ، بينما عضلات الذراعين تضغط على الأكمام القصيرة ... وكان الرجل يبدو متأففا من شىء مجهول ، فتمتم رداً على زوجته :

« تصورى يا «حنة» أن هذا المطعم مكسو كله بالأصداف البحرية ؟!»

كان تعليقه غريباً ، فلقد كان المطعم بالفعل ، مكسوا — كله — بالأصداف البحرية ذات الألوان التى تخلب اللب. الأرض والجدران والسقف والمقاعد والموائد والدرج... كل شىء ، كل شىء مكسو بالأصداف... ولابد أن زوجته — أياً ما كان غباؤها — قد لاحظت هذا... ولقد وصل صوته العريض الأجش إلى رجل آخر كان يجلس على المائدة المجاورة فى صمت وسكون ، وكأن بلادة الدنيا قد أصابته !!

كان هذا الرجل فى الخامسة والأربعين من عمره ، قوى الجسد ، كثيف الشعر أسوده شأنه شأن البرتغاليين ، ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يستمع فيها إلى مثل هذا الحديث من زبائنه ، فما من سائح دخل المطعم أو مر به إلا وتحدث عن هذه الفكرة الغريبة...كان هذا الرجل هو فرناندو بالديرا ، وهو نفسه صاحب هذا المطعم ، لكنه لم يكن صاحب الفكرة التى كانت تبهر من يراها لأول مرة !

كان صاحب الفكرة هو «مراد» ، هذا المصرى الغريب الأطوار ، والذى منذ

أن التقى به ذات ليلة فى بار «ماركوس الخنزير»، حول حياته من البؤس إلى اليسر والنعمة!

كان هذا منذ سنوات!!

وكان فرناندو يحيا شهوراً سوداء بعد أن تعطل عن العمل عندما التقى بمراد هذا... ولقد ظنه فى البداية بحاراً من هؤلاء الذى تمتلىء بهم السفن، والذين يرتادون مثل هذا البار لليلة أو ليلتين، ثم يختفون مع سفنهم فى عرض المحيط... كان فرناندو فى تلك الليلة ثائراً حزيناً منفعلا، شرب بقدر ما استطاع أن يدفع، وعندما انتهت نقوده نظر إلى جاره وراح يثرثر معه عن بطالته وزوجته وسالازار وحكمه الحديدى الذى جعل منه مفلساً دائماً، ولقد استجاب له مراد، وطلب له كأسا، وكأى بحار لا شأن له بالموضوع، راح يستمع إليه ....و....

وانقضت الليلة، لكن الغريب أن فرناندو التقى بمراد مرة أخرى، وقال مراد: إن سفينته بها بعض الأعطال، وإنها ستبقى فى لشبونة لأسبوعين أو ثلاثة، ثم دعاه على كأس وأخرى وثالثة و... و... وراح فرناندو يثرثر كعادته مبديا ضجره وغضبه وضيقه!

وهو لا يدرى ــ ولا يعنيه الآن أن يدرى ــ متى وبعد كم ليلة قدم له مراد أول مبلغ من المال!

كان هذا فى بار ماركوس الخنزير أيضاً، وكانا قد التقيا مرات عديدة حتى أصبحا صديقين، ولقد رحب هو بهذه الصداقة التى أصبحت تعفيه من دفع ثمن الكئوس التى كان يبتلعها فى كل ليلة، ثم... وعندما نقده مراد ذلك المبلغ من المال نظر إليه دهشاً، وسأله عن السبب، فقال مراد: إنه تعود أن يدفع ثمن

متعته، وأن حديث فرناندو يمتعه، فلم لا يدفع ثمن هذه المتعة بالذات؟!

ولم يفكر فرناندو طويلا فى الأمر، كان عاطلا منذ ستة أشهر، وكان مفلساً وفى حاجة شديدة للمال... على الأقل، ليسكت زوجته السليطة!

لكن الأمر تطور بعد ذلك، وهو لا يدرى كيف تطور ولا يريد أن يفكر فى هذا الأمر... كل ماهنالك أن «مراد» أصبح ينقده مبلغاً فى كل شهر نظير ثرثرته تلك التى تبدو له فى بعض الأحيان بلا معنى على الإطلاق... فما معنى أن تعرف أشياء عن سفن تدخل وسفن تبحر وكم ناقلة بترول مرت، وأشياء من هذا القبيل يستطيع أى طفل من هؤلاء الذين يملئون الميناء، أن يعرفها بسهولة!

ولقد مضت سنوات عرف فيها فرناندو طعم الراحة، كان يلتحق بعمل حتى إذا طرد منه لم يعد يخشى من العوز والفاقة وقلة الحيلة، حتى كان يوم عرض فيه مراد على فرناندو أن يشترى مطعماً يعرضه صاحبه للبيع بعد الخسائر الهائلة التى منى بها، دهش فرناندو وقال: إن المطعم يخسر، فرد عليه مراد يومها بأنه سيكسب إذا ما أدير ادارة صحيحة... قال فرناندو: إنه لا يملك المال اللازم لشراء المحل، وأبدى مراد استعداده لأن يقرضه المبلغ، على أن يرده من الأرباح... ثم بعد أن اشترى المحل أوحى إليه مراد بفكرة تغطية كل شىء فى المحل بالأصداف البحرية، وأن يتخصص فى طهو السمك على الطرق الشرقية...و... وكانت الفكرة رائعة، فها هو المطعم وقد أصبح ملتقى السواح وبعض ذوى اليسار من البرتغاليين الذين يحبون أسلوب الطاهى فى صنع السمك.

عاد صوت الأمريكية يصرصع من جديد بجوار أذنه وهى تسأل زوجها فى استنكار: لماذا لم يخطر لاحد فى الولايات أن يبنى مطعماً مثل هذا مكسواً كله بالصدف خاصة فى سان فرنسيسكو حيث مطاعم السمك بلا حصر؟!

نظر فرناندو فى ساعته، ونهض متثاقلا، كان يفكر فى تلك المهمة التى عهدوا بها إليه صباح أمس، عندما طلبوا منه أن يسافر إلى جزيرة سان ميجيل حيث مزرعة الأناناس التى أنشأها هناك، وكانت أيضاً من أفكار مراد، وأن يبقى فى بونتا دلجادا ـ الميناء ـ متظاهراً بالإشراف على المزرعة، منتظراً دخول حفار اسمه كينتنج، تسحبه قاطرة أسمها «چاكوب ڤان هيمو كيراك».. كان المطلوب منه فقط، أن يعرف متى دخل الحفار والقاطرة، ومتى أبحرا.. وأن يرسل فى نفس الساعة برقية بعنوان معين على لشبونة، على أن تكون البرقية بالشفرة... و... و... ولا شيء غير هذا؟

وكان عليه الآن، وبعد عشر دقائق فقط، أن يبث لهم برقية ينبئهم فيها بموعد سفره!

ما كاد فرناندو يخطو إلى داخل المطعم حتى لمح «بياترز الفريدو» مغنية الفادو الشهيرة وهى تصعد السلم الصدفى فى حذر، تحيط بها حاشية من خمسة أشخاص.

كان يعشق صوتها القوى كجبل شامخ، عرفها منذ أن عرف طريقه إلى المحلات الراقية، كانت تبدو متغطرسة برغم أنها مؤلدة، كان أبوها برتغالياً لكن أمها كانت هندية من مستعمرة «جوا»، كسبت بياترز من أمها عينين تمتلئان

بسحر الشرق الغامض، وورثت عن أبيها ملامح الوجه الصريحة فى تناسقها، رجاء الخليط تحفة لاتتكرر، يتوجها صوت تلهث لشبونة لسماعه!

أراد أن يعود للترحيب بها، لكن الوقت كان يأزف، أسرع إلى غرفة مكتبه التى اختار لها مراد مكاناً خلف المطعم، دلف إليها وأغلق الباب بالمزلاج ثم وقف لثوان يسترق السمع، حتى إذا اطمأن خطا نحو النافذة الصغيرة وألقى منها نظرة سريعة أصبحت مع الوقت والمراس خبيرة... بعدها أسدل الستار، نظر فى الساعة بسرعة، اتجه نحو المكتبة، ضغط على أحد أرففها بميل فتحرك الرف مفسحاً الطريق إلى تجويف خلف المكتبة، مد فرناندو يده إلى التجويف وأخرج جهازا دقيقاً أشد ماتكون الدقة... حمل الجهاز إلى مكتبه الصغير، نظر فى ساعته، ضبط الموجة، حرك المؤشر قليلا، وضع على أذنيه سماعة كانت معلقة فى الجهاز، حتى إذا اطمأن أن كل شيء على مايرام، عاد ينظر فى ساعته، وكان الوقت قد حان!

....
....

فى مساء ذلك اليوم قال فرناندو لزوجته وهو يدس نفسه فى الفراش إلى جوارها، إنه سيسافر إلى «بونتادلجادا» فى الصباح، وأنه حجز مكاناً على إحدى السفن الصغيرة... ولم ترد عليه زوجته، همهمت فى غضب وهى تدير وجهها إلى الناحية الأخرى، فلقد كانت موقنة، أشد مايكون اليقين، أن لزوجها عشيقة فى جزيرة «سان ميجيل» وما مزرعة الأناناس هذه الإحجة يتعلل بها للسفر إلى هناك كلما أحرقه الشوق إليها!

«قد أغيب أسبوعاً أو أكثر!»

ولاذت الزوجة بالصمت هذه المرة أيضاً، وأيقن فرناندو أن لا سبيل إليها، فهز كتفيه ومط شفته فى لا مبالاة، استدار هو الآخر معطياً لها ظهره، وأغمض عينيه، وحاول أن ينام!

• • •

فى العاشرة من صباح اليوم التالى ــ بتوقيت القاهرة ــ كان ثمة أتوبيس يتبع إحدى شركات السياحة، وهو يقطع الطريق الصحراوى من الإسكندرية مندفعاً نحو القاهرة بسرعة فاقت التسعين كيلو متراً فى الساعة!

... فى داخل الأتوبيس كانت هناك مجموعة صغيرة من رجال الضفادع البشرية التابعين للقوات البحرية، ولأن عددهم كان قليلا، فلقد تناثروا فى الأتوبيس، كان منهم من تمدد على مقعدين، ومنهم من كان يثرثر مع زميل أو زملاء، ومنهم من أسلم عينيه لصفرة الصحراء... وكان الحديث يدور فى الأتوبيس مرحاً أحياناً، جاداً أحياناً أخرى... لكن أحداً منهم ــ أبداً ــ لم يتحدث عن المهمة التى كانوا من أجلها يركبون هذا الأتوبيس فى طريقهم إلى القاهرة، ثم إلى حيث لا يعلمون.

كانوا ثمانية فقط.

ولقد كان الاختيار بالنسبة لصبرى غنيم ــ أو نديم قلب الأسد ــ فى اليوم السابق صعباً شديد الصعوبة... فمن العسير أن تنتقى من وسط مجموعة من الرجال رجالاً لهم مواصفات خاصة... قد يكون هذا عادياً بالنسبة لبقية البشر،

لكن الأمر بالنسبة لهؤلاء كان صعباً... ذلك أنهم جميعاً ذوو مواصفات خاصة!... وفى مثل هذه الأحوال، يصبح للمقاييس معيار آخر، معيار لا يمت إلى البطولة بمعناها الدارج بصلة واضحة، وإن كان يمت إليها بصفات خفية ووثيقة للغاية!

....
....

التقى بهم نديم فى قاعة من قاعات هذا المبنى الذى تطل نوافذه على الجانب الشرقى من ميناء الإسكندرية الغربى... من خلال نوافذ القاعة كانت السفن تبدو رائحة غادية راسية، والقوارب والفلايك والزوارق... وعندما جلسوا إليه راح يحدثهم عن عملية من أجل الوطن، حقاً إن كل عملية تتم هى من أجل الوطن، لكن هذه العملية بالذات تختلف كثيراً من حيث العناصر... تحدث نديم لنصف ساعة، ثم بدأ الحوار بينه وبينهم، ولقد كان الجميع على استعداد دون سؤال، لكن الحوار بالنسبة لنديم كان فرصة لشيئين، الأول... هو سبر غور كل واحد منهم ومعرفة النقط الأقوى فيه، أما الثانى... فهو الإيحاء بأنها إحدى العمليات التى تتم فى سيناء الآن، وبالكثير قد تصل إلى الشاطئ الشرقى لشبه الجزيرة المحتلة!

بعد اختيار المجموعة، ظل نديم جزءاً طويلاً من الليل يناقش قائد المجموعة وكان أسمه «خليفة جودت»

كان خليفة نموذجاً نادراً للفدائى المصرى، الفدائية عنده ليست قتلاً

ولا تدميراً ولا جبروتاً أوعبثاً، كانت واجباً مقدساً نحو وطن هو فى أشد الحاجة إلى قدرات بنيه!، ولقد كان طبيعياً أن يقول خليفة كلاما مثل هذا فى وقت كذلك، لكن الشيء غير الطبيعى أن يشعر نديم أن ما يقوله خليفة ليس كلاماً، بل هو إحساس يغمر القلب ويتسلط على الروح، ولذلك فلقد اختارا معاً ثمانية أفراد ــ لا ستة عشر كما كان مفروضاً ــ تتوفر فيهم كل المواصفات المطلوبة لعملية ليست خطيرة فقط، ولكن غير طبيعية أيضاً!

كيف فعل نديم هذا، وكيف اتخذ القرار دون أن يعود إلى طاهر!؟

كان نديم واحداً من هذا النوع من ضباط المخابرات الذين تمرسوا بالمخاطر وتأقلموا معها، ولقد كان هو القائد الميدانى، ومن حقه اتخاذ القرار فى الميدان وليس على أرض الوطن حيث خطة مبنية على حسابات شديدة الدقة!... كان يعلم أنه لابد وأن يعود إلى طاهر قبل أن يتخذ القرار، لكنه، فى غمرة العمل، وبإحساسه بالرجال، اتخذ القرار، ورأى أن ثمانية فقط، فيهم الكفاية!

فى الصباح الباكر، وكان الرجال قد عادوا بالأمس إلى بيوتهم وودعوا ذويهم لمهمة أوسفرية أومناورة... كان نديم يقف مع خليفة وراء زجاج نافذة تطل على ساحة فى ذلك المكان الذى كان أول مبنى للكلية البحرية فى مصر فى العصر الحديث... برغم الرياح والبرد القارس، فلقد كانت الشمس ساطعة، والرجال فى ملابس مدنية يقفون فى تلك الساحة وفى يد كل منهم أوبجواره، حقيبة صغيرة ليس فيها الكثير من الملابس... سرح خليفة قليلاً ثم أشار إلى أربعة رجال من الثمانية...

كان الأول قصيراً لافتاً للنظر، لكن جسده القوى كان يبدو مدكوكاً متناسقاً وكأنه تمثال برونزى لبطل أوليمبى، كان هذا الرجل برتبة «عريف».. أما الثانى، والذى كان الآن مستغرقاً معه فى الحديث، فكان نحيلاً رقيق الوجه متناسق الملامح، لا تنبئ عن صلابته سوى تلك النظرة النافذة التى ما إن يطالعك بها حتى تشعر أن خلف هذا المظهر الرقيق، رجلا من نوع خاص، وكان صاحبنا ملازماً لم يتعد الثانية والعشرين من عمره... أما الثالث فكان شاباً أسمر اللون متوسط الطول، قوى البنية بشكل واضح، ذا شارب كثيف، تعلن الزبيبة المتألقة فى جبهته عن تدين فياض، وإيمان عميق.. وفى نهاية الممر، فيما بين المبنى والبوابة الخشبية العتيقة، كان الرابع يقف متأملاً لشيء لا يمكنك أن تدركه أوتعرفه... قال خليفة إن زملاءه أطلقوا عليه أسم «القرش» لفرط جرأته وصلابته فى لحظة التنفيذ الخطرة!

أضاف خليفة وكأنه يتنبأ بالمستقبل: إن هؤلاء الأربعة: العريف والملازم والمتدين والقرش... هم الذين سيقومون بالعملية.

التفت إليه نديم فى دهشة من يريد أن يسأله: كيف خمن؟ لكنه ــ بحنكة رجل المخابرات ــ صمت ولم يرد، فلقد أدرك أن تجربة خليفة قد زودته بحاسة نحو هذا النوع من العمليات، وأن من الأفضل ألا يناقش معه شيئاً، ويكفيه أن خليفة أشار إلى الأربعة الأحسن... والغريب فى الأمر، أن هذا ما كان يشغل ذهن نديم طوال ليلة الأمس!

....

....

مر الأتوبيس السياحى بجوار «الرست هاوس» ولم يتوقف، كانت الأوامر التى صدرت إلى السائق ألا يتوقف إلا عند بداية شارع الهرم، وبعد انتهاء الطريق الصحراوى، سيجد من يقوده إلى حيث سيقيم الرجال... إلى مالا يعرفونه من أيام أوأحداث!

وكانت سيارة نديم هاشم الآن تنهب الطريق الصحراوى فى ثلثه الأخير... كان فى الصباح الباكر قد أجرى مكالمة تليفونية سريعة وغامضة من سنترال «محطة الرمل» قال فيها للحاج مندور: إن البضاعة شحنت، وأنها ستصل إلى القاهرة فى حدود الساعة الثانية عشرة ظهراً، وأن عليه أن ينتظرها.. وعلى الطرف الآخر، جاءه صوت الحاج مندور— الذى لم يكن سوى طاهر رسمى بنفسه— إنه سيكون فى انتظار البضاعة، لكنه أنذره إن لم تكن البضاعة على حسب المواصفات فلن يتسلمها!!

• • •

عبر نديم هاشم ذلك القوس الواسع من الطريق الصحراوى الذى يبعد عن القاهرة بحوالى خمسة وثلاثين كيلو متراً، وانحرف إلى اليمين مندفعاً بأقصى سرعة نحو كسارات الأحجار التى عادة ما تملأ جو المنطقة بالأتربة البيضاء فى تلك المنطقة من صحراء مصر الغربية، نظر فى ساعته، وكانت تشير إلى الحادية عشرة وخمس دقائق!

كان هذا بتوقيت القاهرة، لكنها فى أمستردام بهولندا، كانت الساعة لاتزال فى التاسعة وخمس دقائق صباحاً.. وكانت الصحفية الهولندية «لونا بايرن» المحررة بإحدى المجلات الأسبوعية المصورة التى تصدر فى العاصمة،

تهم بمغادرة بيتها فى عجلة من أمرها، فلقد تأخرت عن موعد العمل، ولابد أنها ستسمع توبيخاً من مدير التحرير... مدت يدها إلى الباب لتفتحه فدق جرس التليفون فى الطرف الآخر من القاعة. أيقنت أنه «فريدريك» وأنه يريد -كالعادة- أن يلقى عليها تحية الصباح ويبثها غرامه... هى تعرف أنه يحبها ويريد الزواج منها، وهى كانت ذات يوم تميل إليه، أما الآن... الآن تغير كل شىء فلم الإلحاح؟!!

كادت أن تنصرف دون أن تجيب على التليفون، لكنها، لسبب لاتدريه اندفعت عائدة لتعبر القاعة التى هى كل البيت، رفعت سماعة التليفون فى غضب وتذمر:

«هالو»!

لكن أساريرها سرعان ما انفرجت عن سعادة غريبة، ما إن وصلها الصوت من الطرف الآخر حتى هتفت بشوق:

«زاكرى.. أين أنت؟!»

صمتت وراحت تستمع دون أن تفارق الابتسامة شفتيها، بدت عليها السعادة بالرغم عنها، أخيرا تحولت الابتسامة إلى ضحكة. قالت بعدها:

«إنى دائما ما أصدق أكاذيبك أيها الثعلب الفاتن»!

صمتت، تضرجت وجنتاها بحمرة أشعلت الجمال فى وجهها المليح، همست بصوت مرتجف:

«لقد افتقدتك كثيراً طوال تلك الأسابيع»!

هزت رأسها موافقة بعدها وهى تقول :

«أوكى. تمام الثانية عشرة» !

ظلت لونا ساهمة للحظات والسماعة معلقة فى يدها ، كانت تبدو كطفلة مراهقة انتقلت فجأة إلى عالم الأحلام ، غير أن الجدية أخذت طريقها إلى ملامحها تدريجياً ، أدركت ــ بغريزتها ــ أن شيئاً هاماً فى انتظارها ، فهى تعرف «زكريا» -أوزاكرى كما تعودت أن تناديه- جيداً ، إن له أسلوباً فريداً فى الغزل ، أسلوب يأسرها أسراً ... رجل أعمال مصرى هو ، يستورد من هولندا الجبن والألبان بملايين الجنيهات فى كل عام. شديد السماحة ساحر الحديث ، لكنه -بين الحين والحين- يطلب منها أن تقوم ببعض المهام ، كانت قد وقعت فى حبه ، وعشقت أيامها معه ، وتحلم بتلك الليالى التى يمنحها إياها إذا ما كان خالياً .. طلب منها مرة أن تزور إسرائيل لتزوده ببعض المعلومات التى يحتاج إليها فى شركته ، ثم أدركت بعد وقت ليس بالقليل أن فى الأمر شيئاً غير شركته وأعماله ، وعندما واجهته لم ينكر ، لم يلف ولم يدر حول الموضوع ... بداية قال لها : إنه يحبها . وإن من حقها أن ترفض هذا الحب أوتقبله على علاته ... راحت تسأله فى انفعال كيف سمح لنفسه أن يستخدمها دون أن تدرى ؟ فقال : إنه لم يكذب عليها ، وأخرج من حقيبته أوراقاً تؤكد أن كل ما قامت به من مهمات كان لصالح الشركة فعلاً ولكن ...

راح يحدثها عن «القضية» ، عن المبادئ الإنسانية ، عن حق الشعوب فى الحياة ، طرح كل شىء أمامها بوضوح أربكها تماماً ، راح يجيب عن أسئلة كانت تتحرك فى رأسها استعداداً للخروج ، استمرت المناقشة حتى مطلع النهار ،

..رك لها الخيار ، إما أن تستمر أوتتوقف ، وحتى إذا وافقت ، فلسوف يكون من حقها أن تتوقف فى اللحظة التى تعلنه فيها بذلك .. وترددت «لونا» كثيراً .ناقشته طويلاً ، لكنها فى كل مرة ، كانت تزداد اقتناعاً بوجة نظره .. أخيراً أعلنت اقتناعها ، وأسلمته قيادها !!

كانت «لونا بايرن» تقود سيارتها الصغيرة فى شوارع أمستردام فى طريقها إلى المجلة وهى تردد لنفسها إنها لابد وأن تتوقف فلم لم تتوقف ؟!

عندما دلفت إلى صالة التحرير بالمجلة طالعتها عينا المدير من خلف نظارته الطبية فى تأنيب واضح ، شارفت الساعة على التاسعة والنصف وموعد الاجتماع اليومى التاسعة وخمس وأربعين دقيقة ، وكان عليها أن تكون جاهزة لعرض فكرة أوموضوع أوتحقيق ، وأن تكون جاهزة أيضاً لإسناد أى عمل لها !

تقدمت من مدير التحرير ولم تلق عليه تحية الصباح بل بادرته :

«أعلم أنى تأخرت ، وأعلم أنى أستحق التأنيب .. لكنى فى حالة من الاضطراب لاتسمح لى بسماع تأنيبك اليوم ، هل لك أن تؤجله إلى يوم آخر ؟! »

قالت هذا وانصرفت مهرولة إلى مكتبها ، ولم تبد الدهشة على مدير التحرير ، بل راح يتتبعها ببصره وهو يهز رأسه عجباً من هذه الفتاة الموهوبة ، التى تبدد موهبتها ، وفرصها العديدة فى الترقى فى مناصب المجلة ، والتى عرضت عليها فعلا فرفضت ، وفضلت أن تظل صحفية تجوب الشوارع وتجرى وراء القضايا والأحداث !

كانت تبدو للجميع وكأنها تحيا فى عالم آخر تماماً... التحقيقات التى تقوم بها تحمل رائحة خاصة، رائحة مغموسة فى شخصيتها المتقلبة، هى أقرب إلى الفنانة منها إلى الصحفية!

فى الحادية عشرة وخمسين دقيقة، اختفت لونا بايرن من مكتبها، وأيقن الجميع أنها صعدت إلى المطعم كى تلتهم سندوتشاً وكوباً من اللبن... لكنها فى الحقيقة لم تكن هناك، كانت تقود سيارتها نحو أطراف أمستردام بسرعة شديدة، وهى تنظر بين الحين والآخر فى مرآة سيارتها لترى إن كان هناك من يتبعها أم لا؟! هكذا طلب منها «زاكرى» فى إلحاح، وربما فى صرامة.. وما إن اطمأنت تماماً، حتى انحرفت عند أحد المنحنيات، لتدخل إحدى الضواحى، وتدور فى شوارعها دورة بعد أخرى.. ثم اندفعت إلى مكان الانتظار، تركت سيارتها هناك وأكملت بقية الطريق على قدميها!

....

....

فى الثالثة وعشرين دقيقة من بعد ظهر هذا اليوم، استطاعت لونا بايرن أن تدخل إلى «رئيس التحرير» وأن تعرض عليه فكرة التحقيق الجديد الذى جاءت به... كانت تقف أما الرجل الذى أبيضّ شعره وبدا الإجهاد فى ذلك اللون الداكن فيما حول عينيه، وهى تقول:

«أليس الصعود إلى القمر، وارتياد الفضاء، يعتبر ذروة ما توصل إليه الإنسان فى مجالات العلم والتحضر والمدنية ؟!»

لم يرد الرجل ولم تكن لونا فى انتظار رده فلقد مالت نحوه قائلة:

«إذا كان الأمر كذلك، فما الذى يحدث لو التقت ذروة العلم، مع حضيض التخلف» !

«لم لا تدخلى فى الموضوع مباشرة يا لونا ؟!»

«الموضوع مباشرة هو: بثت وكالات الأنباء صباح اليوم خبراً عن زيارة بعض رواد الفضاء الأمريكيين لبعض دول أفريقيا.. هذه الدول، وبعيداً عن المدن التى تحمل بالضرورة، وبالرغم من كل ما فيها من مظاهر تحضر سطحية، سمات تخلف تبدو أشد ما يكون الوضوح إذا ما توغلنا فى داخل الدولة، والتقينا برجال ونساء يعيشون فى الغابات نفس المعيشة التى كان يعيشها أجدادهم منذ الآف السنين.. ما الذى يحدث لو التقى رائد فضاء برجل من رجال الغابة، وكيف يدور بينهما حديث ما ؟!»

صمتت لونا وكانت تبدو لاهثة كعادتها كلما تحمست لفكرة أو موضوع، قبل أن يهم الرجل بالنطق كانت لونا قد عرفت أنه اقتنع، فانطلقت تقترح:

«هل نستطيع أن ندبر رحلة لرائد فضاء ليجول فى أعماق الغابة وسط هذه القبائل ؟!»

همّ بالاعتراض فاعترضت اعتراضة:

«أعلم ما سوف تقوله عن الأمن والاستحالة، ولكن لا بأس من المحاولة» !!

أدرك رئيس التحرير أنها لن تترك له فرصة فقال:

«متى تريدين السفر ؟!»

«غدا»

«ولكن الأخبار التى بثتها وكالات الأنباء تقول: إن رواد الفضاء سيصلون إلى غرب أفريقيا، إلى أبيدجان فى ساحل العاج بالذات، بعد حوالى أسبوعين» !

«هذا صحيح، ولكن دراسة الأوضاع وتجهيز كل شىء قبل وصول الرواد يستلزم وقتاً».

كان يعلم أنها لن تعدم حيلة أو رداً، فلوح بذراعه عائداً إلى أوراقه وهو يقول:

«أوكى»

....

....

فى مكتبة المجلة بالدور الثالث، كانت لونا تقف أمام الموظفة:

«أريد أولاً خريطة لغرب أفريقيا. هذا الساحل الذى أطلقوا عليه ذات يوم اسم افريقيا الفرنسية، وثانياً بعضاً من أسماء المسئولين فى حكومة أبيدجان الذين يستطيعون مساعدتى فى مهمتى... وأما ثالثاً فهو كتاب، وليكن كتاباً واحداً فقط ـ فليس لدىّ وقت للقراءة ـ يتحدث عن أفريقيا الاستوائية» !!

مدت الموظفة يدها إلى أحد الأرفف. ثم قدمت للونا أطلساً ضخماً وهى تقول:

«ستجدين هنا كل ماتريدنه عن العالم كله» !

وانصرفت الموظفة، وحملت لونا الأطلس إلى إحدى الموائد المعدة للقراءة، قلبت الصفحات حتى عثرت على خريطة كبيرة لأفريقيا، جرت عيناها على الساحل الغربى حتى وضعت أصبعها على ساحل العاج، ثم بحثت عيناها عن «أبيدجان» بالذات، وكانت تتساءل بينها وبين نفسها: «أى حفار هذا الذى يريد المصريون معرفة كل شىء عنه، حتى كمية الطماطم التى يستهلكها أفراده ؟!»

وضعت الموظفة أمامها كتاباً، وورقة بها أربعة أسماء، وكان الاسم الرابع لموظف فى السفارة الهولندية فى ساحل العاج، قالت الموظفة إنه يستطيع أن يقدم لها أية مساعدة تحتاج إليها.

لملمت «لونا بايرن» أشياءها، اتجهت إلى مكتب الموظفة، وقعت بالاستلام ومضت تهرول على عجل، فلقد كانت الآن على موعد مع صديق قديم فى إحدى شركات الملاحة.. ولقد كانت تكدح ذهنها وهى تقود سيارتها فى شوارع أمستردام بحثاً عن أسلوب تتبعه معه كى تصل إلى ماتريد، فلقد كانت تريد أوفى المعلومات عن قاطرة هولندية تابعة لإحدى الشركات فى أمستردام، واسمها: «جاكوب فان هيموكيراك»

● ● ●

ذكرت صحف الصباح القاهرية أن البلاد سوف تتعرض خلال اليومين القادمين لموجة شديدة من البرد، وأن بعض المناطق ستصل درجة الحرارة فيها إلى درجتين فقط، وأن أمطاراً غزيرة سوف تسقط على الساحل الشمالى وشمال الدلتا.. أما فى القاهرة، فلسوف يسقط رذاذ يستمر لساعات.. والغريب فى الأمر، على عكس ماتعود الناس، صدقت تنبؤات مصلحة الأرصاد الجوية !

كان اليوم مكفهراً فى القاهرة لم تظهر فيه الشمس إلا بعد أن مالت بشدة نحو الغرب، وأطلت من تحت السحاب المتراكم على المدينة فى تلصص أرسل بعض الدفء إلى الناس الذين كانوا يهرولون فى الشوارع إلى بيوتهم، هرباً من هذا الصقيع!

فى الخامسة والربع عصر ذلك اليوم، أى قبل الغروب بقليل، كانت القاهرة شبه مظلمة، وكان الرذاذ يتساقط منذ ساعات دون توقف، لكن هذا لم يمنع طاهر رسمى من مغادرة مكتبه، والنفاذ من الباب الضيق للمبنى الذى يقيم فيه، ليعبر ــ تحت المطر ــ ذلك الممر وتلك الحديقة الصغيرة إلى الباب المقابل فى المبنى الآخر، كان الباب خلفياً لكن «طاهر» كان بالطبع يعرف طريقه إلى «فؤاد» كى يسأله عما تم فى مسألة الفنانة «دلال شوقى»، لكنه لم يستطع أن يخرج تماماً من تلك المناقشة الحارة، والتى حدثت فى غرفته قبل دقائق، مع نديم هاشم!

كانت المشادة فنية... وإذا كانت الخطة الموضوعة تستلزم ستة عشر ضفدعاً بشرياً، فكيف نجعلهم نحن ثمانية وبأية خطة؟!

رد نسيم باسماً:

«يا فندم أنا قدرت الموقف بدقة وشايف أن العدد ده كافى»!

«أنت رحت دكار قبل كده؟!»

«مش لازم أروح!»

«شفت الحفار اللى أنت رايح تدمره؟!»

ولم يرد نديم، وكان أكثر مايضايق طاهر أنه فكر أن يسأل نديم قبل سفره فى تقليل عدد الأفراد، لكنه خشى عليه وأراد أن يترك الأمر لتقديره، ولذلك فلقد أعلن طاهر فى ضيق: أن نديم مسئول ــ من الآن، ومادام قد تصرف بنفسه ــ مسئولية مباشرة عن التنفيذ من خلال الخطة... و... و... وضحك الرجلان، نديم وعزت، فليس فيما قاله طاهر شيء جديد، ولم يعجب ضحكهما طاهر فاندفع مغادراً الغرفة بخطى مسرعة وهو مازال يدمدم غاضباً.

... ... كانوا يطلقون على تلك الحالة التى تنتاب طاهر رسمى فى مثل تلك الأوقات اسم «اللهب المقدس»، فلقد كان هذا أسلوبه إذا ما استغرق فى أمرما، يناقش كل تفصيلة مهما كانت صغيرة لكنه لا يتوقف أبداً عن الاندفاع نحو الهدف بجرأة يحسد عليها!

....

....

دق طاهر رسمى باب الغرفة المغلق ثم فتحه ودخل دون أن ينتظر الإذن بالدخول خطا إلى الداخل وأغلق الباب خلفه فهب «فؤاد» من خلف مكتبه مرحباً به، فإذا بطاهر يسأله دون تحية:

«إيه أخبار الولد والبنت بتوع لندن ؟!!»

رد فؤاد باسماً فى ثقة:

«المفروض أنهم يركبوا المركب بكره الصبح!»

« حايلحقوا ؟! »

« أرجو هذا ! »

« وبعثة التليفزيون الفرنساوى ؟! »

« دول مايقدروش يبدءوا الحركة إلا قبلها بيومين ثلاثة ! »

« ودلال شوقى ؟! »

كان فؤاد يعلم أن دلال هى العنصر الذى يعنى طاهر فى المقام الأول .. لذلك، فلقد حاول أن يوضح له بعض الأمور، تقدم نحوه برفق وهو يقول :

« شوف يا طاهر... دلال شوقى فنانة، ممثلة، مشهورة ومعروفة، لها جمهورها، ومعجبيها، والدولة ــ من وجهة النظر دى ــ بتعتبرها ثروة قومية و.... ... »

« انت عاوز تقول إيه ؟! »

« الناس اللى من النوع ده ... ... »

عاد طاهر لمقاطعته :

« مش مصريين يا فؤاد ؟! »

« مصريين ووطنيين وكل حاجة إنما ... ... »

« مفيش سكة ثانية ؟! »

« بصراحة السيناريو لسه بيتكتب ! »

« كل ده .. دانتوا بقى لكم أسبوعين ! »

ابتسم فؤاد .. وعاد طاهر يسأل :

« هو السيناريو بيأخد قد إيه علشان يخلص ؟! »

« من شهر لكذا سنة !!! »

هتف طاهر فى جزع :

« إيه ؟! »

ضحك فؤاد وهو يقول :

« الرجل ماسابش بيتهم من ساعة ما بدأ يكتب ! »

« ولسة ما خلصش ؟! »

« طبعاً »

« وحايخلص إمتى ؟! »

« لما السيناريو يبقى كويس ودلال ماتقولش عليه لأ !! »

« يعنى فيه احتمال إنها ترفض ؟! »

« طبعا الاحتمال موجود !! »

« يبقى فريد ضابط مخابرات على قده ! »

هتف فؤاد فى استنكار وهو يضحك :

« فريد ؟!! »

أراد طاهر أن يتراجع فقال وهو يندفع نحو الباب :

« ماليش دعوة .. دلال لازم توافق وبس ! »

عند الباب توقف، استدار نحو فؤاد هاتفاً :

« وأنا عاوز رد يافؤاد، عاوز رد قبل النهار مايطلع !! »

واختفى طاهر خلف الباب، وظل فؤاد وحده لثوان استدار بعدها عائداً إلى مكتبه وهو يهز رأسه باسماً !

٤ ـ الفصل الرابع

دلال شوقى ترفض العمل ٠

هاتوا أياديكم ،
فمعركة البقاء تريدكم
جُنداً... ومعركة الرجوع...
الموت للغرّ المغامر، والجبان...
والمجد للشعب الذى يتحمل الصدمات!

من قصيدة للشاعر الفلسطينى
« سالم جبران »

□ عندما غادر طاهر رسمى غرفة «فؤاد» لم يكن يعلم مايدور فى ذهن ..ميله... لم يكن يعلم أن السيناريو انتهت كتابته منذت أيام، وأنه عرض بالفعل على دلال شوقى، لكنها رفضته بعصبية!

لم يشأ فؤاد أن ينقل لطاهر هذه الأنباء، ويكفيه مايشغل ذهنه من مشاكل ..سوء يحملها الكثيرون.. غير أنه ماكاد يعود إلى مقعده، حتى دق جرس التليفون، وكان المتحدث هو فريد ذهنى، هتف فؤاد فى لهفة حاول أن يكبح جماحها أمام مرءوسه:

«أنت فين يا فريد ؟!»

وما إن جاءه الرد حتى قال:

«أنا فى انتظارك!»

بعد ثلاث دقائق لاتزيد، كان فريد يجلس أمام رئيسه الذى بادره بالسؤال:

«إيه أخبار دلال ؟!»

....

....

كان رفض دلال شوقى للفيلم الذى قدمه لها المنتج «عزوز جابر» رفضاً عصبياً ليس مبنياً على منطق سوى أن المصريين قد أصابتهم فى تلك الأيام حمى اسمها الوطنية!! لم تكن القصة التى قدمها عزوز إلى دلال من ذلك النوع الذى يستهدف تسلية الناس بأى كلام، وكان السيناريو محكماً، والمخرج شاب حديث التخرج اتم دراسته فى الولايات المتحدة الأمريكية وعاد إلى مصر تحدوه الرغبة فى تقديم

سينا متطورة... أما الأجر المعروض على دلال فكان مغرياً، أوصله عزوز جابر إلى عشرة آلاف جنيه مصرى، وهو مبلغ لم تقبضه دلال عن أى فيلم لها من قبل... وبرغم حاجتها الشديدة إلى المال، خاصة بعد أن انفصلت عن زوجها الثانى الذى لم يدم زواجها منه لأكثر من عامين توقفت خلالها عن العمل تماماً، فلقد أصرت على الرفض، ولم يفهم عزوز جابر لم رفضت دلال الفيلم، ولم كانت عصبيتها فى إعادة السيناريو مع سائقها الخاص، وعندما حاول مناقشتها فى الأمر تليفونياً، صاحت فيه بغضب:

«بقى يوسف شاهين بيعمل فيلم زى الأرض، وانت عاوز تعمل فيلم فى الأحراش يا عزوز؟!»

كان فيلم الأرض - المأخوذ عن رواية الكاتب المصرى عبد الرحمن الشرقاوى التى تحمل نفس الاسم - قد صنع ضجة فى مصر بعد تقديمه فى عرض خاص شاهده فيه جمهور كبير من الفنانين والنقاد والصحفيين والمثقفين المصريين والعرب، لم تكن الضجة بسبب الوجه السينمائى الجديد - وهى مذيعة التليفزيون الجميلة نجوى إبراهيم - الذى قدمه المخرج الشاب يوسف شاهين، ولا بسبب تلك المباراة الفنية الرفيعة التى قدمها نخبة من فنانى مصر العظام - مثل محمود المليجى ويحيى شاهين والشاب عزت العلايلى - ولكن وقبل كل شىء، بسبب القصة التى تجرى أحداثها فى إحدى قرى مصر قبل ثورة يوليو عام ١٩٥٢، والتى تصور حياة الفلاح المصرى المطحون تحت ربقة إقطاع شرس لا يرحم ولا يرعى حرمة أودينا... كان نجاح الفيلم بمثابة مؤشر لصناعة السينما، يشير إلى أن الحديث عن الناس ومشاكلهم، هو الطريق الصحيح لتقديم فن جيد ورفيع!

وفى الأيام الأولى من السبعينيات، كان الشعور العام فى مصر مفعماً بالتفاؤل بالرغم من كل ما كان يحيط بالبلاد من أخطار.. كان الناس يشعرون كلما عبرت مجموعة من الفدائيين إلى سيناء، أو احتدمت طلقات المدافع على ضفاف القناة، أو سقطت طائرة للعدو، بفيض من الحماس كان يتأجج فى جوانحهم... وكانوا، كلما تحول الرأى العام العالمى تجاه القضايا العربية، وكلما اشترك شباب أوربا وآسيا مع شباب العرب فى بعض العمليات الفدائية تعبيراً عن تضامنهم معهم، أحس الناس أن شيئا ما آت فى الطريق، شيئاً سيمسح عنهم عار الهزيمة!

وكان الفنانون - بطبيعة الحال - هم أكثر الناس إحساساً بهذا التفاؤل، ليس لأنهم ينتمون إلى هذه الفصيلة الحساسة من البشر، وليس لأنهم جزء من هذا الشعب... بل - ربما بالدرجة الأولى - لتلك الانفراجة التى كانت واضحة تماماً فى الرقابة على المصنفات الفنية، والتى - تحت ضغط جماهير المثقفين والفنانين - ظهرت فى العديد من الأعمال المسرحية والسينمائية والتليفزيونية والإذاعية، التى كانت تتعرض لسلبيات النظام المصرى وتنقده بقسوة!

فى عدد الخميس ٣ يناير سنة ١٩٧٠ من جريدة الأهرام، نشر الرسام صلاح جاهين - وهو رسام وشاعر وممثل وكاتب مصرى جامع - رسماً كاريكاتيرياً فى بابه اليومى فى الجريدة، يمثل شاباً يفتح نافذة بيته على مصراعيها، ويطل منها فارداً ذراعيه فى سعادة غامرة وهو يصيح: «هى دى بقى السبعينات»؟!

وكانت المقاومة الفلسطينية قد استطاعت أن توصل صوتها إلى العالم، ووجد

الشعراء العرب، والفلسطينيون منهم بالذات، متنفساً لهم فى الصحف والمجلات المصرية.. ففى يوم ٥ يناير نشرت قصيدة للشاعر الفلسطينى «معين بسيسو» يقول فيها عن منظمة فتح:

يافتح
هذا الخيط من الدم

هذا السلك الذهبى
«تليفون الثورة»
هى ذى السماعة يافتح
الو . الو.
العالم يسمعنا الآن!!

وكان البيت الأخير من القصيدة ـ العالم يسمعنا الآن ـ هو الإحساس الغامر الذى ساد ـ وبشكل واضح ـ المشاعر المصرية عموماً. لا الفلسطينية فقط!

فى تلك الأيام عرض المسرح المصرى مسرحية «جان دارك» ـ البطلة الفرنسية التى تحولت إلى قديسة ـ ولعبت بطولتها الممثلة الشابة «مديحه حمدى»... وعرضت إحدى فرق الأقاليم المسرحية، مسرحية «بنك القلق» للكاتب المصرى العظيم «توفيق الحكيم» وكانت المسرحية تنقد، وبشكل حاد، النظام المصرى نقداً مراً.. وبدأ الكاتب مصطفى محمود منعطفاً جديداً فى فكره وكتاباته عندما نشر فى مجلة «صباح الخير» الاسبوعية مسلسلاً بعنوان: «محاولة لتفسير عصرى للقرآن»، وكان هناك افتتاح لفرقة جديدة للفنون الشعبية فى مدينة طنطا بوسط

... النيل، وحاكم التليفزيون فى احدى التمثيليات المباشرة، شخصية «سرحان ...رى» وهى شخصية الانتهازى فى رواية «ميرامار» للروائى المصرى العملاق ...يب محفوظ»، وقدمت إحدى دور السينما فيلماً جديداً للمخرج الفرنسى ...لوش» بعنوان: الحياة. الحب. الموت.. لاقى نجاحاً شديداً بين الجمهور ...قاد على السواء!!

وعندما حدثت موقعة «شدوان» ـ وهى جزيرة صخرية مصرية صغيرة فى ...حر الأحمر، والتى حاول الإسرائيليون غزوها فاندحروا أمام قوة مصرية قليلة العدد ـ انفجرت مشاعر الناس والتهبت حماساً. وبدلاً من الكاريكاتير اليومى، ...شر صلاح جاهين قصيدة يقول فيها:

يا مفتحين العين كلامى يسركم
ويا غفلانين نشوا على الدبان
ولا كل من لها خارطة قالت أنا بلد!
الرك على المدنية والعمران
وعمار يا مصر عمار بنيلك. وأمتك
عمار بأفراحك وبالأحزان
آدى اللى دم الجندى على الصخر اثبته
بحروف من نار فى نهار شدوان

....
....

في هذا الجو المتأجج بالحماس والأمل، تلقت دلال شوقى سيناريو فيلم بعنوان: «امرأة فى الأحراش»! من المنتج عزوز جابر. ورغم أن العنوان بدا لها رخيصاً إلى أقصى حد، إلا أنها قرأت السيناريو، فثارت، ورفضت الفيلم!

كان عزوز جابر قد التقى بها فى العرض الخاص لفيلم الأرض بالذات، جلس إلى جوارها وهمس فى أذنها أن هناك مفاجأة تنتظرها فى الأيام القادمة... وعندما سألته عن هذه المفاجأة، همس لها بأن مخرجاً جديداً قد وصل حديثاً من الولايات المتحدة بعد أن قضى بها تسع سنوات يتعلم صناعة السينما، وأنه اختارها هى بالذات، كى تلعب بطولة فيلمه الأول الذى سينتهى السيناريو الخاص به، فى خلال أيام قليلة.. ولقد فرحت دلال حقيقة، كانت تمر بأزمة مالية مزمنة ازدادت بعد طلاقها.. وكانت ــ فى نفس الوقت ــ تسعى إلى عمل يشغلها عن أزمتها العاطفية التى أثرت فيها تأثيراً عميقاً بعد إتمام الطلاق!

وعندما همس عزوز فى أذنها أن «الولد الجديد» -يقصد المخرج- أحسن من يوسف شاهين، امتلأ قلبها بالغبطة، ومالت عليه ضاحكة وهى تقول:

«مفيش مانع يبقى نصه، ومجنون قده مرتين، بس يخرج فيلم زى الأرض»!

كان هذا قبل أن يصلها السيناريو، وقبل أن تقرأه فتشعر أن مجرد عرض الفيلم عليها إهانة لن تغفرها لهذا المنتج الذى لا يعنيه سوى الربح فقط، ولم تكتف دلال بما قالته لعزوز فى التليفون ــ وهى مشهورة بصراحتها وطول لسانها ــ بل راحت تشنع عليه فى مجالسها الخاصة وسهراتها وبين أصدقائها وصديقاتها..

...ت كلما تذكرت الموضوع صاحت فى سخرية:

«يوسف شاهين بيعمل الأرض، وعزوز جابر عاوز ياخدنى فى الأحراش»!

وتنطلق ضاحكة، ولا يملك الآخرون سوى الضحك معها!

ولقد تلقى عزوز هجمات دلال فى صمت.. كانت تصله كل كلمة تقولها ... فيكتفى بالابتسام، حتى إذا مرت أيام، اتصل بها تليفونياً فصاحت فيه:

«عاوز إيه تانى يا عزوز ؟!»

«مش عيب يا مدام اللى أنتى بتقوليه علىّ فى كل مكان ؟!»

«ومش عيب عليك تفكر تنتج فيلم زى ده، والبلد فيها اللى فيها ؟!»

«انتى قريتى السيناريو كويس ؟!»

«اسمع يا عزوز ...»

قاطعها فى حدة:

«اسمعى انتى يادلال»!

ودهشت دلال، كانت هذه هى المرة الأولى التى يناديها فيها باسمها مجرداً، كادت تنفجر فيه أو تعيد السماعة إلى مكانها، لكن شيئاً ما جعلها تتراجع فصمتت، وساد الصمت بينهما لثوان جاء بعدها صوت عزوز من الطرف الآخر يسأل:

«انتى معايا ولا قطعتى السكة ؟!»

فى تحد بارد ومستعد للانقضاض قالت دلال:

«أنت عاوز إيه بالضبط ؟!»

«عاوزك تقعدى مع المخرج ؟!»

و... و... وامتدت المناقشة بينها إلى نصف الساعة أويزيد، قال عزوز إن الرواية ليست بالهيافة التى تظنها دلال، وإن فيها إسقاطات سياسية واضحة، وأنها لاتعالج قضية مصر وحدها، بل قضايا العالم الثالث كله!

وذهلت دلال...

كانت القصة التى قرأتها فى السيناريو تحكى عن سيدة ذهبت إلى الأحراش لقضاء شهر العسل مع حبيبها الذى كان يهوى الصيد، ثم وقعت الكارثة عندما التهم أحد الأسود حبيبها أمام عينيها... كان هذا الأسد بالذات يشيع الرعب فى أهالى الغابة وحيواناتها على السواء، وبرغم هذا فلقد أقسمت على الانتقام، لم تعد إلى بلادها، وظلت تعيش فى الأحراش حتى انتقمت، قتلت الأسد، لكنها عندما أرادت العودة اكتشفت أنها ارتبطت بأهل الغابة الفقراء، ففضلت أن تبقى بينهم، كى تساعدهم فى قتل أى أسد يحاول الاعتداء عليهم، أو إشاعة الرعب فى حياتهم!

صاحت دلال وقد استفزت تماماً:

«إسقاط إيه بقى اللى أنت بتتكلم عنه فى قصة زى دى ؟!»

حاول عزوز أن يتحدث فقاطعته:

«وإسقاط على إيه» ؟!

ولم ييأس عزوز، ظل يحاورها حتى وافقت على استقباله مع المخرج الشاب، وكاتب السيناريو، وافقت دلال على مضض حتى تتخلص من إلحاح عزوز جابر، أعادت السماعة إلى مكانها وكانت لاتزال تغلى بالغضب والضيق معاً، راحت تخطو فى الغرفة جيئة وذهاباً، ثم توقفت فى لحظة وقد تصاعد غضبها، صاحت فى استنكار:

«أحراش ؟!»

بدا لها الأمر مضحكاً ومبكياً فى آن، وعادت إلى الصياح:

«أسد ؟!»

ثم فاض بها الأمر، فالتفتت نحو آلة التليفون وهى تصرخ:

«أسد يابن الـ... ...»

قالتها بالفصحى ثم استغرقت فى ضحك عصبى.

....

....

انتهى فريد ذهنى من حديثه مع رئيسه وكان فؤاد يستمع مركزاً كل حواسه فيما كان يقال، كانت خبرته فى هذا الحقل لاشك فيها. وكان من الممكن أن يضيف لواحد من مرءوسيه إضافة بسيطة للغاية، لكنها تحقق دائما نتائج أكيدة... ساد بينهما الصمت لثوان سأل فؤاد بعدها:

«وإيه الخطوة الجاية ؟!»

وبدأ فريد يضع بين يدى رئيسه، تصوره للخطوة القادمة مع دلال شوقى!

• • •

برغم أن الإضاءة كانت مباحة نسبياً فى عام ١٩٧٠، فإن الطريق الصاعد إلى قمة جبل المقطم، كان مظلماً تماماً... وعندما اقترب «نديم هاشم» من ذلك المنحنى الخطر فى أول الطريق، راح يضىء كشافات سيارته ويطفئها كى ينبه أية سيارة قادمة من أعلى الجبل... ورغم هذا، فوجىء نديم بسيارة أتوبيس تنقض عليه بسرعة أذهلته، وكادت أن تحدث كارثة، لولا أنه استطاع أن يتلافى الاصطدام بالأتوبيس بما يشبه المعجزة.. ثم مرق من جواره مواصلا صعوده دون توقف.. كان منذ ثوان قاب قوسين أو أدنى من الموت المحقق، لكنه لم يضطرب ولم يغضب، بل إنه لم يتوقف لالتقاط أنفاسه برغم اضطرابه الداخلى، بل ضحك ـ ربما ليسيطر على الاضطراب ـ وهو يصيح محدثا نفسه:

«يعنى ما أموتش إلا فى حادثة أتوبيس ؟!»

قال هذا وضغط بقدمه على مفتاح البنزين، فانطلقت سيارته تزأر صاعدة الطريق الجبلى بسرعة بدت غير عادية!

....

....

سكان الجبل قليلون، يعرف كل منهم الآخر... وأى غريب يصعد الجبل، لابد وأن تتناقل الألسنة أنباء حضوره بسرعة البرق، لابد وأن يتساءلوا عن سبب وجوده ولمن جاء ولماذا؟!... انفرج الطريق أمامه بعد المنحنى فأضاء النور المبهر لسيارته كى يمنع أيا من الهابطين بسياراتهم أو حتى بالأتوبيس، أن يروه...

..يح إحساسه بالأمن كإحساسه بالتنفس، يمارسه كحركة طبيعية فى حياته .. تطلب منه جهداً أوتفكيراً... وإذا كان قد أخبر زوجته أنه مسافر، فإن كل .. يعرفهم يعلمون أنه الآن بعيد عن مصر.. فماذا لو صادف ورآه واحد من ..رفه أو أصدقائه وهو يقود سيارته فى الليل... صاعداً إلى جبل المقطم ؟!

وصل إلى نهاية الطريق الصاعد واستقرت به السيارة فوق قمة الجبل.. لم ..حرف يميناً عند الجامع الذى يستقبلك فور وصولك، بل استمر مندفعاً بسيارته ..ى مر بمركز الإطفاء، وما إن اجتازه ببضعة أمتار حتى هدأ من سرعته، وقبل .. يصل إلى نهاية الطريق المنحنى جنوباً نحو حافة الجبل المطلة على المعادى .حلوان، وأمام بيت رسام مصرى بناه بيديه، أوقف السيارة وأطفأ الأنوار، وظل ..اكناً فى مكانه!

كانت المنطقة معزولة، تبعد عن المدينة الآهلة بالسكان فوق الجبل بما يزيد قليلا على الكيلومترين.. هبط من السيارة بعد دقائق كانت كافية لأن يمتحن المكان تماماً، أغلق الباب وهويتلفت حوله فلا يجد سوى حجارة الجبل والرياح تزغرد وهى تهب حاملة معها برودة شديدة، ضم أطراف معطفة وعبر الطريق عدواً إلى ڤيلا كانت غارقة فى الظلام، دلف إلى حديقة الڤيلا الصغيرة، وخطا نحو الدرج الذى كان يعرف طريقه إليه جيداً، صعد درجتين ومد يمناه متحسساً الحائط المجاور للباب بحثا عن زر الجرس حتى عثر عليه، ضغط الزر مرة ثم انتظر لثوان وضغطه مرتين متتاليتين، استدار ليلقى نظرة أخيرة على المكان الذى بدا له موحشاً تماماً، سمع من خلف الباب زحف قدمين، وعندما فتح الباب اندفع إلى الدفء فى الداخل وهو يهتف:

« مساء الخير يا قرش » !

كان القرش هو الذى فتح الباب ، من خلفه وقف المتدين يجفف المياه عن وجهه ويديه وقدميه بعد أن توضأ استعداداً لصلاة العشاء ... خطا خطوتين فى الممر الصغير، ثم انحرف يمينا لينفرج المكان أمامه وكان الرجال كلهم هناك ، منهم من استغرق فى لعب الشطرنج ، ومنهم من يشاهد التليفزيون ، وكان الملازم فى ركن بعيد يدفن رأسه فى كتاب ، وعندما صاح فيهم بتحية المساء ، هب الجميع لاستقباله فى سعادة ، وكان أول من وصل إليه منهم ، هو خليفة !

....

....

كان الغرض من زيارة نديم لرجال الضفادع البشرية ، هو إشعارهم بأنهم ليسوا معلقين فى الهواء .. فها هى الأيام تمضى ولا خبر هنالك عن الحفار، ولا شىء سوى ظلام يكتنفه ظلام ، لم يكن من الممكن أن يبدأ أحد أية حركة قبل أن يعرف إلى أين .. ولذلك ، فلقد أمضى نديم مع الرجال ساعة تحدثوا فيها عن كل شىء ، تحدثوا فى السياسة ، فى الفن ، نقدوا التليفزيون وعلقوا على الصحف ، وقرأ أحدهم قصيدة ألهمته إياها أحداث شدوان ، وتبادلوا الضحكات ، وآخر ما قيل من نكات !!

تحدثوا فى كل شىء ، إلا المهمة التى كانوا من أجلها يقيمون فى هذا المكان الموحش ، برغم أنهم لا يعرفون عنها شيئاً ، ولا يصنعون سوى الانتظار !!

● ● ●

كانت مشكلة الحفار تزداد غموضاً يوماً بعد يوم ، وربما ساعة بعد ساعة .. ورغم التغطية الكاملة للساحل الغربى لأفريقيا ... فإن كل الرسائل بلا استثناء كانت تقول شيئاً واحداً : إن أحداً لم يسمع شيئاً عن حفار اسمه « كينتنج » أو أى حفار آخر ...

ورغم قصر المدة ، وقلة عدد الأيام ، فإن المواطن « إبراهيم سيد فرج الله » كان قد وصل إلى دكار بالسنغال ، واستطاع أن يجرى عدة اتصالات بحثاً عن وظيفة مدرس .. وشملت اتصالاته — والغريب أنها جميعا كانت سرية ومركبة — الساحل من دكار إلى أبيدجان عاصمة ساحل العاج مروراً بكوناكري فى غينيا .. وكانت رسائله التى تصل إلى طاهر رسمى يوميا ، تقول : « لا شىء » !!

أما عمر « بك » فلقد عقد مجموعة من الاجتماعات فى بهو أحد فنادق « أكرا » عاصمة غانا ، مع مجموعة لا بأس بها من المستوردين الذين كان أغلبهم من المهاجرين العرب .. كان عمر محمد السيد يحاول أن يجد سوقاً للجلباب المصرى المصنوع من القطن ، فى مواجهة المنافسة الحامية للجلباب الصينى الذى بدا يغزو المنطقة ، وكان — إلى جانب هذا — يحاول أن يجد سوقاً لبعض المعلبات المصرية ، خاصة الفول المدمس الذى برعت المصانع المصرية فى تعبئته .. كما كان يحمل عروضاً لتوريد ثلاثة أصناف من الجبن ، وعرضاً بتوريد البسطرمة التى تعشقها الجاليات الأجنبية فى تلك البلاد .

ولقد كللت مهمة « عمر بك » ببعض النجاح فى الأيام الأولى ، وإن كان الأمر يحتاج إلى المزيد من الاجتماعات والمساومات .. غير أن المشكلة التى كانت تواجهه — كما تواجه إبراهيم سيد فرج الله — هى أن الجاليات المصرية

فى هذه البلاد كانت قليلة العدد إلى حد يبعث على الضيق والدهشة.. ففى بعض البلدان، كانت الجالية لا تزيد على العشرة، مضافاً إليهم موظفو السفارة أو القنصلية!... ولقد أرسل «عمربك» عدداً من التلكسات بشأن هذه العروض إلى مقر شركته فى القاهرة.. تحدثت التلكسات عن القماش والتفصيل والبسطرمة والجبن وعلب الفول ولكنها، فور وصولها، كانت تنقل إلى طاهر رسمى الذى كان يحل شفرتها ليجد فيها أن: لا شىء هناك!

وكان طبيعيا أن تحمل رسائل المواطن أحمد زين العابدين الذى وصل إلى مقديشو بالصومال، بعد أدائه العمرة بأربع وعشرين ساعة، نفس المعنى!

....

....

أما فرناندو بالديرا، الذى وصل إلى ميناء «بونتا دلجادا» فى جزيرة سان ميجيل بالازورس، فلقد غلف الصمت رحلته تماماً، كان الرجل، منذ وصوله، دائب الحركة فيما بين مزرعة الأناناس الصغيرة التى يملكها على سفح أحد الجبال الدائمة الخضرة، وبين الفندق الذى استأجر فيه غرفة كانت تطل على الميناء الصغير مباشرة... كانت له علاقات طيبة ببعض سكان الجزيرة، خاصة هؤلاء الذين يعملون لحسابه فى المزرعة من الفلاحين.. لكن علاقته بضابط البوليس خوليو فارجاس كانت ذات طابع خاص، ولقد تهامس البعض أن سبب هذا هو تريزا شقيقة الضابط خوليو، والتى كانت ترتدى ثياباً تجلب خصيصا لها من لشبونة، وبعضها كان مصنوعاً في أوربا. وتهامس البعض الآخر بأن السبب هى

تلك الهدايا التى كان يجلبها فرناندو معه كلما زار الجزيرة لصديقه الضابط... وأياً ما كان الأمر، فلقد كان فرناندو يقضى كل لياليه مع خوليو وتريزا دون حرج أو قلق.. فلقد كان مطلوبا من الرجل أن يلزم الصمت تماما، وألا يرسل أية برقيات إلا إذا سمع عن الحفار شيئاً أو رآه بعينيه.. لذلك، فلقد انقضى يومان ــ منذ وصوله إلى الجزيرة ــ وكان الصمت هو رسالته الوحيدة!

....

....

وحققت لونا بايرن نجاحا متميزا عندما استطاعت أن تحصل على معلومات كاملة عن القاطرة الهولندية «چاكوب ڤان هيمو كيراك»، بل استطاعت بطريقة تبدو غريبة أن تحصل على نسخة من الرسوم الهندسية الخاصة بهذه القاطرة.

وعندما دخلت لونا إلى صالة المطار لتستقل الطائرة إلى باريس ومنها إلي «ابيدجان» لمتابعة رحلة رواد الفضاء الأمريكيين فى دول أفريقيا، لمحت «زاكرى» ــ أوزكريا ــ هناك، والغريب، أنه كان سيستقل نفس الطائرة إلى باريس، كانت مصادفة غريبة بحق، لكن الأغرب منها، أنه بالرغم من الحب المتأجج فى قلب كل منهما، فإنهما لم يتبادلا حتى التحية، وعندما ركبا الطائرة جلس كل منهما فى مقعد بعيد عن الآخر... كل ما حدث بينهما من صلة، أن «لونا» نهضت إلى دورة المياه بعد إقلاع الطائرة من أمستردام بخمس عشرة دقيقة، ثم عادت إلى مقعدها ولم تغادره حتى وصلت الطائرة إلى باريس.. ولم يبد على «زاكرى» أنه لاحظ هذا، غير أنه بعد عشرين دقيقة من مغادرة لونا

لدورة المياه، نهض هو الآخر إليها، ولما كان الحمام مشغولاً، فلقد وقف ينتظر حتى خلا من شاغله ثم دخل..

ما إن أغلق زكريا الباب خلفه حتى استدار نحو دولاب صغير يحوى بعض أدوات الحمامات، أزاح بعض قطع الصابون وزجاجات الشامبو الصغيرة، فبدا له، فى عمق الدولاب مظروفاً سميكاً بعض الشىء... فى خفة أخذ المظروف ودسه فى جيب سترته الداخلى، ثم أعاد كل شىء إلى مكانه فى حذق، وأغلق الدولاب، وجذب ذراع السيفون، ثم فتح الباب وغادر الحمام!

فى مطار باريس، وبرغم كل المحظورات، لم يملك كل منها — لونا وزاكرى — إلا أن يودع الآخر من بعيد بنظرة سريعة... ثم اتجهت لونا إلى حيث البوابة التى تؤدى إلى الطائرة المتجهة إلى أبيدجان بساحل العاج، بينما انتقل زكريا إلى مطار آخر كى يستقل طائرة شركة مصر للطيران العائدة إلى القاهرة!!

فى مساء ذلك اليوم كانت لونا قد استقرت فى غرفتها بالفندق... كانت حريصة كل الحرص، حتى من قبل مغادرتها أمستردام، أن تحجز غرفة فى ذلك الفندق الجديد الذى بنته إسرائيل فى أبيدجان تعبيراً عن الصداقة بين الدولتين — إسرائيل وساحل العاج — وكان الفندق يستعد لاستقبال رواد الفضاء الأمريكيين، كما كان يستعد لإقامة حفل استقبال هائل لهم.

ومنذ لحظة وصولها تحركت «لونا بايرن» بسرعة، كانت تريد أن تحظى بتغطية كاملة لزيارة رواد الفضاء فاتصلت برجال الأمن وبعض الوزراء... كما اتصلت بالسفارة الأمريكية والتقت بصحفى ألمانى كان قد جاء لنفس الغرض.. غير أن كل اتصالاتها التى تمت فى خلال ثمان وأربعين ساعة، أوصلتها إلى

نتيجة واحدة، ووصلت هذه النتيجة إلى القاهرة، وكانت تقول: أن لا حديث ولا خبر ولا شىء عن أى حفار سوف يصل إلى أبيدجان فى المستقبل القريب أو البعيد!!

....
....

أين ذهب الحفار إذن؟!

هل اختفى بين أمواج المحيط؟ أم أنه رسا على شاطئ لا وجود له على الخرائط العالمية للكرة الأرضية؟!

أسئلة كانت بلا جواب، أسئلة جعلت الرجال فى القاهرة يؤمنون أن هذا الضباب الأسود الكثيف الذى أطلقته إسرائيل حول حركة الحفار كينتنج، يخفى وراءه الكثير... وكان معنى كل هذا الذى وصلهم، أنهم سوف يفتحون عيونهم ذات صباح أو مساء ليجدوا الحفار أمامهم فى مكان ما.. وأنه سوف يصبح عليهم فى هذه اللحظة، أن يتحركوا بسرعة حتى يلحقوا به قبل أن يتحرك من جديد!!

كانت أيامهم تمضى فى بطء قاتل وثقيل وهم ينتظرون، غير أن نفس تلك الأيام، كانت مشحونة بالمهام والعمل، بما لا تكفى له الأربع والعشرين ساعة التى يحويها اليوم كله!

• • •

كان ضابط المخابرات « فريد ذهنى » يجلس فى مكتبه جامداً صامتاً وقد ركز عينيه على التليفون الموضوع أمامه على مكتبه .. كان يعرف الفنانة « دلال شوقى » جيداً ، كما كان من أشد الناس إعجابا بشخصيتها ... فهى ، بالرغم من عصبيتها وحدتها ، تحمل بين جوانحها قلب طفل رقيق ، ثم .. ثم انها كانت عاشقة لمصر عشقاً يبدو لأول وهلة ، كأنه نوع من الجنون ، أو المرض الغريب !!

ولقد فعلت دلال الكثير — من قبل — من أجل مصر، فعلته فى صمت الصوفى المتعبد ... وعندما أخطأ فريد ذات يوم وحمل إليها « هدية » رمزية من جهاز المخابرات المصرى ، كاد هو — كما كاد الجهاز نفسه — أن يخسراها إلى الأبد ... نظرت اليه ليلتها ، كما نظرت إلى « الفازة » الباريسية الثمينة التى حملها إليها وقالت فى حزن :

« رجع الفازة يا فريد » .

هم بأن يبرر فاستطردت وقد احتدمت نبرتها :

« قول لهم إن دلال مابتخدمش بلدها بفلوس » ؟

أشار إلى الفازة وهمّ بالحديث فصرخت :

« ولا بهدايا !! » .

صمت فريد ليلتها ، ودمعت عيناها فنهضت تدارى عنه الدمع وهى تردد :

« إحنا اتربينا على خير البلد دى ، ولسه بناكل من خيرها ، وبنشرب من خيرها ، وبنتدلع عليها !! »

اختنق صوتها فتوقفت عن الحديث والحركة ، ثم استدارت نحوه وهى تقول فى حرارة :

« وبعد كده مش عاوزينا نقول لها كتر خيرك إلا لما نقبض ؟! »

كان الموقف ليلتها يشبه مشهداً سينمائيا رومانسيا ، كان موقفا غير « واقعى » ورغم هذا ، فلقد اقتنع فريد بأن هذه هى « دلال » ، دلال المجنونة دائما ، المفلسة دائما ، الفنانة أبداً !!

نظر فريد فى ساعة يده وبدا عليه القلق، أشعل سيجارة، وقبل أن ينفث دخانها كان جرس التليفون يدق ، اختطفت يده السماعة ، وما كاد يلبى النداء ، حتى جاءه الصوت من الطرف الآخر يحكى فى سرعة وترتيب ... وظل فريد يستمع فى صمت وانتباه شديدين ، لا يقول شيئا سوى بعض الكلمات التى تنبىء محدثه أنه يتابع معه الحديث : « آه .. كده ؟ .. كويس ! ضرورى » ! ثم إذا ما انتهت المكالمة قال : « شكراً » ثم وضع السماعة وظلت يده ممسكة بها لا تبرحها !

كان الآن فى حاجة إلى ثوان يعيد فيها ترتيب ذهنه قبل أن يجرى مكالمته المشهودة، والتى ظل يخطط لها منذ أيام ، حتى إذا استشعر أنه أصبح جاهزا ، رفع السماعة ، وطلب رقماً .

....

....

دق جرس التليفون فى بيت الفنانه « دلال شوقى » ، كانت دلال تجلس بجوار التليفون وكان التليفزيون يعرض أمامها إحدى التمثيليات ، رفعت السماعة دون أن تنطق ، جاءها صوت فريد من الطرف الآخر ، فاعتدلت وهى تهتف :

« وشك ولا وش القمر يا أستاذ .. عاش من سمع صوتك !! »

ضحك فريد على الطرف الآخر ضحكة عالية مرحة وهو يقول :
« سيبك من الأسلوب ده وقولى لى أخبارك إيه ؟! »
« اقرأ الجرانين وانت تعرفها ! »
« واللى مش فى الجرانين ؟! »
« لسه متطلقه جديد وخاليه شغل ! »
« بسيطة ! »
« على انهى فيهم ؟! »
« الاتنين ! »
« عندك عريس ؟! »
« انتى تؤمرى ! »
« عاوزة أمثل ! »
« غالى والطلب رخيص ! »
« بطل كلامك الحلو ده وقولى لى أنت عاوز إيه ؟! »
« عاوز أشوفك ! »
« تبقى فيه مصيبة ! »
« قال الله ولا قالك ! »
« أنا مش عاوزة وجع قلب ! »
« واحنا عمرنا وجعنا قلبك ؟! »
أحست دلال أن فى الأمر شيئاً، اعتدلت فى مكانها وهى تميل نحو التليفزيون فتغلقه :
« فريد .. قول لى انت عاوز إيه وخلصنى ! »

« الساعة خمسة ونصف كويس ؟! »
« عندى ناس الليلة ! »
« حاتلحقى ترجعى لهم فى ميعاد العشاء ! »
« وإيش عرفك إنهم حايتعشوا يا فريد ؟! »
قالت هذا، وانفجر الاثنان فى ضحك مرح !

....
....

فى الخامسة من عصر ذلك اليوم، كان ثمة سيدة شقراء تضع على عينيها نظارة سوداء تغادر العمارة رقم ١٦ بشارع رفعت الباجورى بالزمالك ... لمحها البواب الجالس على مقعده فى مدخل العمارة، بعيداً عن تيار الهواء البارد، فمال على زميله وهو يمد البصر من خلال زجاج الباب الكبير نحو السيدة التى انطلقت إلى الشارع :
« ودى كانت عند مين » ؟!
غمغم زميله وهو يمد البصر من خلال زجاج الباب الكبير نحو السيدة التى انطلقت إلى الشارع :
« انا ماشفتهاش وهى داخله ! »
« تبقى كانت عند الست دلال !! »
عند ناصية شارع رفعت الباجورى، كانت الشقراء تشير إلى تاكسى فتوقف .. كان الشارع خالياً، والبرد شديداً، والسماء ملبدة بالغيوم، دلفت السيدة الشقراء إلى التاكسى وهى تهتف :

« المعادى يا أسطى ! »

عندما وصلت السيارة إلى المعادى عند كورنيش النيل، انحرفت الى اليسار وانطلقت فى الطريق المظلل بالأشجار حتى عبرت مزلقان السكة الحديدية لمترو حلوان وهتفت السيدة :

« كفاية هنا ! »

توقف التاكسى عند ناصية الميدان الصغير، وكانت الساعة تشير إلى الخامسة وعشرين دقيقة، عندما شوهدت السيدة الشقراء تعبر الميدان نصف المظلم إلى شارع جانبى، ما إن خطت إلى الشارع حتى رفعت النظارة عن عينيها، واتجهت من فورها إلى ڤيلا صغيرة تحيط بها حديقة يبدو الاعتناء بها واضحاً.. دفعت باب الحديقة الخشبى وخطت فى الممر الممهد، صعدت الدرج ودقت الجرس، ففتح الباب وكان فريد هناك!

« مساء الخير يا فريد ! »

قالتها وهى تندفع إلى الداخل، فهتف فريد ضاحكاً وهو يشيرإلى الباروكة الشقراء التى كانت دلال تضعها على رأسها :

«إيه اللى انتى عاملاه فى نفسك ده ؟! »

« ما انفعش بلوند ؟! »

أغلق الباب وعاد إليها :

« تشربى إيه ؟ »

« خش فى الموضوع وخلصنى !! »

« عاوزين ننتج لك فيلم ! »

ألقت بنفسها فوق أحد المقاعد وهى تخلع الباروكة متأففة :

« يا أخى قلت لك خش فى الموضوع وبلاش وجع قلب ! »

« ما هو ده الموضوع !! »

كانت دلال تعرف أسلوب فريد تماماً، كانت تعرفه عندما يتحول – على حد قولها له – من إنسان إلى ضابط مخابرات، هبت واقفة عندما سمعت جملته الأخيرة وكأنها لدغت، أضاءت الأنوار كل الساحة أمامها فجأة، صاحت فى غضب جامح :

« أوعى تقول لى امرأة فى الأحراش؟! »

هز فريد رأسه إيجاباً وهو يبتسم.. ارتجفت دلال كمن أصابتها صاعقة، هتفت بصوت مبحوح :

« انتوا تعرفوا عزوز جابر ؟! »

« عزوز مالوش دعوة ! »

« أمال إيه اللى ... ... ! »

« اهدى وانتى تعرفى كل حاجة ! »

انحنت على الباروكة فاختطفتها وهى تندفع نحو الباب صائحة :

« مش عاوزه أعرف حاجه ! »

« دلال !!! »

التفتت إليه فى غضب :

« انتوا مش حاتبطلوا بقى ؟! »

« نبطل إيه ؟! »

عادت إليه وهى تتحدث من بين أسنانها :

« بالذمة ده فيلم تنتجوه والبلد فيها اللى فيها ؟! »

« طب اهدى شويه ! »

« وبعدما اهدى يا فريد ؟! »

« حاتوافقى ! »

وصممت دلال وهى تحملق فيه، كان يعرف الآن أنه استفز حب استطلاعها، صمت هو الآخر واتجه نحو أحد المقاعد وجلس عليه واشعل سيجارة، كان يتظاهر بالهدوء لكنه لم يكن هادئا، كل ما كان يعنيه أن تقتنع « دلال شوقى » أولاً، وإذا اقتنعت هان بعد ذلك كل شىء، كان يعلم أنه امتص الجزء الأعظم من انفعالاتها، وأن حديثه معها الآن لابد وأن يكون مركزاً، ذا مغزى واضح، راح يرتب ذهنه بسرعة وهو يرقب دلال التى تحولت فجأة إلى طفلة متذمرة، سارت إلى المقعد المقابل وهى تغمغم:

« أنا حاسمعك، بس إذا كنت فاكر إنى حاوافق تبقى متفائل ! »

هم بالحديث فاستطردت منذرة:

« وتبقى ماتعرفنيش لسه !! »

ساد الصمت لثوان جاء بعدها صوت فريد هادئاً:

« الكلام اللى حاقولهولك دلوقت، مش المفروض إنى أقوله، وغلط إنى أقوله، وعزوز جابر مايعرفش عنه حاجة أبداً، لا هو ولا كاتب السناريو ولا أى حد من اللى بيشتغلوا فى الفيلم... الموضوع خطير يا دلال ومحتاج لسرية مطلقة لأن كرامة البلد بتتوقف عليه !!! »

لمعت عينا دلال، ولاحظ فريد ذلك، فأحس أنه أصاب الهدف... همست

وهى تميل نحوه:

« كرامة البلد حتة واحدة ؟!! »

« انتى اتعودتى منى أنى أبالغ » ؟!

التهبت دلال الآن بالحماس:

« إيه الحكاية يا فريد ؟! »

« الفيلم مش عاجبك ؟! »

« طبعاً ! »

« وإذا كان اسمه الحقيقى حاجة تانيه ؟! »

« ودى تفرق » ؟!

« كتير قوى !! »

« طب إيه هو اسمه الحقيقى ؟! »

« الحفار كينتنج » !

صمتت دلال، لم تفهم شيئاً، غير أن هذه كانت هى المرة الأولى التى تسمع فيها اسم ذلك الحفار، الذى أضاعت من عمرها شهرين كاملين، فى سبيل القضاء عليه !

٥ - الفصل الخامس

الحفار يظهر اخيرا .

« ولقد كان لأجهزة الخدمة السرية أثر على التاريخ يفوق ما كان لها من أثر على المؤرخين، فوراء كل حدث عظيم. ووراء رجال الدولة الذين صاغوا هذه الأحداث، يقف الجواسيس ! »

« لاديسلاس فاراجو»
« مؤرخ مجرى الأصل أمريكى الجنسية »

تلقى طاهر رسمى نبأ موافقة دلال شوقى على السفر، فاجتاحته موجة عارمة من التفاؤل والنشاط.. هاهى عناصر الخطة الثالثة تكتمل فى الموعد، ولابد من بدء الحركة فوراً، برغم عدم ظهور الحفار!!

فتح أحد أدراج مكتبه، وأخرج منه دوسيهاً ذا لون أزرق، علت وجهه ابتسامة وهو يقلب فيما يحويه الدوسيه من أوراق، لديه إحساس غامض بأنهم لن يحتاجوا لهذه الخطة الغريبة... وإذا كان تقديره أنه لابد للحفار – على الأقل – من وقفتين على الساحل الغربى قبل أن يأخذ طريقه إلى جنوب أفريقيا، فماذا لو أفلت ووصل إلى مدينة الكاب؟!... وماذا لو أفلت أيضاً ودخل البحر الأحمر؟!

إنه الآن محاصر محاصرة كاملة ومحكمة فى نفس الوقت، كانت الخطط الموضوعة لمراقبته ومتابعته تؤكد أنه لن يفلت مهما حاول الإسرائيليون طمس معالم حركته، ولكن... ألا يفلت من المراقبة شىء، وأن يستطيع نديم الوصول إليه وتدميره شىء آخر!

كان لابد إذن من وضع خطة للتعامل مع الحفار «كينتنج» فى عرض المحيط، بعيداً عن الموانى والسواحل، فى تلك المياه الممتدة حول الساحل الأفريقى حتى مضيق باب المندب... وإذا كان كل ما يصنعونه ويبذلونه الآن

هو لتجنيب القوات المسلحة المصرية من التعرض له، فإن التعامل مع الحفار بواسطة إحدى قطع الأسطول المصرى يصبح أمراً غير وارد أصلاً... فكيف إذن ؟!

منذ اللحظة الأولى أيقن طاهر أن الأمر يحتاج إلى خطة خيالية، خطة تصلح لأحد الأفلام السينمائية، ولا تصلح للتنفيذ على الطبيعة... ولقد جاءته الفكرة ذات ليلة اختنقت فيها قنوات الفكر فى رأسه، كان متعباً ووحيداً، لم يكن عزت بلال هناك... راح يسير فى الغرفة جيئة وذهاباً وقد انعقدت سحب الدخان فى سماء الغرفة، امتدت يده ذات خطوة إلى جهاز التليفزيون الذى وضعوه فى مواجهة مكتبه فضغط على المفتاح، كان التليفزيون يعرض فى السهرة فيلما من أفلام القرصنة تجرى أحداثه فى القرن الثامن عشر، ألقى بنفسه فوق الفراش وراح يتابع الفيلم بعينين نصف مغمضتين، حتى إذا كانت لحظة من تلك اللحظات التى تلمع فيها الأفكار — تداعياً — فى ذهن الإنسان، انتفض واقفاً، ألهمته أحداث الفيلم فكرة غريبة... وهكذا راح ليلتها يضع الخطوط الأولى لتلك الخطة التى أطلق عليها عزت بلال فيما بعد اسم: «الخطة الجهنمية»!

كانت الخطة تعتمد أساساً على وجود بعثة سينمائية لتصوير فيلم تجرى أحداثه فى الأحراش، وقع الاختيار على نيجيريا لأنها آخر المحطات المنطقية لوقوف الحفار على الساحل الغربى، ولأنها دولة صديقة، ولأن شيئاً لن يتم على أراضيها، بل إن هذه الخطة بالذات، إذا قدر لها التنفيذ، فلن تتم على أية أرض لأية دولة... بل ستتم فى عرض المحيط، فى المياه التى تملكها كل دول العالم بلا استثناء، فى المياه الدولية!

وهكذا، ما إن اكتملت الخطة بعد استشارات ولقاءات ومداولات تمت مع «المصانع الحربية» من ناحية، وخبراء من القوات البحرية من ناحية ثانية... حتى تقرر أن يبدأ التحرك فى خلال عشرة أيام؟

وكان هذا اليوم، الذى تلقى فيه طاهر رسمى نبأ موافقة دلال على الاشتراك فى الفيلم، هو اليوم العاشر، وهكذا، أصبح عليه أن يعطى الأمر للعجلة بأن تدور فوراً!

....

....

أكثر ما شغل دلال شوقى فى الأمر كله، أن عزوز جابر كان يمر فى تلك الأيام بضائقة مالية بعد أن ضرب فى فيلمه الأخير الذى سقط سقوطاً فاحشاً ولم يعرض إلا لأسبوع واحد، وعندما عرض عليها عزوز القيام ببطولة فيلم «امرأة فى الأحراش»، ظننت فى البداية أنه دبر «قرشين» لينتج فيلما يقيله من عثرته، وعندما حدثها عن المخرج، كان كل ما طاف بعقلها أنه «اصطاد» مخرجاً مبتدئاً كى يخرج له الفيلم بأقل تكاليف ممكنة، وكانت هى على استعداد لأن تتنازل عن جزء من أجرها كى تساعده فى الوقوف على قدميه فى السوق... لكن الذى أذهلها أن الفيلم الذى عرض عليها، مهما كان رأيها فيه، سيتكلف مبلغاً باهظاً من المال، فن أين جاء عزوز بهذا المال؟!!

تصاعدت الأسئلة فى رأسها وتزاحمت عندما أصر عزوز وألح وعرض أجراً مرتفعاً بدلاً من مطالبتها بتخفيض أجرها، وظلت الأسئلة بلا إجابة حتى التقت

بالضابط فريد ذهنى، فأجاب على البعض منها، وترك البعض الآخر معلقا بالحيرة فى رأسها!

كانت الآن تجلس أمام مرآتها تضع الخطوط الأخيرة فى مكياجها استعدادا لاستقبال ضيوفها، عادت وقد عرفت أشياء عن الحفار «كينتنج»، وأنها ذاهبة كى تصور فيلما فى الأحراش، وعرفت أيضاً — بل هى موقنة أشد ما يكون اليقين- أن تصوير هذا الفيلم سيساعد البلد فى محنتها، لكن: «طب احنا رايحين نعمل إيه ؟!»

هكذا سألت فريد ذهنى منذ ساعات ثلاث وهى تحاوره فى تلك الڤيلا الغامضة فى المعادى، وقتها لم يرد فريد، بل ابتسم، كان يعلم أن سيلا من الأسئلة سينهمر عليه... استفزتها ابتسامته فصاحت وهى تضرب فى أرجاء المكان على غير هدى:

«دلوقت يقول لى مالكيش دعوة وما تشغليش بالك.. طب ازاى ؟!»

« زى الناس! »

« تكونش فاكرنى دمية بتلعبوا بيها ؟!»

« إذا كنت أنا نفسى ما اعرفش!»

صرخت محتجة:

« فريد! »

«أقسم لك بالله العظيم ما أعرف!»

حملقت فيه غاضبة، لكنه استطرد:

« ومش المفروض أعرف، ومش لازم أعرف!!»

ساد بينها الصمت لثوان، أحست بالخجل، كانت هذه هى المرة الأولى التى تقسم فيها فريد على أمر ما... تقدم منها محاولاً الحديث لكنها أوقفته بإشارة من يدها:

« آسفة يا فريد... أنا مصدقاك!»

ولقد صدقته فعلا... ربما لأنه كان يبدو دائما شديد الصدق، وربما لأنها كانت تريد أن تصدقه!!!

وها هى الآن ذاهبة إلى حيث لا تعلم لتفعل ما لا تدرى!

....

....

سمعت دقتين على باب غرفتها فالتفتت، رأت حميدة — وصيفتها وصديقتها — تقف هناك وعلى وجهها ابتسامة شديدة الاتساع:

« فيه إيه يا حميدة؟ »

« الضيوف وصلوا »

« طب إيه اللى بيضحكك ؟! »

«أصلى عاوزه أبخرك قبل ما تنزلى لهم!»

قالت حميدة هذا واختفت قفزاً قبل أن تلحقها الفرشاة التى قذفتها بها دلال، لم تكن دلال تطيق الحديث عن الحسد والبخور وما إلى ذلك، كانت موقنة أن لا شىء فيها يدعو للحسد، كانت جميلة حقاً، ولكن هناك ألوف الألوف من هن أجمل منها، وهى موهوبة، نعم... لكن الموهبة هبة من الله لا يؤثر فيها حسد أو عين.... وبرغم كل هذا، فلقد التفتت نحو المرآة، وراحت تحملق فى وجهها فأصابتها دهشة بالغة!

منذ طلاقها الأخير كانت تعيش أياماً تعيسة، كانت تتزين فلا تشعر للزينة بمعنى، وكانت تضحك فلا تشعر للضحك بصدى فى صدرها، وهى الآن ليست جميلة جمالاً أخاذاً، لكن ثمة شيئاً يبدو فى تلك النظرة اللامعة فى عينيها، والتى يحدثها عنها الأصدقاء كلما كانت تحلق فى سماوات بعيدة عن واقع الأرض...

ولقد ابتسمت راضية ونهضت مغادرة الغرفة ولم تكن خطواتها ثقيلة كما تعودت، راحت تتساءل وهى تتجه نحو السلم المؤدى إلى البهو فى شقتها: من هى ؟!... وما الذى ألم بها ؟!... وأى شيطان يركبها فيجعل للحياة طعماً، فقط... عندما تقدم على عمل مجنون، على مغامرة أو زواج !!

عندما كانت تهبط السلم فى خطوها السابح نحو البهو الذى يجلس فيه عزوز مع المخرج وكاتب السيناريو، هب عزوز مرحباً فى حرارة:

« أهلاً . أهلاً . أهلاً !! »

مدت له يدها:

« بون سوار »

قالتها بفرنسية سليمة تعلمتها منذ الطفولة... لثم عزوز يدها وقادها فى رفق إلى حيث كان مدحت صبرى يقف فى استقبالها، ماإن وقعت عيناها عليه حتى سرت فى جسدها قشعريرة لم تدر لها سببا، كان عزوز يتحدث بلا توقف فلم تسمع من حديثه شيئا، مد لها مدحت يده فسلمته يدها تسليماً، تساءلت متى رأت هذا الوجه من قبل؟ قال مدحت وهو يفسح لها الطريق لتجلس فى الصدارة:

« أنا كنت مستنى اللحظة دى من زمان ! »

صاحت ضاحكة:

« وإيه اللى خلاك تستنى !! »

وضج الجميع بالضحك، وهكذا بدأ الحديث !

• • •

فى صباح اليوم التالى، كان طاهر رسمى ومعه عزت بلال ونديم هاشم، يستعدون لعقد اجتماع أحيط — كالعادة — بسياج مطلق من السرية والكتمان حتى فى داخل جهاز المخابرات نفسه.... ولذلك، فلقد شهد المبنى الذى تقرر أن يعقد فيه الاجتماع نشاطا ملحوظاً منذ الصباح المبكر، وخلا فناؤه الصغير إلا من رجلين كانا يقفان متباعدين دون أن يتبادلا حديثاً... ران السكون إلا من صوت خطوات الحارس خارج الباب الحديدى المغلق، وعندما نفذ طاهر وعزت ونديم من أحد الأبواب الداخلية إلى الفناء، تلقاهم أحد الرجال بترحاب هامس، سأله طاهر فى صوت خافت:

« كله جاهز ؟! »

« تمام يافندم ! »

ودلف الثلاثة من باب آخر واختفوا فيه، وكان طاهر يحمل فى إحدى يديه مجموعة من الخرائط، وفى اليد الأخرى حقيبته السوداء التى بدت مكتظة وثقيلة بما فيها من أوراق !

كان آخر ما فعله طاهر وهو يدلف من الباب الآخر، هو النظر فى ساعته، وكانت تشير إلى التاسعة وخمس وعشرين دقيقة !

فى نفس هذا الوقت، كان ثمة سيارتان آتيتان من جهتين مختلفتين إلى

الطريق المؤدى إلى مبنى جهاز المخابرات المصرى ... ولقد ظهرت أولاها فى التاسعة وست وعشرين دقيقة، وكانت آتية من ناحية ميدان القبة، لكنها، وقبل أن تصل إلى أول السور المحيط بالمبنى انحرفت إلى اليسار، وخاضت فى طريق غير ممهد كان يتعرج بين الحقول الممتدة حتى اختفت... ثم ظهرت السيارة الثانية وكانت آتية من الناحية المقابلة، ولقد مرت هذه السيارة بالباب الرئيسى لمبنى جهاز المخابرات المصرى لكنها لم تتوقف ولم تدخل، بل استمرت فى سيرها بحذاء السور حتى انتهى، فانحرفت إلى هذا الطريق الضيق الغائص وسط حقول مترامية.

فتحت البوابة الحديدية فدلفت السيارة الأولى إلى الفناء الصغير وكان الرجلان فى انتظارها، فى عمق الفناء توقفت، وهبط منها راكبان يرتديان الملابس المدنية، لكنه كان واضحاً تماما أنهما عسكريان... قبل أن يتحركا لمصافحة الرجل الذى أدى لهما التحية العسكرية برغم ملابسه المدنية، دخلت السيارة الثانية فأغلق الباب الحديدى على الفور، وهبط من السيارة راكب واحد... كان فى حوالى الخامسة والأربعين من عمره، يحمل حقيبة قديمة ويضع على عينيه نظارة طبية... وما إن رآه أحد الراكبين حتى هتف صائحاً، وتصافح الاثنان ضاحكين وكل منهما يؤكد للآخر أنه لم يكن يعلم بحضوره... وسرعان ما دلف الزوار الثلاثة إلى نفس الباب الذى دخله طاهر ورفيقاه، وساد بعدها الصمت تماماً!

صعد الرجال الثلاثة سلماً ضيقاً قادهم إلى ممر غامض التصميم، كان الممر خالياً تماماً، يفضى فى نهايته إلى باب غرفة مغلق، تقدم منه أحد الرجلين،

وكان يسبق الضيوف، ودق عليه دقتين، فتح بعدها الباب للزوار كى يدخلوا!... وهناك، وجدوا طاهراً وزميليه فى انتظارهما بخريطة كبيرة شغلت نصف مساحة واحد من حوائط الغرفة الواسعة، وعدد لا بأس به من الخرائط والرسوم الهندسية كانت موضوعة فوق مائدة الاجتماعات!

أما الرجال الثلاثة فكانوا: رئيس هيئة أركان حرب القوات البحرية، وكبير المهندسين بها، أما الثالث، صاحب الحقيبة والنظارة الطبية، فلقد كان أستاذاً للهندسة البحرية فى إحدى الجامعات المصرية!

....

....

كان الرجال الثلاثة ـ بطبيعة الحال ـ يعرفون معنى السرية وضرورتها فى زمن حرب كالذى تمر به البلاد، لذلك... فعندما طرح عليهم طاهر مشكلة قاطرة وحفار لهما مواصفات خاصة، بعضها أكيد والآخر تقريبى، فإن أحداً منهم لم يسأل، بل ربما لم يفكر فى السؤال: أية قاطرة هذه، وأى حفار هذا؟!

بدأ العمل فور وصولهم ودونما انتظار لأكواب الشاى وفناجين القهوة التى تعود المصريون على تناولها فى أثناء العمل... ولو أننا فرضنا أن قاطرة تسحب حفاراً لها هذه المواصفات، قد غادرا الشاطئ الشرقى لكندا فى طريقهما إلى البحر الأحمر، فهل يستطيعان، حتى ولو كانت القاطرة مزودة بكميات إضافية من الوقود، عبور المحيط الأطلنطى إلى الشاطئ الغربى لأفريقيا مباشرة، أم أنه لابد لهما من التوقف فى جزرالازورس التابعة للبرتغال، أو جزر كنارى التابعة لأسبانيا، للتزود بما يحتاجان إليه من وقود ومياه وطعام؟!... وكم من الوقت

يلزم كى يصلا إلى الازورس، وكم من الوقت يلزم ـ بفرض أنهما لن يتوقفا ـ كى يصلا إلى إحدى موانئ غرب أفريقيا ؟!

وحسم الأمر فى ربع الساعة الأول من الاجتماع، أجمع الخبراء الثلاثة أن الاحتمال الأعظم هو ضرورة المرور بالأزورس، لا بجزر كنارى، وإن متوسط الوقت اللازم لقطع المسافة من كندا إلى جزيرة «سان ميجيل» هو سبعة أيام ... أما الوقت اللازم لعبور المحيط ـ بفرض مستحيل، وإذا سارت القاطرة بأقصى سرعة لها ـ فهو اثنا عشر يوماً لو أن الرياح والأمواج كانت مواتيتين !!

تلاقت نظرات طاهر مع عزت فى لمحة خاطفة، لقد مرت الأيام السبعة دون أن يصل الحفار إلى الازورس ... هتف طاهر متسائلا :

« مفيش أى احتمال أننا نقدر نعديه المحيط مرة واحدة لأفريقيا ؟! »

وهكذا ضرب عصفورين بحجر واحد، حصل على إجابته بأن هذا يبدو مستحيلا تماماً، وأوحى من طرف خفى لضيوفه بأن الحفار تابع لنا .!

مرت الأيام السبعة، بل مرت حتى الآن ثمانية أيام، ولم يصل الحفار إلى الازورس، فأين ذهب إذن ؟!

طاف السؤال بذهن طاهر، غير أنه ألقى به جانباً من رأسه، فلم تكن هذه هى مشكلته الأساسية، كانت المشكلة الأساسية سؤالا استغرقت الإجابة عنه خمس ساعات كاملة !

....

....

كانت المناقشات بين طاهر ونديم ـ منذ عاد الأخير من الإسكندرية ومعه الرجال الثمانية ـ تدور حول أمر واحد : هو المخاطرة بوجود عدد كبير من الرجال، فى وقت واحد ومن أجل هدف واحد، فى ميناء أجنبى لابد وأن يكون للعدو فيه عيون بلا حصر!

وليت الأمر يقتصر على هذا، فإن ثمة مخاطرة أساسية ولابد منها، ولا يمكن الاستغناء عنها، وهى نقل تلك الكمية المهولة من المتفجرات اللازمة لإغراق الحفار عبر حدود دول أوربية وأفريقية، صديقة وغير صديقة، من خلال مطارات وجمارك وتفتيش كان قد وصل ـ بالنسبة للعرب بالذات ـ إلى أقصى درجات القسوة، بعد تلك العمليات التى كان يقوم بها الشباب الفلسطينى من خطف للطائرات وتدمير واغتيال، وبعد هذا التعاطف الصارخ الذى حظيت به القضية العربية، مما دفع شبابا من آسيا وأوربا للقيام بعمليات خطف للطائرات وحدهم، تضامنا مع العرب ... كانت دول أوربا تضع قيوداً رهيبة على أى عربى ـ مهما كانت بلده أو جنسيته ـ فى أثناء دخوله إليها أو مغادرته لها ... وسط هذا كله، لابد من نقل المتفجرات والرجال أيضاً، ولذلك، فكلما قل عدد الرجال قلت كمية المتفجرات وقلت نسبة المخاطرة !

فى البداية، قبل هذا الاجتماع الذى كان معقوداً الآن، كانت المناقشات قد وصلت بهم إلى أن للحفار ثلاث قوائم هى التى يرتكز عليها فى قاع المياه، ثم البريمة التى تهبط تحت مستوى قاع البحر منقبة عن البترول، فإذا كان الضفدع البشرى لا يستطيع أن يحمل سوى لغم واحد، حيث يصل وزن ما يحمله من معدات ـ أسطوانة الأكسجين وبذلة الغطس والبطارية والزعانف ... إلخ ـ

إلى ما يقرب من ستين كيلو جراماً .. فإن معنى هذا أننا فى حاجة إلى ثمانية للتنفيذ، فإن فشلوا، فلابد أن يكون هناك ثمانية على استعداد للنزول إلى الحلبة! ... ويصبح المجموع ستة عشرة رجلاً!

ورغم أن نديما هو الذى اتخذ القرار بإحضار ثمانية رجال فقط، فإنه ظل منزعجاً، فمازال العدد من وجهة نظره كبيراً، والأمر محفوفا بالمخاطر خاصة إذا ما نفذت العملية فى دولة ليست صديقة، ومن أجل هذا عقد الاجتماع — الذى يطلق عليه العسكريون فى مصر اسم مؤتمر — الذى كانت حرارة المناقشة فيه قد وصلت إلى ذروتها، وكان هذا فى اليوم الثانى من الثلث الثانى من شهر فبراير عام ١٩٧٠.

قبل نهاية الساعات الخمس، توصل الجميع إلى أن «إتلاف الحفار» فقط، وليس إغراقه، وذلك بضرب قاعدتين من ثلاث، مع البريمة، كفيل بأن يعطله عن أداء مهمته إلى الأبد، وهو ما يساوى إغراقه تماماً ... بل إذا ما كان الإتلاف فعالاً، فلسوف يؤدي إلى ميل الحفار على أحد جوانبه نتيجة لدخول المياه إلى جوفه، وفى هذه الحالة قد يصبح الحفار معرضاً للغرق أيضاً!

كان معنى هذا أن على الخطة أن تعدل، ليصبح عدد الضفادع ستة فقط.

بالرغم من هذا، وبعد أن انتهى الاجتماع، كان نديم يغمغم عند عودته مع طاهر وعزت، بأن الستة عدد ليس بالقليل!!

....

....

فى فترة ما بعد الظهر، كان طاهر مشغولاً فى متابعة التجهيزات الخاصة بالبعثة السينمائية التى تقرر سفرها بعد يومين ... كانت البعثة تتكون من عشرة أشخاص: المنتج. المخرج. البطلة. ممثل ثانوى أسند إليه دور الزوج، وطبيب، وثلاثة عمال، ثم المصور، ومساعدة مخرج جديدة لم يسمع عنها أحد من قبل، اسمها: «سعاد الحكيم».

قبل كل هؤلاء كان مدير الإنتاج قد طار بالفعل إلى لاجوس، وقام بحجز الفندق، وأجرى عدة اتصالات، واستفاد فائدة عظمى من الترحيب الذى قوبل به فى نيجيريا، سواء من الشعب أو المسئولين، الذين بهرهم جميعا، أنهم سيرون نجوماً مصريين فى بلادهم، خاصة: دلال شوقى!

فى الأيام الماضية كان كل شىء جاهزاً فى القاهرة: جوازات السفر، التأشيرات، التذاكر، المعدات، الكاميرات، وعلب الفيلم الخام، وصندوقين كبيرين يحويان عدداً من المعدات السينمائية الحديثة، التى تساعد على تصوير الغابات، والتى كان المخرج «مدحت صبرى» قد استوردها قبل حضوره إلى مصر.

تقرر أن تنتقل البعثة من القاهرة إلى الخرطوم على طائرات شركة مصر للطيران، على أن تستقل فى الخرطوم طائرة أخرى تابعة للطيران الأفريقى ...

كان آخر الأنباء أن جواز سفر دلال قد أصبح جاهزاً تماماً، وأنها تستعد بتحضير بعض الملابس ليل نهار، وأن السفر سيكون فى الموعد إن شاء الله ... غير أن نبأ آخر تلقاه طاهر من خارج الحدود ... برقية مقتضبة، ما إن قرأها

حتى اكفهر وجهه، مما دفع عزت إلى سؤاله عما تحويه البرقية، فقال:
« الولد والبنت بتوع لندن اتعطلوا فى جزر كنارى!»

ران الصمت وعمق السكون فى الغرفة حتى خيل للرجلين أن كلا منها يسمع حركة عقل الآخر، ليست هناك معلومات أو تفاصيل، كانت البرقية الموقعه باسم «ليزونورمان» تقول: «توقفنا فى جزر كنارى لمدة لم تحدد بعد، الجزر جميلة ونحن فى غاية السعادة، ولكن لا دليل على وجود طفل حتى الآن، حبنا!»

تدافعت عشرات الأسئلة إلى رأس كل منهما...
هل اكتشف الإسرائيليون شيئاً؟!
هل استطاعوا النفاذ من ثغرة ما؟!
هل البرقية حقيقية أرسلها نورمان ويليامز، أم أن الإسرائيليين هم الذين أرسلوها حتى إذا تأخر وصول ليز ونورمان بدا الأمر طبيعيا؟!

كانت الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ضرورية للغاية... إن كل جزء فى الخطة مرتبط ارتباطاً عضويا بباقى الأجزاء، إنهم يكونون تلك الحلقة الفولاذية التى لا يمكن للحفار أن ينفذ منها مهما كانت عبقرية المخططين لرحلته، وانهيار أحد هذه الأجزاء كفيل بفتح ثغرة قد تطيح بكل الجهد الذى بذل وتذروه مع الرياح...

لم يكن هناك وقت للتحليل أو التفكير، بدأ طاهر العمل فوراً، كان من الضرورى الحصول على إجابات سريعة وواضحة وحاسمة، لعدد من الأسئلة

المحددة... ولقد استلزم هذا منه جهداً شاقاً، واتصالات معقدة ومتشابكة، ظلت حتى الثانية صباحاً... وكان على طاهر أن يجلس الآن، فى انتظار الإجابة!!

• • •

منذ ما يقرب من سبعة أيام، غادرت إحدى السفن التجارية السويدية ميناء «جوتنبرج» فى غرب السويد، كانت السفينة محملة بعدد لا بأس به من السيارات والجرارات والأوناش والمعدات الصناعية التى كانت فى طريقها إلى غرب أفريقيا.

كانت السفينة من هذا النوع العتيق الذى بنى فى أوائل الأربعينات من هذا القرن، أى فى بداية اشتعال الحرب العالمية الثانية، وقتها كان التصميم يهتم بالمتانة أكثر من الشكل، ولذلك، فلقد بدت هذه السفينة وهى تمخر عباب المياه مستقبلة بحر الشمال، هابطة نحو الجنوب، نافذة من مضيق دوفر - أو القناة الإنجليزية - إلى بحر المانش، متجهة إلى ميناء ساوثهامبتون... بدت متينة صلبة فى مواجهة أنواء الشمال فى مثل هذا الوقت من العام، برغم قدمها الواضح... لم تكن هذه بالطبع سفينة ركاب، بل هى من النوع الذى يطلق عليه البحارة ورجال الموانئ اسم «كارجو»، أى بضائع... ومثل هذا النوع من السفن لن تجد عليه سوى عدد قليل من الكبائن التى تظل غالبا شاغرة، ولذلك، فأسعار السفر على هذه السفن، أرخص بكثير من السفر على سفن الركاب المجهزة بكل وسائل الراحة والترفيه...

وعندما رست السفينة فى ميناء «ساوثهامبتون»، كان مقدراً لها أن تبحر بعد ثلاثة أيام، وفى اليوم الثالث، وقبل الإبحار ببضع ساعات، كان

سطح السفينة يشغى بحركة عنيفة من الرجال والأوناش والبضائع على حد سواء، كانت هناك صناديق تهبط، وأخرى ترتفع، وأوناش تزمجر، وأخرى تكركر، ورجال يصرخون، وآخرون يتضاحكون، كانت هناك نداءات وتعليمات وصفقات تتم فى اللحظات الأخيرة... ووسط كل هذا، صعد على ظهر السفينة فتى وفتاة، كانا نحيلين، خجولين، فقيرين، ملابسها رثة، ووجهيهما شاحبين، وحديثهما مؤدب... وكانا يحملان تذكرتين صادرتين من مكتب وكيل السفينة فى الميناء الإنجليزى «ساوثها مبتون».

وفى السنوات الأخيرة كان بحارة السفن فى العالم كله، قد تعودوا على هذا النوع من «الهيبيز» الذين يصعدون السفن، أو يركبون الطائرات، أو يقطعون على الأقدام آلاف الأميال، تاركين أنفسهم لأمواج الحياة تحملهم إلى حيث لا يهم... لكن الشيء الطبيعى الذى لفت الأنظار، هو أن تذكرتى الفتى والفتاة كانتا on Deck ، أى على السطح !!

ولقد تكون الإقامة على السطح محتملة كلما اقتربت السفينة من خط الاستواء فى إبحارها نحو الجنوب، ولكن، كيف سيتحمل هذا الفتى وهذه الفتاة صقيع بحور الشمال المنتظر لأيام قادمة !!

وبعد أن تسلم الضابط الأول للسفينة، وهو يونانى الجنسية اسمه «كابتن استافروس»، جوازى سفر الفتى والفتاة، وبعد أن تبادل معهما كلمات الترحيب المعتادة، عرف البحارة أن اسم الفتاة «اليزابيث ستيل»، واسم الفتى «نورمان ويليامز»... وعرفا منذ تلك اللحظة على السفينة، باسم «ليزونورمان»... كما عرف البحارة أنهما عروسان يريدان قضاء شهر العسل تحت الشمس الحارة

الساحل الأفريقى، هربا من صقيع لندن.

لم يكن ممكناً، خاصة فى الأيام الأولى من الرحلة، والسفينة لاتزال فى بحور الشمال، أن يبيت الشابان فى العراء، مع البرد والمطر والموج والعواصف، لذلك، فلقد وجه إليهما القبطان، عن طريق كابتن استافروس هدية الزفاف، كابينة من تلك الكبائن الخالية فى مؤخرة السفينة... ولقد حاول الفتى والفتاة أن يعتذرا عن الهدية فى أدب، لكن القبطان أصر، وبرغم حصولهما على كابينة ذات موقع ممتاز، فإنهما نادراً ما كانا يلجآن إليها... كانا يقضيان أغلب الوقت على السطح، يتهامسان، يتأملان الأفق، يتبادلان القبلات، يأكلان ما يقدم لهما من طعام دون تذمر أو طلب زيادة...

ومضت الأيام، ودخلت السفينة إلى المياه الدافئة، وعبرت ذلك الجزء الموازى لجبل طارق وأصبحت فى مواجهة الشاطئ المغربى، كان الدفء فى تلك المنطقة ذا طعم خاص، فى يوم من تلك الأيام الدافئة وصلت إلى القبطان برقية من المركز الرئيسى تطلب منه التوجه إلى جزر كنارى، إلى جزيرة «جوميرا» بالذات، وهى واحدة من سبعة جزر تكون المجموعة الرئيسية من جزر كنارى المواجهة للشاطئ المغربى... وهذا شيء مألوف وطبيعى فى البحر، لكن الذى أثار البهجة بين البحارة، هو معرفتهم بما سوف يلقونه فى هذه الجزر من ترحاب... وكان طبيعياً أن تسعد ليز ويسعد نورمان للخبر، ألا يقضيان شهر العسل ؟!

أراد كابتن استافروس أن يزف الخبر بنفسه إليهما... كان الوقت ظهراً، وأمواج المحيط تتلاعب بالسفينة فى رفق حنون، تدثره تلك الغلالة الرقيقة من

الدفء المنبعث من حرارة الشمس المتألقة فى سماء بلا سحب ... وكانت ليز تقف عند حاجز المؤخرة، تلقى ببصرها إلى بعيد، إلى عمق المحيط، وتدور أفكارها إلى حيث لا يمكن أن يعرف إنسان ... ولم يكن نورمان بعيداً عنها، كان قد تسلق كومة من حبال السفن الغليظة واستلقى فوقها واستغرق فى كتاب بين يديه!

صاح فيهما كابتن استافروس بصوته العريض، فالتفتت مجموعة من البحارة كانوا قريبين منهما:

« صباح الخير يا ولاد! »

كانت الأيام قد صنعت بينه وبينهما حبلا من الود صنعته فناجين الشاى، وبعض الزجاجات، التفت الاثنان نحوه وهما يردان التحية، فقال:

« سيكون شهر عسلكما مشهوداً! »

ظل نورمان صامتاً ينظر إليه من عليائه، بينما هتفت ليز:

« وكيف كان ذلك؟! »

نظر كابتن استافروس فى ساعة يده وهو يصيح فى فخر:

« بعد ثلاث ساعات وخمس عشرة دقيقة، سترسو السفينة على شاطئ جوميرا »

ساد الصمت لثوان حتى ...

« وما جوميرا؟! »

« واحدة من جزر كنارى! »

قال هذا وهو ينتفض حماساً، قاله وهو ينتظر منهما أن يتصايحا فرحاً وأن يعانق كل منهما الآخر ... لكن شيئاً من هذا لم يحدث، هبط نورمان من مكانه فى بطء، وتكاثر عدد البحارة حولهما وكل منهم يدلى بدلوه عما سيلقيانه فى جزر الكنارى من جمال طبيعة وطعام طازج وفاكهة وقصب السكر، لكنهما ظلا صامتين لا يحيران جوابا حتى كاد كابتن استافروس أن ينشق من الغيظ فصاح:

« ألا تعرفان جزر كنارى؟! »

قالا فى نفس واحد:

« طبيعى ... أكيد! »

« ألستما سعيدين أننا سنرسو على شاطئ واحدة من تلك الجزر؟! »

قالت ليز:

« لابد وأن يكون الأمر كذلك! »

وجاء ردا ستافروس ذروة فى العصبية، قال:

« لقد سمعت عن البرود الإنجليزى ورأيته وتعاملت معه، لكن بروداً كهذا لم يصادفنى بعد!! »

وضج الجميع بالضحك، وكان أكثرهم ضحكا وسعادة هما ليز ونورمان اللذان تقدما نحو كابتن استافروس، وكان البحارة قد صنعوا حولهم دائرة، قال نورمان فى أدب:

« كابتن استافروس ... ما معنى كلمة كنارى؟! »

إرتج استافروس وراح يتلفت حوله ناظراً إلى البحارة فى استخفاف قائلا:

« ليكن معناها ما يكون، المهم أن ما تحويه عظيم!! »

تصايح البحارة وصفق بعضهم، لكن نورمان عاد يقول:

«إن كلمة كنارى مأخوذة عن كلمة «كانيس» وهى كلمة لاتينية!»

«ما الذى تريد قوله بحق الشيطان؟!»

«أريد أن أقول إن كلمة كانيس تعنى كلب!»

مط استافروس شفته السفلى احتقاراً وهتف:

«وما معنى هذا ايضا!»

قالت ليز ضاحكة:

«إن اسم الجزر، هو «جزر الكلب»!»

وضج الجميع بالضحك، وكان كابتن استافروس، هو أول الضاحكين.

....

....

فى العاشرة من صباح ذلك اليوم، رست السفينة السويدية على شاطئ جزيرة جوميرا، تجمع حولها الوطنيون وهم يعرضون بضاعتهم من الموز والقصب والورود وبعض المصنوعات اليدوية الدقيقة... برغم العمل الشاق الذى كان ينتظر البحارة فإن كلا منهم كان يستعد لمغادرة السفينة فور انتهائه من عمله، بدا ليز ونورمان فى أول الأمر سعيدين بما يريانه لكنهما لم يفكرا فى مغادرة السفينة... ثم، ثم تغامزا. اثنان من البحارة وهما يرقبانهما وهما يحصيان نقودهما ويتناقشان، ثم عندما قررا مغادرة السفينة، راح كابتن استافروس فى حماس المتمرس يرشدهما إلى الأماكن التى يجب زيارتها.

غادرا السفينة فى الحادية عشرة صباحاً، واختفيا عن الأنظار طوال اليوم، لم

يصادفهما أحد فى مكان، ولا يعرف أحد أين ذهبا وكيف قضيا يومهما، وعندما عادا إلى السفينة مع الغروب، كان أول سؤال بدر منهما: «متى سنبحر؟!»

غير أن بحاراً عجوزا — فيما بعد — تذكر أنه كان يمر بالشارع الرئيسى فى الجزيرة عندما شاهدهما يخرجان من مكتب التلغراف، ولم يهتم أى من البحارة الذين سمعوا هذا الكلام، برغم أنه كان يمثل بالنسبة لليز ونورمان أهم ما فعلاه فى الرحلة حتى الآن... كانا قد أرسلا برقية الى «مسز فلاورز» التى تسكن فى ٥١٢ «أونزلو جاردنز» فى غرب لندن، وكان نص البرقية: «توقفنا فى جزر كنارى لمدة لم تحدد بعد، الجزر جميلة ونحن فى غاية السعادة، ولكن لا دليل على وجود طفل حتى الآن. حبنا»

أرسلت البرقية فى نحو الساعة الحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة ظهراً، لكنها لم تصل إلى القاهرة إلا فى المساء

وعندما كان طاهر غارقاً فى التخطيط والاتصالات، لم يكن يعلم أن السفينة غادرت جزيرة جوميرا فجأة. وكان قد أضيف إلى ركابها راكب آخر، يبدو فى حوالى الستين من عمره، عرف على الفور أنه عالم من علماء النبات، وأنه يجوب السواحل الأفريقية لعمل دراسة مقارنة بين نباتات غرب أفريقيا وشرقى القارة الأمريكية... وكان اسم الأستاذ فى جواز سفره هو: بروفسور ايزاك ديستان، فرنسى الجنسية، يشغل وظيفة أستاذ النباتات بالمناطق الحارة بإحدى الجامعات الفرنسية غير ذات الشهرة!

• • •

تتكون جزيرة «سان ميجيل» ــ أكبر جزر الازورس الخمس ــ من سلسلة متصلة من الجبال البركانية الشديدة الخصوبة، وفيما عدا هذه الظواهر الطبيعية التى تمتلئ بها شوارع بونتا دلجادا وبعض القرى هنا وهناك، فإن منظر الجبال الشديدة الخضرة صيفاً وشتاء يجذب عدداً لا بأس به من السائحين الذين يسعون إلى الهدوء ورخص الأسعار وجمال الطبيعة معاً!

غير أن أشهر الأماكن السياحية فى سان ميجيل، هى بحيرة «الألوان السبعة»، وهى بحيرة تتوسط مجموعة من الجبال شاهقة الارتفاع، حيث إذا وقفت فوق قمة أحد الجبال ونظرت إلى البحيرة القابعة فى العمق البعيد، رأيت مياهها مقسمة إلى سبعة ألوان هى الوان الطيف، وبرغم أن الناس يعرفون أن هذا خداع بصرى نتيجة لتراكم أبخرة المياه بين سفوح الجبال وفوق سطح البحيرة، ومع انعكاس ضوء الشمس تبدو مياه البحيرة ملونة... فإن الناس يخلب لبهم هذا الخداع، ويسعون إليه فى سعادة، حتى أهل الجزيرة أنفسهم!

ولم يكن جديدا على فرناندو بالديرا أن تدعوه تريزا إلى رحلة يقضيان فيها يوماً عند بحيرة الألوان السبعة... ولذلك فلقد وافق عندما عرضت عليه الفكرة، خاصة، وأنه من مكانه هذا فوق قمة الجبل حيث تسبح السحب تحت قدميه، يستطيع أن يشاهد أية سفينة تدخل ميناء بونتا دلجادا...

لم يقلق فرناندو فى رحلته تلك شىء ذو بال، كان كل شىء على ما يرام، والأيام تمضى ولا أحد يعجب لبقائه مدة طويلة فى الجزيرة، فلقد أصبحت علاقته بتريزا معروفة للجميع... لم يقلقه سوى هذا الإحساس الغامض نحو تلك الفتاة الأمريكية «باربرا هوفمان» والتى وصلت إلى الجزيرة قبل أن يصل هو

إليها بيومين أو ثلاثة، وصلت على ظهر سفينة أمريكية لم تدخل الميناء، وإنما أرسلت باربرا فى قارب أوصلها إلى الشاطئ، ثم عاد أدراجه... وكانت أوراقها مستوفاة.

وعلم أهل الجزيرة أن باربرا طالبة بإحدى الجامعات الأمريكية، وأنها جاءت خصيصاً لدراسة التربة فى «سان ميجيل»، ولم يكن هذا غريباً أو جديداً، كان هناك عشرات من الطلبة والطالبات يفدون من كل جامعات العالم، ويقضون وقتهم فى الشوارع والحقول وبجوار الينابيع المتفجرة بالحمم أو المياه الباردة، وكانوا مثلها أيضاً، يحملون حقائب كبيرة على ظهورهم، حقائب مليئة بالمعدات العلمية والأوراق والكتب والمذكرات!

كانت باربرا تنزل فى نفس الفندق الذى ينزل به فرناندو، وهذا ما لفت نظره فى البداية، فمع رقة حالها البادية، فإن الطلبة، بإمكانياتهم المادية، لا ينزلون فى فندق كهذا وفى الجزيرة فنادق أخرى أرخص، فنادق تعودت على استقبال الطلبة ومعاملتهم، كما أنها كانت تشغل الغرفة المجاورة لغرفته، وهى الأخرى تطل على الميناء مباشرة!

حاولت باربرا التودد إليه فى البداية فرحب من جانبه ترحيباً حاراً، سألته ذات يوم عن مزرعته فدعاها لزيارتها، عادت تسأله عن التربة وما يستخدمه من سماد ثم تطرق الحديث إلى أشياء أخرى فشعر شعوراً غامضاً بأنه يخوض فى بحر من الألغام، إحساس غريب لكنه انطلق يجيب عن أسئلتها البريئة، حدثها عن مطعمه فى لشبونة، وصفه لها، دعاها إليه إذ قدر لها أن تزور البرتغال يوماً، كان يعلم أن هذه معلومات يعرفها كل من فى الجزيرة، لكنه كان يشم بأنفه

التى دربت مع السنين، أن شيئا ما وراء باربرا هذه... وعندما دخلت تريزا إلى بهو الفندق، وكانت على موعد معه، ووجدته يجلس مع تلك الفتاة الأمريكية، تصرفت بما يوحى بأنه لو فعلْ هذا مرة أخرى فلسوف تقتله... وكما أدهشه فى البداية إقبال باربرا عليه، أدهشه إدبارها عنه بتلك السرعة التى جعلتها لا تهتم بأن تبادله التحية كلما التقيا بعد ذلك... وحرص فرناندو أن يرقبها من بعيد، فلم يجد فى تصرفاتها ما يوحى بأى نوع من الشكوك، فازدادت شكوكه، وقرر، برغم تحذيرات مراد الصارمة بألا يفعل شيئا غير مطلوب منه، قرر أن يلتقط لها بضع صور دون أن تشعر، وأن يهديها لمراد!

وقد فعل!

....

....

قضى فرناندو مع تريزا يوماً سعيدا بحق فوق قمة أحد الجبال المطلة على بحيرة الألوان السبعة، كان حب تريزا يتسلل إلى قلبه يوماً بعد يوم، وعندما كانا يهبطان الجبل فى الطريق الضيق الخطر، كانا سعيدين حقاً، لكن فرناندو ـ وسط سعادته تلك ـ كان يفكر متى سيظهر هذا الحفار، ومتى يعود إلى لشبونة... وعندما أوصلها إلى بيتها، كانت الساعة قد شارفت على السابعة مساء، وأصر شقيقها الضابط خوليو فارجاس أن يدخل فرناندو لدقائق. لكن الدقائق امتدت حتى الخيوط الأولى للنهار، لذلك، فلقد ألقى فرناندو بنفسه فوق الفراش بملابسه، فور وصوله إلى الفندق، وراح فى سبات عميق!

عندما استيقظ كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة صباحاً ببضع دقائق،

لم يستيقظ لأنه أخذ كفايته من النوم، بل استيقظ نتيجة لتلك الجلبة التى لا يصنعها سكان الجزيرة إلا إذا رست فى الميناء سفينة.

فتح عينيه وظل محملقا فى السقف لدقائق، تماوج تفكيره هنا وهناك، ثم عندما تذكر سبب حضوره إلى الجزيرة، قفز من الفراش كالملدوغ، فما يدريه أن تلك الجلبة التى يسمعها تحت نافذته ليست بسبب وصول الحفار؟!

اندفع نحو النافذة، أزاح الستائر، فتح النافذة على مصراعيها، وظل يحملق فيما أمامه غير مصدق.. كانت الميناء أمامه كاملة بامتدادها حتى مياه المحيط، وأمام عينيه، كان ثمة قاطرة هائلة الحجم، وبجوارها، هيكل كبير ذو أعمدة ترتفع فى الهواء، هو ليس سفينة، وليس قاطرة... فماذا يكون غير حفار؟!

لم تمض سوى دقائق قليلة حتى هبط فرناندو إلى بهو الفندق، كان منفعلا انفعالا غريباً، وكان دهشاً أشد الدهشة لهذا الانفعال الذى سرى فى كيانه واجتاحه اجتياحاً... لكنه بذل كل ما يستطيع من جهد حتى تكون تصرفاته طبيعية، إنه لا يعلم شيئا عن الحفار ولا ما الذى يريده المصريون منه ولكن...

« صباح الخير سيد فرناندو! »

قطعت حبل أفكاره صاحبة الفندق وهى تستقبله مهرولة فى ترحاب تعود عليه، رد عليها تحية الصباح فسألته عما يريد على الإفطار... التفت إليها متسائلا:

« ما هذا الضجيج الذى يملأ الرصيف؟! »

« إنها قاطرة تسحب حفارا للتنقيب عن البترول! »

فتح عينيه دهشة والتفت إلى السيدة وهتف:

« بترول ؟! ... هل ظهر البترول فى بونتادلجادا ؟! »
ضحكت صاحبة الفندق وشرحت له الأمر:
« لا ... إنها فى طريقها إلى أفريقيا ! »
هز رأسه كمن فهم وهو يغمغم بحثا عن مائدة تطل على الرصيف.
« هل تحب البيض مقليا أم .. .. »
أشاح بيده وهو يتجه نحو المائدة قائلاً :
« سأتناول اليوم قدحاً من القهوة المركزة لا غير! »
ما إن جلس إلى المائدة حتى واجهته صاحبة الفندق غامزة بعينها :
«لعل رحلتك بالأمس إلى بحيرة الألوان السبعة كانت ممتعة سيد فرناندو ! »
ابتسم وهو يومئ نحو الميناء متسائلا :
« ما اسم هذا الحفار؟! »
« كينتنج ! »

٦ - الفصل السادس

الباشا على مسرح الاحداث .

« ... ... وها هى مباراة جديدة مع العدو، وهى– هذه المرة– ليست مباراة عادية... ففوق مايكتنف المباريات عادة من إثارة، هناك ارادة إثبات أنك لاتزال موجوداً، أنك لم تنته كما أرادوا لك، وأنك قادر على اللعب وعلى الانتصار أيضا ! »

□ قبل أن ينتصف ليل ذلك اليوم الذى وصل فيه الحفار « كينتنج » إلى بونتا دلجادا، وصلت إلى القاهرة برقية تنبئ عن وصوله فى الفجر، وإبحاره فى التاسعة مساء!!

وبرغم أن موجة عنيفة من النشاط قد اجتاحت الرجال، وبرغم أن طاهر بمساعدة عزت بلال راح يضع تقديراً سريعاً للموقف، ويصدر أوامره فى كل اتجاه وكأنه تحول إلى آلة شديدة الدقة.. فلقد طرحت البرقية عدداً من الأسئلة، كان لابد — وسط حمى الحركة التى انتابت الجميع — من العثور على أجوبة لها!

كان فرناندو بالديرا قد أضاف فى برقيته أن ثمة معلومات هامة فى الطريق، وفرض هذا على الرجال سؤالا: إذا كان الحفار قد وصل فى الفجر، فلماذا انتظر فرناندو حتى رحيل الحفار فى المساء كى يرسل برقيته وقد كانت التعليمات تطلب منه أن يرسل البرقية فور ظهور الحفار؟!

لابد إذن أن هناك ما منعه من إرسال البرقية، فهل لهذا الامتناع علاقة بالمعلومات « الهامة » التى قال إنها فى الطريق؟... هل انتبه الإسرائيليون إلى شىء؟!.... وما هى هذه المعلومات، وما مدى أهميتها حقا؟!!

ثم...

إذا كانت القاطرة « چاكوب ڤان هيموكيراك » تستطيع أن تقطع المسافة من

الساحل الشرقى لكندا ، وحتى ميناء بونتا دلجادا فى سبعة أيام ، فلماذا قطعت المسافة فى تسعة أيام ؟!

كانت الإجابة عن كل التساؤلات الخاصة بفرناندو وبرقيته ، تحتمل التقدير أو الانتظار حتى وصول الرسالة خلال يومين أو ثلاثة ، لكن الإجابة عن هذا السؤال الأخير لا تحتمل سوى أمرين لا ثالث لهما ، الأول : أن تكون الأحوال الجوية ــ وهو مالابد أن الإسرائيليين قد وضعوها فى الحسبان ــ قد تسببت فى هذا التأخير... أما الأمر الثانى : فهو وجود جدول زمنى لدخول الحفار إلى كل ميناء !!

كانت تقارير الأرصاد الجوية ، علاوة على تقرير آخر أرسلته السفينة التجارية المصرية « صلاح الدين » ، التى كانت تعبر المحيط فى نفس الوقت ، تؤكد أن الأحوال الجوية كانت مواتية .. لم تكن هناك رياح مضادة ، كما كان ارتفاع الأمواج عادياً !

إذن ... فلابد أن هناك جدولا زمنياً حدد دخول الحفار إلى الازورس بعد تسعة أيام لا سبعة ... أملا فى التمويه ، أو لأى سبب آخر !

وإذا كان الأمر كذلك ، وإذا كان تقدير الخبراء يؤكد أن القاطرة « جاكوب ڤان هيموكيراك » تستطيع أن تسحب الحفار من الازورس ، حتى أقرب الموانئ المحتملة فى غرب أفريقيا ــ وهى دكار ــ فى ستة أيام فهل سيرسو الحفار فى « دكار » بعد ستة أيام بالفعل ، أم أن الأمر سيطول ليومين أو ثلاثة ؟! ... وهل

سيدخل الحفار إلى « دكار » أصلا ... أم أنه سوف يتجه إلى ميناء آخر ؟!!

....

....

كان هذا هو السؤال الذى ظل ذلك الجيش الصغير من الرجال الذين انتشروا على طول الساحل الغربى لأفريقيا ، والذين نشأت بينهم علاقات واتصالات معقدة وخفية وشديدة الدقة ... يبحثون عن إجابة له طوال الأيام الماضية دون جدوى !

وحتى ليز ونورمان اللذان وصلا إلى « دكار » على ظهر السفينة السويدية ، وبدآ شهر عسلهما ، وأرسلا برقية إلى لندن تنبئ « مسز فلاورز » عن وصولهما ، وعن اسم الفندق المتواضع الذى نزلا فيه .. حتى ليز ونورمان لم يستطعا أن يعثرا على شىء له قيمة ... وإن كانا قد استطاعا فى نفس اليوم الذى أرسلا فيه البرقية إلى لندن ، أن يحققا اتصالاً مباشراً مع واحد من رجال طاهر رسمى ــ لم يعرفا عنه شيئاً عدا أن أسمه « على » ــ وأن يخبراه بأمر هذا البروفسور « ايزاك ديستان » الذى صعد على ظهر السفينة فى جزر كنارى ليفرض عليهما صداقة هى أقرب إلى الحصار ... ليس هذا فقط ، بل لقد قالا إنهما يشعران ــ منذ وصولهما إلى دكار ــ أن هناك من يتبعهما ويضعهما تحت رقابة صارمة !

فهل كانت الأسباب التى منعت فرناندو من إرسال برقيته فور ظهور الحفار ، من هذا النوع من المشاكل التى يعانى منها ليز ونورمان ؟!

إن صح هذا ، فإنه كان يعنى أن الإسرائيليين ، لا يحيطون الحفار بحراسة

صارمة فقط ،بل إنهم على استعداد لأى شيء، بل لكل شيء فى سبيل حمايته حتى يدخل البحر الأحمر!!

....

....

وعلى كل، فمنذ وصول برقية فرناندو بالديرا، قبل منتصف الليل بقليل أصبحت الحركة، والحركة السريعة والدقيقة فى نفس الوقت، أمراً محتماً، غير أن تقدير الموقف، لم يكن بالطبع يقل أهمية عن هذه الحركة التى كان لابد لها أن تتم فى ضوء كل المعلومات التى توفرت للرجال فى تلك الغرفة التى احتلها طاهر رسمى، والتى أصبحت الآن أكثر ازدحاما بما فيها، وأكثر غرابة!!

غير أن المعلومات التى وصلت من «أبيدجان» كانت أشد وضوحاً وتحديداً، واستطاعت الصحفية الهولندية «لونابايرن» أن تقيم عدداً من العلاقات الشديدة الفعالية مع عدد لا بأس به من المسئولين، ومع عدد آخر من رجال السفارة الأمريكية فى نفس الوقت... كما قامت بسهولة وجرأة تحسد عليها، باتصال مباشر وعلنى مع أحد رجال طاهر رسمى هناك، وكانت تلتقى به فى بار الفندق الإسرائيلى الجديد، تحت أعين رجال المخابرات المركزية الأمريكية، الذين انتشروا هناك تمهيداً لزيارة رواد الفضاء الأمريكيين التى كانت تقترب يوماً بعد يوم... وكان طبيعياً أن يفرض رجال المخابرات الأمريكية سياجاً محكماً حول برنامج الرحلة، لكن الشيء اللافت للنظر حقاً — هذا ما قالته لونابايرن — هو أنها موقنة من وجود بعض رجال المخابرات الإسرائيلية الذين كانوا يتحركون وكأنهم جزء من الخطة العامة لاستقبال رواد الفضاء... أما الحفار «كينتنج»

فإن أحداً لم يذكره، بل، إنه يبدو وكأن أحداً لايعرف عنه شيئاً، ولم يسمع به!

ولكن ...

بعيدا عن لونابايرن التى كانت ملاحظاتها مفيدة للغاية، فإن المعلومات التى وصلت إلى جهاز المخابرات المصرى من مصادره الأخرى، كانت تؤكد، أن أبيدجان فى الأيام الأخيرة، أصبحت مسرحاً لنشاط غامض ومحموم فى نفس الوقت!!

....

....

وفى لاجوس كانت حركة عمر بك محمد السيد التجارية قد غطت أكرا فى غانا، وبورتونوفو فى بنين، ولاجوس فى نيجيريا أيضاً... ولقد أرسل إلى مقر شركته فى القاهرة يقول: إن هناك ما يشير، فى «لاجوس» بالذات، إلى احتمالات جيدة بالنسبة لصفقات الأطعمة المصرية المحفوظة!...

ولقد وصلت البعثة السينمائية المصرية، بما تحمل من معدات، بسلام... واستقبلت من رجال السفارة المصرية وبعض المسئولين عن الإعلام فى نيجيريا استقبالاً جيداً... لكن اللافت للنظر، أن خبراً واحداً لم ينشر عن هذه البعثة الفنية التى كانت تضم واحدة من نجوم الصف الأول فى مصر، وأن البعثة فوق هذا، لم تمكث فى لاجوس لأكثر من خمس عشرة ساعة، فلقد وصل أفرادها فى المساء، واتجهوا فوراً إلى الفندق، ثم... وفى الصباح المبكر، غادرت البعثة لاجوس فى أتوبيس كان قد استؤجر خصيصاً، إلى مدينه «أو يو» التى تبعد

عن العاصمة بحوالى مائة كيلو متر إلى الشمال، وحتى تكون قريبة من منطقة الأدغال التى اختيرت لتصوير الفيلم!

كانت البعثة السينمائية المصرية قد غادرت القاهرة فى فجر أحد الأيام على متن إحدى طائرات شركة مصر للطيران، ووصلت إلى الخرطوم لتستقل طائرة أخرى تابعة للطيران الأفريقى، وشحنت المعدات الخاصة بالتصوير وعلب الأفلام الخام فى نفس الطائرة مع البعثة... وكان هناك صندوقان كبيران يحويان بعض المعدات الدقيقة التى استوردها المخرج مدحت صبرى، والتى كان رجال الشحن يولونهما عناية خاصة لما فيهما من معدات شديدة الدقة وعدسات قابلة للتلف أو الكسر... لكن الغريب فى الأمر، أن المعدات جميعها، بما فيها هذين الصندوقين، اختفت فور وصول الطائرة إلى المطار، وقال مدير الإنتاج أن ليس هناك مكان فى الفندق، ثم ظهرت فى صباح اليوم التالى، وكانت تحتل مكاناً كبيراً من الأتوبيس الذى استقلته البعثة إلى مدينة «اويو» لكن المدقق كان يستطيع أن يلحظ أن الصندوقين قد فتحا ثم أعيد غلقهما مرة أخرى... وهذا بالطبع كان وارداً، أن الكشف على المعدات قبل بدء التصوير أمر مهم للغاية!

....

....

هكذا استقر الأمر بالنسبة للخطة الثالثة فى لاجوس، غير أن عناصر الخطة، التى بدت حتى الآن محكمة ومقنعة لكل الأطراف، لم تكن قد استكملت كلها بعد... ولذلك، فلقد خرجت برقية من إحدى شركات الملاحة البحرية، وكانت مكاتبها الرئيسية فى إحدى العمارات القديمة فى ميدان المنشية بالإسكندرية، إلى

السفينة المصرية «نجمة يوليو» ــ هذا الاسم بالطبع مستعار ــ وكانت فى ذلك الوقت تقطع المحيط من الجنوب نحو الشمال فى طريقها إلى لشبونة، ومنها إلى شمال ألمانيا، تطلب منها إدارة الشركة أن تقطع خط سيرها، وأن تتوجه فوراً إلى ميناء لاجوس، وهناك، كان على القبطان «سعد محروس» قائد السفينة ــ هذا الاسم أيضاً مستعار ــ أن يستقبل مندوباً عن الشركة يحمل خطاباً، عليه أن يقرأه، وأن ينفذ ما فيه حرفياً!

حاول القبطان سعد محروس أن ينبه الشركة إلى أن شحنة السفينة من الفواكه المرسلة إلى ميناء هامبورج بألمانيا الغربية، قد تفسد لو أنها تأخرت عن موعد التسليم، لكن الرد جاءه بتنفيذ ما جاء فى البرقية مهما كانت النتائج!

ولم يجد القبطان بدا من تحويل مسار سفينته فى المحيط، ووصل إلي لاجوس بعد وصول البعثة السينمائية بيومين، وكانت هناك ــ مع مندوب الشركة ــ حقيبة دبلوماسية مصرية، قد حملت إلى ظهر السفينة فى منتصف ليلة وصولها، وكانت الحقيبة تتكون من صندوقين كبيرين حملتهما أوناش السفينة فى رفق، ووضعتهما فى أحد العنابر، مع توفير القدر الكافى من الأمان لهما... والغريب فى الأمر، أن هذين الصندوقين كانا فى نفس حجم صندوقى المعدات الثمينة التى كان يحرص عليها المخرج مدحت صبرى... والذى كان الآن، يصور المناظر الخارجية لفيلمه الأول فى أحراش نيجيريا.

أما مندوب الشركة، فعندما جلس مع القبطان سعد محروس فى كابينته التى أغلقت عليهما جيداً، فلقد أخرج رسالة قدمها لقائد السفينة الذى ما إن

قرأها، حتى رفع رأسه نحو المندوب الذى بدأ وجهه مألوفاً لديه وقال:

« إيه الحكاية ؟! »

ابتسم المندوب وهو يغمغم:

« علمى علمك ! »

« أنا شفتك فى الشركة قبل كده ؟! »

« ما اعتقدش ! »

ولقد كان سعد محروس واحداً من ضباط القوات البحرية الذين خرجوا من الخدمة لأسباب سياسية بعد حادث محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر فى ميدان المنشية بالاسكندرية عام ١٩٥٤ ... بعد هذا الحادث قبض عليه، وحوكم، وحكم عليه بالإعدام، ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة، ثم أفرج عنه بعد تأميم قناة السويس، وعين على الفور ضابط ثانيا على إحدى السفن التجارية المصرية !

ولأنه كان رجلا عسكرياً من قبل، فلقد كان يعرف أن هناك أموراً لا تجب مناقشتها حتى ولو كان هذا ممكنا ... فراح ينفذ ما طلب منه بحماس شديد !

وبعد أن قاد مندوب الشركة إلى إحدى الكبائن العادية فى السفينة، اتجه إلى غرفة الآلات التى كانت تشغى بالحركة والصياح وتمتلئ بالضجيج ورائحة الزيت والسولار ... وهناك، وفوق أحد الممرات الحديدية التى تتشابك فى فضاء هذه الغرفة، وقف مع كبير مهندسى السفينة، وطلب منه أن يبحث عن عطب يبقى السفينة فى الميناء لأسبوعين على الأقل، فانفجر كبير المهندسين ملوحاً بيديه الملطختين بالشحم:

« ياقبطان ... دى تانى سفرية أقول لكم فيها إن طلمبات الميه عاوزة صيانة

كاملة، وأن المكثف محتاج نظافة، وخزانات الميه ... ... »

قاطعه القبطان:

« أعمل اللى انت عاوزه، واتفق مع الشركة اللى تقول لك عليها الحكومة، بس بشرط أنك تكون جاهز قبل أسبوع من غير ما حد يعرف ! »

ولم يرد كبير المهندسين، ولم يضف القبطان شيئا !

• • •

بدا لطاهر رسمى الآن، وبوضوح، أن برقية فرناندو، وتحذير ليزونورمان، ومعلومات لونابايرن، وتقارير الرجال المنتشرين بطول الشاطئ الغربى ... كلها تؤدى إلى طريق واحد، أن الإسرائيليين سيعتمدون فى الخطوة القادمة على عنصر المفاجأة ... وعلى ذلك، فلقد كان لابد من وضع الخطط أو تعديلها على أساس أن الرجال سيفاجئون ذات ساعة من أى يوم من الأيام القادمة، بنبأ يقول إن الحفار قد وصل إلى مكان ما، وأنه الآن هناك والحراسة عليه قوية، ولا أحد يعرف كم من الوقت سيبقى حيث هو، وأنه سيصبح على طاهر رسمى، فى هذا الضباب، أن ينقض على الهدف، ويدمره !

ومنذ وصول برقية فرناندو والساعات تأكل بعضها بعضاً، وكان طاهر الآن ــ بعد وصول البرقية بساعتين، أى فى حوالى الواحدة والنصف صباحاً ــ قد أجرى مكالمة تليفونية عاجلة، غادر على أثرها مكتبه، وخرج من باب خلفى للجهاز، وكان يقود سيارة أوستن شديدة القدم، وكان هدفه فى هذا الوقت من الليل، هو منزل «أمين هويدى» رئيس جهاز المخابرات المصرى فى مصر الجديدة !

كانت وعكة الأنفلونزا قد اشتدت على الرجل فآثر أن يرتاح يوما فى البيت، وكان خروجه قد يعرضه لنكسة هو فى غنى عنها فى مثل ذلك الوقت، ولذلك،

فضل طاهر أن يذهب إليه بنفسه... إن العملية تدخل الآن مرحلة حاسمة لابد وأن يعلم المدير بخطوطها العريضة كاملة!

عندما وصل طاهر إلى بيت أمين هويدى لم يدخل إلى الصالون، بل انحرف يمينا ودلف إلى غرفة المكتب الصغيرة لرئيس جهاز المخابرات، كان الرجل يرتدى الروب والبيجاما، ولم يكن يعلم بالضبط ما الذى يحمله طاهر رسمى فى جعبته عن الحفار، فالمكالمة التى تمت بينهما كانت مختصرة للغاية، ولقد حاول أن يعتذر لطاهر عن استقباله بالبيجاما والروب، لكن طاهر كان مشغولا عن هذه الشكليات بالنبأ الذى كان يحمله، وما إن خطا إلى غرفة المكتب، وقبل أن يتخذ مقعدا، حتى التفت نحو أمين هويدى قائلاً:

« الحفار ظهر! »

ساد الصمت، سعل المدير، لكن السعادة اجتاحت كل ملامحه، سار إلى مقعد وجلس عليه، تداخل فى نفسه ليتقى تلك القشعريرة التى سرت فى جسده، ربما من شدة البرد، وربما لإحساسه باقتراب معركة من تلك المعارك الفاصلة التى يتقرر فيها الكثير من الأمور.. لكنه قال أخيراً:

« وإيه الموقف دلوقت ؟! »

بعد ثمانى عشرة دقيقة بالضبط، كان طاهر رسمى يغادر بيت رئيس جهاز المخابرات ليسير على قدميه مائتى متر خرج بعدها إلى الشارع الرئيسى فى المنطقة، حيث يمر أحد خطوط مترو مصر الجديدة، عبر الشارع وشريط المترو ثم خطا إلى الضفة الأخرى من الطريق، حيث كانت سيارته الأوستن فى انتظاره... وعندما دلف إلى السيارة، نفذ البرد من عظامه فارتجف وأغلق

الباب بسرعة، وأدار الموتور!!

....

....

كانت الساعة تشير إلى السادسة والربع صباحاً عندما أخذ طاهر وعزت ونديم يتبادلون الرأى فى جدال كان قد امتد الآن لساعتين ويزيد، كان الحوار حاراً برغم أن أحداً منهم لم يكن قد ذاق فى تلك الليلة للنوم طعماً، فلقد جرفتهم حرارة المشكلة إلى فيض من الأسئلة.

قال طاهر ملوحاً بكوب من الشاى كان فى يده:

« أنا رأيى أن الحفار لازم يدخل دكار »

قال عزت وكأنه يضبط موجة الحديث:

« فيه تقرير جديد من مصلحة الأرصاد! »

سأل نديم فى تحفز:

« بيقول إيه ؟! »

« المحيط عند الساحل الأفريقى معرض لعاصفة شديدة! »

هتف طاهر:

« يبقى ده ادعى إنهم يدخلوا دكار! »

سأله نديم وكأنه يطمئن على مهمته:

« كلمت الباشا ؟! »

التفت طاهر نحو عزت ليسأل بدوره:

« المتفجرات جاهزة ؟! »

رد عزت :
«واختبرت واتحطت فى الشنط!»
هتف طاهر :
«يبقى الباشا لازم يسافر بكره!»
صحخ عزت :
« قصدك النهارده!»
«هى الساعة كام؟»
قال نديم وهو ينظر فى ساعته :
« ستة وتلت! »
مد طاهر يده إلى التليفون وهو يهتف :
« نصحيه بقى، كفايه عليه نوم لحد دلوقت! »
وساد الصمت إلا من صوت قرص التليفون وأزيز جهاز التكييف... راح عزت يرقب وجه زميليه... كان نديم يبدو متحفزاً صاحياً وكأنه نام من قبل دهراً، هذا هو نديم قلب الأسد يخرج من مكمنه، وفى اللحظات الحاسمة... وكان طاهر كتلة متوترة من الأعصاب التى تتحرك فى تناسق واتزان وانضباط يضيف إلى عمر صاحبه عشرات السنين فى لحظات، قطع الصمت صوت طاهر وهو يهتف :
« انت لسه نايم ياباشا؟! »
على الطرف الآخر جاءه الصوت ساخراً :
« لسه نايم ده أيه... أنا لسه حادخل السرير علشان أنام »
وأطلق كل منها ضحكة عالية صاخبة، قال بعدها الباشا دون انتظار

الحديث :
« مسافة السكة حاكون عندك! »
سأله طاهر مداعبا :
« وايش عرفك انى عاوزك؟! »
« يعنى هاتصحينى الساعة ستة ونص علشان تقول لى إزيك؟! »
وانتهت المكالمة بضحكات أخرى أشد مرحاً!
شىء غريب هذا الذى ينتاب الرجال إذا ما كانوا فى الطريق إلى مهمة، كان الثلاثة يعلمون أن الباشا نوع خاص من رجال المخابرات، لا فى مصر وحدها، وإنما فى العالم كله... هز طاهر رأسه وكانت ابتسامته لا تزال معلقة على شفتيه، رفع عينيه نحو عزت متسائلا :
« الباسبور بتاعه جاهز؟ »
« والفيزات والفلوس! »
« حجزت له امتى؟! »
« النهارده فى طيارة الساعة خمسه ونص! »
قال عزت هذا وهو ينظر فى ساعته، كانت الآن تشير إلى السادسة وأربعين دقيقة، وجاءه صوت طاهر يسأل نديم :
« وانت يانديم... حاتلحق؟! »
قال نديم وهو يخطو نحو الباب :
« ما تنعاش هم! »
ثم اختفى!!

• • •

فى فناء جانبى صغير، كانت سيارته البيجو المستعملة هناك، خطا نحوها بخطوات كانت تدق الأرض فى نغم يوحى بالثقة، دلف إلى السيارة وقد اجتاحته لذة غريبة ... زفر نديم فى ارتياح من تخلص من كابوس وهو يدير موتور سيارته هاتفا :

« أخيراً ظهر! »

كان كالصياد الذى تتبع فريسة بعينها لشهور وراء شهور، يرحل خلفها إذا ما رحلت، ويبحث عنها إذا اختفت، لاينى، ولا يتوقف إلا إذا بدت له فى الأفق، فيسعى إلى اصطيادها ... الصياد الحقيقى يعرف يقيناً أن هذه هى لحظة اللذة الكبرى، الإحساس الذى يفوق إحساس الاقتناص نفسه !!

اخترق نديم ضاحية كوبرى القبة وتوغل فى طريق عسكرى قصير، وعندما وصل إلى طريق صلاح سالم انحرف إلى اليمين، وكما أطلق العنان لسيارته، أطلقه أيضاً لأفكاره!

... ...

... ...

الخطر ...

أكسير الحياة وباعث القوة فى الروح والجسد معاً، يقول التاريخ : إن كل تقدم علمى أحرزه بنو الإنسان على هذه الأرض، كان الإحساس بالخطر هو بذرته الأولى، فهل كان الفيلسوف الألمانى نيتشه على حق ؟!

يشعر وكأن ذبذبات غامضة تسرى فى كيانه فتجتاحه لذة لا تفوقها لذة أخرى ... قالت له زوجته ذات يوم : إنه يكون فى أحسن حالاته عندما

ينغمس فى العمل إلى أذنيه، لم تكن تعرف عندما قالت ما قالت طبيعة عمله، هى لا تعرف حتى الآن ما الذى يفعله زوجها بالضبط، لكنه إحساس الأنثى الذى لا يخطئ ... كم من مآزق وقع فيها، لو أنه فكر الآن كيف ينجو منها لما استطاع أن يجد لنفسه طريقاً، لكنه، وهو فى وسط الخطر، كان ينجو بما يشبه المعجزات !

العمليات السرية عند نديم هاشم كالمباريات الرياضية سواء بسواء!

هو بطل من أبطال التنس فى مصر، التنس هو الرئة التى يتنفس بها بين الحين والحين فوق سطح الحياة، ولو أنه استمر فى اهتمامه به، لكان اليوم واحداً من أبطاله المرموقين ... وبرغم هذا، فإن مبارياته فى النادى حتى الآن، تثير جدلاً، وتجذب عدداً لا بأس به من متذوقى اللعبة !

وها هى مباراة جديدة مع العدو، وهى ـــ هذه المرة ـــ ليست مباراة عادية ... ففوق ما يكتنف المباريات عادة من إثارة، هناك إرادة إثبات أنك لا تزال موجوداً، إنك لم تنته كما أرادوا لك، وإنك قادر على اللعب وعلى الانتصار أيضاً !

كانت هزيمة عام ١٩٦٧ خارجة عن كل إرادة، كانت قدراً محفوراً على الجبين فأين المفر؟!

ولابد ...

لابد من دفع الثمن !!

....

....

اندفعت السيارة البيجو فى الطريق الصاعد إلى قمة جبل المقطم فى سرعة.
كانت الساعة قد تعدت السابعة ببضع وعشرين دقيقة... وهذا هو وقت نزول سكان المقطم إلى أعمالهم، سواء فى سياراتهم الخاصة — وكم هى جد قليلة — أو فى الأتوبيس... لذلك، فلقد وضع نديم على عينيه تلك النظارة السوداء الكبيرة التى تخفى معالم وجهه... كان يعلم أن العد التنازلى فى مباراة الحفار «كينتنج» قد بدأ، وأنه الآن يخطو الخطوة الأولى، خطوة لا مغامرة فيها، لكنها قد تكون أصعب الخطوات على الإطلاق!

مهمته من الآن وحتى لحظة الانطلاق، هى تلقين الرجال أسماء غير أسمائهم، أن يغير حياة كل منهم تغييراً كاملاً... وكان على كل منهم قبل أن يتحرك، أن يمتلئ بذلك الشعور الغريب بأنه قد أصبح إنسانا آخر، له اسم آخر، وماض آخر، وحياة أخرى، وأهل آخرون... وأن يعى هذا وعياً عميقاً يمتد إلى أعمق أعماقه... فمن يدرى ما الذى سوف يحدث لو أن أحدهم سقط فى يد الأعداء أو أشباه الأعداء أو أصدقاء الأعداء...

كان على الرجل منهم، إذا ما وقع المحظور، أن يصمد وأن يقاوم وأن يصبح أى أحد بأى أصل وأية بلدة وأى عمل... إلا أن يكون ضفدعاً بشرياً!

كانت هذه هى مهمة نديم فى الأيام القليلة القادمة، وهى مهمة كان يؤجلها إلى اللحظة المناسبة، وها هى اللحظة قد حانت!

• • •

كان محمود شوكت نوعاً خاصاً من رجال المخابرات المصرية بالذات... هو سليل أسرة من تلك الأسر الريفية التى تمتد أصولها الأولى إلى الأناضول، أسرة ثرية كانت تملك مساحات شاسعة من الأراضى، لكنها واحدة من تلك الأسر التى تفخر بالأدوار الوطنية البارزة التى لعبها الرجال من أجيالها ضد الاحتلال الإنجليزى لمصر!

ونشأ شباب الأسرة يفخرون، لا بما يملكون من أراضى وفدادين، وإنما بما قدمه آباؤهم وأجدادهم من تضحيات فى سبيل استقلال مصر... وأصبحت الوطنية ميراثاً يعتز به الرجال فى هذه الأسرة الشهيرة فى وسط دلتا النيل جيلا بعد جيل.

ولقد نشبت أزمة مارس عام ١٩٥٤ بين رجال الثورة وبين محمد نجيب، ومحمود شوكت يكمل دراسته فى باريس، فوقف ضد رجال الثورة مؤيداً محمد نجيب، وانقطعت عنه المعونة المالية التى كانت ترسل له من القاهرة... فلم يتراجع، وراح يبحث عن عمل يكسب به قوت يومه، ووصل به الأمر أن عمل حمالاً فى سوق «الهال»، واشتغل خطاطاً لأهالى شمال أفريقيا العرب، ولما كان الزواج فى باريس زواجاً مدنيا فقط، فلقد قام فى بعض الأحيان بمهمة المأذون الشرعى بين مسلمى أفريقيا السوداء الذين كانوا يملئون عاصمة النور!

فى تلك الأيام، وقع محمود شوكت فى حب أفريقيا... لم يكن يعرف عنها شيئا إلا ما تعلمه فى كتب الجغرافيا، ولكنه فى أيام المحنة عرفها، وتعرف عليها، وسقط صريع هواها، وأصبحت حبه الأبنوسى الأعظم... تعرف هناك على زعماء من الجزائر وتونس والمغرب ومالى والكنغو ونيجيريا وساحل العاج والكاميرون

وغانا وغينيا ... تعرف عليهم فى دروب الهال المبللة بمياه المطر والمطاعم، ووسط روائح الطعام وأبخرة الشواء، تعرف عليهم فى أزقة مونمارتر، التقى بهم وناقشهم وتحمس لهم وخبر قضاياهم ... أبناء هذه البلاد التى كانوا يطلقون عليها اسم « أفريقيا الفرنسية » ، كما أطلق هو على أحياء بكاملها فى باريس اسم « فرنسا الأفريقية » !

وفى عام ١٩٥٦ ، كان محمود شوكت يشغل وظيفة مذيع فى الإذاعة العربية بباريس، وكان من زملائه وأصدقائه فى الإذاعة ، الرسام والأديب الراحل « رمسيس يونان » ، وكان منهم الممثل الكبير « محمود مرسى » ، وشاب لبنانى أصبح فيما بعد صاحب دار نشر كبرى هو الاستاذ « أحمد عويدات » ... كان شوكت على خلاف مع الحكومة فى مصر، ولكن ... عندما طلبت منه الإذاعة الفرنسية أن يقرأ تعليقاً ضد مصر... رفض!

ففى يوم ٩ أبريل عام ١٩٥٦ ، كتب الرئيس الراحل أنور السادات ، وكان وقتها رئيسا لمجلس إدارة دار التحرير، مقالاً فى جريدة الجمهورية عن المشكلة الفلسطينية ، وأرادت الإذاعة الفرنسية أن تذيع رداً على ما كتبه السادات ، كان الرد لصالح إسرائيل ، وكان المذيع المنوط به إذاعة هذا التعليق ، هو محمود شوكت الذى رفض، وقاد حملة الرفض التى شملت كل المذيعين العرب، ففصلته الإذاعة الفرنسية !

الوطنية عنده ليست لفظاً ولا خلافاً أو اتفاقاً ... إنها موقف !!

ولقد اشتهر هذا الشاب صاحب الملامح التركية ، والقامة الفارهة ، والصوت العريض، والأسلوب المتدفق فى الحديث، اشتهر فيما بعد بين زملائه فى جهاز

المخابرات المصرى بجرأته الشديدة ، وثبات أعصابه ، وأسلوب حياته الأرستقراطى ، فأطلقوا عليه لقب « الباشا » !!

... ...

... ...

كان الباشا الآن يقود سيارته الأمريكية الفاخرة فى شوارع القاهرة ، لم يكن يعلم شيئا عن الموضوع الذى من أجله تحدث إليه طاهر رسمى فى هذا الوقت من الصباح ، الساعة تدب نحو الثامنة ، وشوارع القاهرة تشغى كخلية نحل... منذ أسابيع وأنفه تتشمم تلك الرائحة النفاذة لإحدى العمليات الخطيرة ، يقينه الذى راهن عليه نفسه إن للعملية علاقة بأفريقيا ... ولكن ...

ما الذى يفعله طاهر رسمى الآن فى أفريقيا ؟!

وما الذى يريده منه بالتحديد ؟!

قال طاهر رسمى وهو يومئ نحو حقيبتين فى ركن الغرفة :

« عاوزك تسافر بالشنطتين دول ! »

التفت شوكت نحو الحقيبتين، صمت لثوان ثم سأل بلهجة خبير:

« وزنهم قد إية ؟! »

« ثمانين كيلو! »

« فيهم ايه ؟! »

« ديناميت !! »

ران على جو الغرفة سكون عميق وموحش، خطا محمود شوكت فى بطء نحو الحقيبتين. انحنى على أولاهما وحملها ، ثم أعادها ، حمل الأخرى ، ثم أعادها ...

أطرق مفكراً، عاد إلى مكانه، وقف فى مواجهة طاهر، أخرج صندوق سجائره، دس سيجارة بين شفتيه، لكنه قال قبل أن يشعلها :

« حايكلفوك كتير ياطاهر! »

وتنفس طاهر الصعداء!!

ابتسم فى سعادة كما ابتسم عزت بلال وهو يهتف فى حماس :

« تشرب قهوة ؟ »

صاح فيه شوكت :

« تركى !! »

فلقد كان معروفاً عنه انه يكره القهوة الفرنسية كراهية شديدة!

... ...

... ...

ولا أحد يستطيع أن يعرف الطريق الذى سلكه محمود شوكت من القاهرة إلى دكار، فلقد كانت كل مطارات أوربا بلا استثناء، مناطق شديدة الحساسية فى تلك الأيام التى كانت أخبار اختطاف الطائرات بل تدميرها بواسطة الفلسطينيين، أخباراً تكاد أن تكون يومية... وقبل هذا اليوم، بثلاثة أيام، كانت وكالات الأنباء وصحف العالم كله تتحدث عن تلك العملية الشديدة الجرأة، التى قام بها الفلسطينيون عندما فجروا إحدى طائرات «سويس اير» المتجهة من جنيف إلى تل أبيب، حاملة وفداً إسرائيليا مات أفراده جميعا فى الحادث!!

كان المرور من مطارات أوربا ــ لأى عربى ــ أمراً بالغ الصعوبة!

وكان المرور منها، بحقيبتين مليئتين بالمتفجرات، أمراً بالغ الاستحالة!

ثم ... لم يكن أمام شوكت سوى الطيران، فليس هناك وقت، كان عليه أن يكون فى دكار خلال ثمان وأربعين ساعة!

ومهما كان الأمر، فهو أمر بالغ الصعوبة أن يعرف أحد تفاصيل الخطة التى وضعها طاهر رسمي والتى لابد أن محمود شوكت قد ناقشها معه أو عدل فيها أو قبلها... لا أحد يعرف سوى أن العاصمة السنغالية، بعد ست وثلاثين ساعة، شهدت رجل الأعمال التركى «عصمت كارجى»، مع صديقته الفرنسية «ليليان»، أو «ليلى» كما كان عصمت يناديها بصوته العالى... وكان ينزل فى واحد من أفخر الفنادق، ويحجز جناحاً، وينفق فى بذخ، ويصادق الرجال بسهولة بالغة، ويحمل فى حقيبة أوراقه مشروعات اقتصادية وتجارية هامة!

كان عصمت كارجى هذا، هو محمود شوكت بعينه، ولقد اتسمت رحلته برغم تعقد مسالكها ودروبها باليسر والسهولة، لكنه لم يكن يعلم، أن وصوله إلى دكار، كان إيذانا ببدء المعركة!

• • •

صاح المخرج مدحت صبرى من خلف الكاميرا :

« استوب ! »

وتوقف التصوير، وانتهى المشهد الذى كانت تمثله «دلال شوقى» التى التفتت نحو المخرج متسائله :

« إيه النظام ؟! »

قال مدحت :

« انتى حاسة بإيه ؟ »

« مش عارفة ! »

ابتسم وهو يلتفت إلى مساعدة المخرج « سعاد الحكيم » قائلا:

« اطبعى ياسعاد ! »

كان هذا إيذانا بأن المشهد على ما يرام، لكن دلال كانت لا تزال واقفة فى مكانها وهى ترقب هذا الرجل المحير... انشغل الجميع فى الإعداد للمشاهد التالية، تعالت الصيحات هنا وهناك، ونشطت الحركة فى تلك البقعة من الغابة التى وقع الاختيار عليها لتصوير بعض المشاهد الخارجية للفيلم، واستغرق مدحت فى الإعداد للمشهد التالى... فلم تجد دلال أمامها سوى أن تسعى بين الأشجار وقد استغرقت فى التفكير!

كانت تشعر أن الحياة فى الغابة خلال اليومين الماضيين — برغم الحرارة الشديدة — قد أكسبتها إحساساً دافئاً بالحياة، لكنها — كلما مرت الساعات — كانت تشعر بالحيرة تطبق عليها من كل ناحية.

وقبل أن تصل دلال شوقى إلى نيجيريا، عرفت حل اللغز الذى حيرها فى القاهرة... عرفت من أين جاء عزوز جابر بالمال اللازم لتمويل هذا الفيلم... ولقد كانت تظن أن حل هذا اللغز سوف يلقى الضوء على جزء كبير من المشهد الغامض الذى كان عليها أن تؤديه، لكن المشكلة، أنها عندما عرفت الحل، وجدت نفسها أمام لغز أكبر!

كان السكون يطبق عليها وهى تسعى بين الأشجار مبتعدة عن مكان التصوير... وفى البداية، فلقد أحست دلال، أن مدحت صبرى هذا لا يمكن

إلا أن يكون ضابطاً بالمخابرات، وطدت نفسها منذ أن وافقت فريد ذهنى على هذا... وكانت تعلم يقيناً أن هذا الفيلم ليس سوى ستار لشىء آخر، فما هو هذا الشىء؟!... حدثها فريد عن حفار اسمه «كينتنج» لكنها تعيش منذ وصولها بعيداً عن الشاطئ والبحر بما يزيد على المائة كيلو متر، فأين إذن هذا الحفار؟!... وكيف يصلون إليه وماهى علاقتهم به ؟!

الغريب فى الأمر، أنها عندما سألت عزوز من أين جاء بالمال، وجدته ينفجر وكأنه يريد أن ينفس عما فى صدره، اندفع يقص عليها ما حدث فى حرارة وتدفق ودون توقف!!

كان هذا فى الطائرة التى أقلت البعثة من الخرطوم إلى لاجوس، جاء عزوز من مقعده كى يجلس إلى جوارها، نظرت إليه باسمة فانفرجت أساريره، فجأة سألته ودون تدبير:

« جبت فلوس الفيلم منين ياعزوز؟! »

بدا عزوز لأول وهلة وكأنه أخذ بالسؤال، لكنه ابتسم قائلا :

« أنا كنت مستنى انك تسألينى السؤال ده فى مصر مش هنا !! »

وقبل أن تنطق ... اندفع هو يحكى!

... ...

... ...

دعى عزوز جابر ذات ليلة للعشاء عند عائلة من العائلات الصديقة لا علاقة لها بالفن... كان وقتها يعانى من تلك الأزمة المالية الشديدة عقب عرض فيلمه الأخير، وهناك التقى بشاب ملون العينين أشقر الشعر مهذب الحديث ذا لكنة

تشير إلى أنه قضى سنوات طويلة بعيداً عن مصر... قدمته صاحبة الدعوة لعزوز على أنه ابن خالتها، وأنه مخرج شاب عائد من الولايات المتحدة وفى ذهنه خطط شتى لأفلام جيدة!!

فى البداية، عزف عزوز عن مدحت صبرى، كان يعرف هذا النوع من المخرجين الذين يعودون من بعثاتهم بحثا عن فرصة، يلوون ألسنتهم ببعض المصطلحات الأجنبية ورءوسهم خاوية إلا من أفكار تنفجر فى الهواء كصواريخ الزينة... ومن كان منهم مخرجاً بحق، فهو مكلف، ينفق الألوف ليجنى المنتج من ورائه القروش... وسواء أكان الأمر هذا أم ذاك، فلم يكن عزوز على استعداد لدخول مغامرة، بل إنه ــ أساسا ــ لم يكن على استعداد لمناقشة أى شىء عن السينما مع مبتدئ حتى ولو كان عبقرياً... لكن الغريب فى الأمر، أن مدحت صبرى هو الآخر، عزف عن عزوز، بل أمعن فى العزوف والابتعاد، ومضت السهرة فى يسر وبساطة، بدا مدحت منذ الوهلة الأولى، من هذا النوع المهذب من الرجال الذين يحترمون أنفسهم ويثقون فيها... ولكن، وقبل أن تنتهى الليلة، وجد عزوز أنه من اللائق أن يثير مع المخرج الوافد، حديثا عن السينما، لا لسبب، إلا لمجاملة مضيفته!... فجاءته المفاجأة كالصاعقة!

ما كاد يبدأ الحوار حتى وجد نفسه أمام شاب يعرف أسرار الصناعة معرفة كاملة، ولكن الذى ألهب خياله حقاً، وجعل السهرة تمتد حتى مطلع النهار، أنه اكتشف أن مدحت لا يبحث عن منتج، فلقد كان يملك من المال ما يكفى لإنتاج الأفلام التى يريدها!!

«وبصراحة يامدام، لقيتها فرصة... قلت أشوف ميته إيه؟!»

١٢

ووجد عزوز فى مدحت فرصة أرسلتها السماء إليه، وإذا كان قد توقف منذ شهرين عن دفع مرتبات موظفى مكتبه، فلقد كان مدحت يبحث عن مكتب يدير منه أعماله حتى يعثر على مكتب مناسب... وهنا، تشبث عزوز بالفرصة بمخالبه، ووضع مكتبه، بل وخبرة موظفيه، تحت أمر مدحت صبرى!

ثم تطور الأمر فى لقاء آخر تم بينهما، فى اليوم التالى مباشرة، فى مكتب عزوز الكائن بإحدى عمارات وسط المدينة، تطور عندما عرض مدحت على عزوز نسبة من الأرباح نظير استخدام المكتب بموظفيه، واستخدام اسم الشركة وصاحبها وخبرته فى السوق المحلية... وكانت النسبة التى عرضها مدحت، هى خمسون فى المائة من الأرباح!!!

قال عزوز لدلال وهما فى الطائرة:

« لقيت نفسى قدام ثعلب مش مخرج »

وكان عزوز على حق، فن أين له أن يضمن نجاح الفيلم، ومن أين له أن يضمن أرباحاً... وهكذا سأل مدحت صبرى الذى قال فى هدوء:

« هو فيه فيلم بيخسر ياأستاذ عزوز؟! »

هم عزوز بالرد عندما استطرد مدحت بنفس الهدوء:

« الفيلم الأخير بتاعك سقط إنما ماخسرش! »

كان واضحاً أن مدحت ليس هيناً، وكان واضحاً أنه يفهم الحركة الأقتصادية للسينما المصرية فهماً كاملاً، وقبل أن ينصرف مدحت فى تلك الليلة،

ثم الاتفاق بينهما، وتسلم عزوز شيكاً بمبلغ عشرة آلاف جنيه مصرى للتحضير للفيلم الجديد !!

استمعت دلال إلى ما قاله عزوز وقد أدركت أن اللغز يزداد تعقيداً، ليس لأنها تشك أن مدحت رجل من رجال المخابرات المصرية، ولكن لأنها — هى أيضاً — أدركت منذ لقائها الأول مع مدحت، ومناقشتها معه فى السيناريو، أنه يفهم عمله جيداً... و... وليس لهذا فقط أدركت دلال أنها أمام لغز محير، ولكن أيضاً... لأنها راحت تفكر: أى حفار هذا الذى تنفق مصر كل هذه الأموال كى تدمره ؟!

« أقولك ولا تقوليش لحد ؟ »

هكذا جاءها صوت عزوز وكأنه رد على تساؤلها، التفتت نحوه دون أن تنطق، قال :

« الفيلم اتباع بره بتلتين ميزانيته !! »

بدت عليها الدهشة، فهز عزوز رأسه مستطرداً :

« ماتخافيش يا مدام، مدحت فاهم شغله كويس ! »

وإذا كان الفيلم قد بيع للتوزيع الخارجى بثلثى ميزانيته، فإن الثلث الباقى هين، بل إن الربح أصبح مضموناً حتى ولو فشل الفيلم... ولهذا كان حماس عزوز الشديد !!

....

....

وها هى قد دخلت التجربة، وها هى — يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، بل شهراً أثر شهر — تتأكد أن مدحت صبرى مخرج... كان يدير العمل بكفاءة من وقف خلف الكاميرات لسنوات، كان يناقش مدير التصوير والمشاهد والإضاءة والمكياج والملابس ويتحدث عن الموسيقى التصويرية وكأنه يشاهد الفيلم أمامه على الشاشة... فكيف ؟!... كيف ؟!

وإذا كان مخرجاً، فأين كان، ومن أين جاء ؟!

وإذا لم يكن فمن يكون ؟!

« وصلتى لحد فين ؟! »

جاءها صوته وسط السكون المطبق على الغابة فانتفضت، استدارت وكان مدحت صبرى يقف بعيداً عنها بقامته المديدة وابتسامته الواثقة.. كانت قد توغلت بين الأشجار حتى اختفى ضوء النهار إلا من أسلاك لأشعة الشمس كانت تنفذ من بين الفروع والأوراق الكثيفة، أسلاك ذهبية تنفذ من السماء إلى الأرض لتصنع من حولها جواً أسطورياً... تقدم منها خطوات وهو يسأل :

« بتفكرى فى ايه ؟! »

« فيك !! »

قالتها فى حرارة كانت تعلم أنها تربك أشد الرجال ثباتاً، لكنه لم يهتز، توقف، تماوجت ابتسامته على شفتيه معلنة عن خجل غير مصطنع، عاد يسأل :

« ازاى ؟! »

« غريبة انك طلعت مخرج !!! »

هتف فى دهشة وحرارة :

« أمال كنت عاوزانى أطلع إيه ؟! »

وارتبكت... أدركت أنها أخطأت وأن خطأها قد يكون جسيماً، أقسم لها فريد ذهنى أن أحداً من العاملين فى الفيلم لا يعرف شيئاً عن الموضوع... ثم، ما هذا الارتباك الذى يسرى فى أوصالها فكأنها عادت إلى الخامسة عشرة من جديد. عيناه الملونتان تبعثان بالدفء إلى الدنيا من حولها، كم من مرة أرادت أن تسأله عن لون عينيه، ولكن... طال الصمت وعليها أن تبدده وإلا تبددت هى، عليها أن تهرب،اندفعت فى طريق العودة وهى تهتف:

« أصل الشغل اللى احنا... ... ... »

أمسكها من ذراعها فانصاعت، توقفت فى استجابة لم تردها:

« الشغل ماله ؟! »

رفعت إليه عينين متوسلتين وجاء صوتها مبدداً:

« أصل أنا حاسه أنى ممكن أديك أحسن من كده بكتير! »

واكتشفت أن جملتها قد اندفعت من أعماقها دون قصد، وهى تحمل الكثير من المعانى، أحست بوجهها يتضرج بالدماء ويلتهب بحرارة طال البعد عن مذاقها، نزعت ذراعها من قبضته وهرولت بين الأشجار وهى تقول:

« يا الله بينا زمان المشهد جاهز! »

• • •

أخيراً وصلت رسالة فرناندو بالديرا إلى طاهر رسمى، وكانت رسالة مفزعة! كانت كنز يثير عشرات الأسئلة، وعشرات الشكوك، والكثير من الحذر والحيرة!

أمسك طاهر بصورة فتاة تجلس فى مطعم لفندق متواضع، قدمها إلى عزت بلال متسائلا:

« تعرف دى مين ؟! »

أمسك عزت بالصورة، وما إن وقع بصره عليها حتى هتف فى دهشة:

« دى سارة جولد شتاين ! »

قفز طاهر من مكانه وراح يضرب فى الغرفة على غير هدى وهو يقول:

« دى كانت فى الازورس، كانت فى انتظار الحفار فى بونتا دلجادا ! »

«ومين اللى أخذ لها الصورة دى ؟! »

« فرناندو ! »

« يانهار اسود !!! »

لم يكن طبيعيا أو منطقيا أن ينطق ضابط مخابرات بمثل هذا التعبير الشائع فى مصر، خاصة إذا كان فى مثل خبرة عزت بلال ومكانته... لكن الرجل أدرك، بمجرد أن وقعت عيناه على الصورة، أن المباراة حول الحفار كينتنج تدخل فى دور الخشونة، والضرب تحت الحزام!

سارة جولدشتاين.

اسمها الحقيقى «ليلى مسعود»،ولدت فى اليوم التاسع من مارس عام ١٩٣٦ فى حارة زاوية الأعرج المتفرعة من حارة اليهود المتفرعة من شارع الميدان بالإسكندرية، رحلت عن مصر فى عام ١٩٥٣ وهى فى السابعة عشرة من عمرها بصحبة أمها وشقيقة صغيرة وشقيق أكبر منها هو زكى مسعود الذى عرف فيما بعد باسم «إيزاك ليفى» المتخصص فى اصطياد الشباب العربى فى أوربا وتجنيده لحساب المخابرات الإسرائيلية... أما سارة، أو ليلى مسعود، فلا أحد يعرف على

وجه التدقيق متى انضمت إلى جهاز الخدمة السرية فى « الموساد » ، ولقد استطاعت أن تدخل مصر عدة مرات ، مرة بجواز سفر أمريكى ، ومرات أخرى بجواز سفر فرنسى ... تحمل عداء خاصاً وشديداً للمصريين ، يرجع أن سببه تجربة عاطفية فى فجر صباها وشبابها ... تزوجت مرتين ، مات زوجها الأول ، وكان طيارا ، عندما سقطت طائرته على الجبهة المصرية فى أثناء عدوان عام ١٩٥٦ ، وغرق الثانى — الذى كان ضابطاً بحرياً — مع السفينة الحربية الإسرائيلية « إيلات » أمام شواطئ بورسعيد بطوربيد مصرى بعد معركة عام ١٩٦٧ .. شديدة الذكاء ، ذات قدرة خاصة على التخفى ، تجيد ست لغات ، تبدو دائماً أصغر من سنها بعشر سنوات على الأقل ، لا تظهر إلا فى الأوقات التى تستلزم جرأة فائقة ، ويصاحب ظهورها دائماً عمليات عنف غير متوقع !

بداية ...

كان المطلوب من فرناندو بالديرا أن ينتظر وصول الحفار إلى بونتادلجادا ، حتى إذا ظهر أرسل برقية ، ثم ينتظر رحيله ، حتى إذا أبحر ، أرسل برقية أخرى ... فقط ، لاشىء غير هذا !

لكن الرسالة التى وصلت من لشبونة إلى القاهرة ، فلقد كانت عملاً متكاملاً ، كانت هناك صور عديدة للحفار فى ميناء بونتا دلجادا ، صور تضيف إلى تلك الصور التى أرسلها « موريس » من كندا معلومات — إن صدقت — شديدة الأهمية ، كانت الصور توضح أسلوب الحراسة على الرصيف ، وأسلوب الحراسة فى المياه المحيطة به ...

ليس هذا فقط .

إن تكبير بعض الصور ، كفيل بأن يعطى المصريين صوراً واضحة لبعض رجال الأمن ، بل ، لبعض رجال المخابرات الإسرائيلية المعروفة وجوههم — وربما أساليبهم — للمصريين .

لم يقتصر الأمر على هذا .

تحدثت الرسالة عن فتاة أمريكية اسمها « باربرا هوفمان » وصلت الى جزيرة سان ميجيل فى ظروف غريبة لتدرس طبيعة الأرض البركانية للجزيرة ، ثم رحلت فى ظروف أغرب ، ولم تكن « باربرا هوفمان » هذه سوى « سارة جولدشتاين » أو « ليلى مسعود » !

كانت الأسئلة التى طرحت نفسها على الرجال تحمل شحنات متفجرة من القلق .

فلماذا — أولاً — عرض فرناندو مهمته كلها للخطر بالتقاطه هذه الصور — برغم فائدتها العظيمة — دون أن يكون مكلفاً بذلك !

ثم : هل كان الأمر ميسوراً له إلى هذا الحد ؟!

وألا تتناقض هذه السهولة مع عنف الحراسة البادية فى الصور ؟!

وماذا إذا كان الأمر مدبراً ، وبوضوح ، ماذا إذا كان فرناندو أصبح يلعب لعبة العميل المزدوج ، وأن هذه الصور مدسوسة من المخابرات الإسرائيلية لخداع المصريين ؟!

لو صح هذا كله ، وحتى لو صح جزء منه ، فلابد أن الإسرائيليين قد شعروا بما يفعله المصريون !!

ألا يستقيم هذا المنطق مع ما جاء من ليز ونورمان فى جزر كنارى وعلى

السفينة السويدية وفى دكار أيضاً ؟!...

كان طاهر وعزت غارقين فى المناقشة عندما دخل نديم هاشم، الذى ما إن علم بأمر الصور، حتى انقض عليها انقضاض الجائع، أخذها وانتحى جانباً وراح يتفحصها ويدرسها... وبدا بعد لحظات وكأنه غاب عن الوعى وهو يتفحص كل صورة على حدة بإمعان شديد... هذه الصور، هو وحده الذى يستطيع أن يقدر، سواء الآن، أو فيما بعد فى أثناء المعركة، إن كانت تحمل معلومات صحيحة أم لا ؟!!

أعاد طاهر وعزت قراءة رسالة فرناندو مرة ومرة ومرات، كانت تحكى ما حدث، كيف التقى بباربرا هوفمان، وكيف وصلت، وكيف ثار شكه من حولها ولماذا، وكيف التقط الصور ...و...و...

وكانت كل كلمة من كلمات الرسالة تحمل معياراً للصدق ومعياراً للكذب، وكل جملة أو معلومة تحمل سهماً يشير إلى الحقيقة أو التلفيق ...و...

واستغرق الأمر منهما وقتاً لا يدريان إن كان قد طال أم قصر، كما استغرق تفحص الصور من نديم وقتا كاد يطول لولا أن دق جرس التليفون، رفع طاهر السماعة:

« أيوه !! »

انصت لثوان ثم هتف:

« هاتهالى فوراً ! »

أعاد السماعة وهو يقول:

« رسالة من دكار! »

بعد دقيقة وبضع ثوان سمع دقاً على الباب:

« ادخل ! »

دخل رجل يحمل الرسالة الشفرية، سلمها لطاهر فى صمت ومضى، غادر الرجل الغرفة ففتح طاهر البرقية، لم يكن الآن فى حاجة إلى مفتاح للشفرة، كان قد حفظه عن ظهر قلب، ولذلك، فما إن ألقى نظرة على البرقية حتى شعر الرجلان أن شيئاً هائلاً قد حدث، قال عزت:

« إيه الحكاية ؟! »

فرد طاهر:

« الحفار دخل دكار! »

٧ ـ الفصل السابع

الصدفه الذهبيــــه ٠

سمعت نقطة مَيّة جُوّه المحيط
بتقول لنقطة ما تنزليش فى الغويط.
أخاف عليكى من الغرق... قلت أنا:
ده اللى يخاف من الوعد يبقى عبيط!
عجبى
رباعية: لصلاح چاهين

□ وكأن أبواب العقول تتفتح عن كنوز لا يدرى أصحابها عنها شيئا، تحول الفرسان الثلاثة إلى كائنات شديدة الدقة فى الحركة والتصرف والتفكير وكأنهم أصبحوا جزءا من كل هائل راح يهدر نحو هدف بعينه ... لم يكن أحدهم قد عرف للنوم طعما طيلة الليلة التى مضت، لكنهم جميعا كانوا يشعرون فى تلك اللحظات التى أصبح الحفار فيها فى متناول اليد أنهم ناموا لسنوات طويلة، أستعدادا ليقظة لا تعرف الغفلة !!

كانت صورة «سارة جولدشتاين» أو «ليلى مسعود» أو «باربرا هوفمان» أو أيا ما كان الاسم الذى تتسمى به هذه الفتاة الشديدة الخطر. قد وضعتهم أمام خيارين لا ثالث لهما:

إما مواجهة العنف بعنف مماثل

وإما السعى إلى النصر بلعب نظيف. دون اللجوء الى الضرب تحت الحزام

وإذا كان ظهور «سارة جولدشتاين» على مسرح الأحداث فى جزيرة سان ميجيل، قد واكب ظهور البروفسور «إيزاك ديستان» فى جزر كنارى — وكان الرجال قد رجحوا أن يكون هو نفسه ضابط المخابرات الإسرائيلى البولندى الاصل «دافيد ليفنجر» الذى تخصص فى أعمال الخطف — فإن معنى هذا أن الإسرائيليين لا يفرضون على الحفار حراسة مشددة ورهيبة فقط، وإنما يحيطونه بمخالب تمشط كل الشكوك التى قد تحيط بالحقل الذى يتحرك فيه الحفار!

ولو فرض انهم لا يعلمون شيئاً عن حزكة المصريين بعد، إلا أنهم بالقطع قد وضعوا هذه الحركة فى الاعتبار، وأصحبوا يتصرفون كما لو أنها موجودة حتى لو لم تكن كذلك، وكانوا على استعداد لاستعمال أقصى وسائل العنف، وأشد وسائل الخشونة شراسة.

وللعنف والخشونة أساليب يعرفها الرجال ويتقنونها. كما يعرفون أساليب هذه النماذج من رجال «الموساد». وكم خبروا ألاعيبهم فى جولات شملت ساحات العالم شرقا وغربا. وإذا كان الأمر يستلزم تقليم هذه المخالب، والتعامل مع تلك النوعية من البشر ... فهل يواجهون العنف بعنف مماثل، والخشونة بخشونة أشد ضراوة ؟!

طرح السؤال نفسه على الرجال الثلاثة، لكن سؤالا آخر فرض نفسه فرضا. هل يستطيعون تحقيق الهدف بلا خشونة، وبلعب نظيف لا يضربون فيه تحت الحزام ؟!

كان هناك اعتبار لابد من وضعه فى الحسبان: إن أرض الملعب تقع فى دول صديقة، أو دول نسعى إلى توطيد علاقاتنا بها، لأنها فى البداية والنهاية أرض أفريقية، والأفارقة منا ونحن منهم، يربطنا بهم مصير واحد، وهدف واحد. حتى ولو اختلف البعض منهم معنا.

وهكذا لم يأخذ الأمر من الرجال الثلاثة طويلا، فلقد أجمعوا على أن اللعب النظيف — فى الظروف المحيطة بالمباراة — أجدى ... وجدوا أنه من الأوفق ألا يشعر الإسرائيليون بأى رد فعل مهما كانت خشونتهم ... وجدوا أن هذا وحده. كفيل بأن يبعث بالأطمئنان إلى نفوسهم. سوف يطمئنون إلى أن المصريين ليسوا

فى الساحة، وهكذا يستطيع المصريين أن يضربوا ضربتهم وهم — أيضا — مطمئنون !!

استقر الأمر بالرجال فاندفعوا إلى العمل بسرعة، راح كل منهم يصنع شيئا: يجرى مكالمة، يختبر حقيبة، أو إحدى المعدات، يبحث فى دليل عن اسم أو عنوان. يعكف على خريطة أو رسم هندسى، وفجأة، سأل طاهر:

« هو النهارده إيه فى الأيام ؟! »

« أول أيام العيد ! »

قالها نديم بسرعة من يقرر حقيقة لا تبعث على دهشة أو توقف ... كان — هو نفسه — قد انتبه إلى هذه الحقيقة فى مساء الليلة السابقة، عندما كان مع رجال الضفادع البشرية فى مكمنهم السرى فوق جبل المقطم، قضى معهم ساعات لا يدرى عددها ينادى كلا منهم باسمه الجديد، ويحدثه عن حياته الجديدة ومسقط رأسه الجديد ...راح يختبر قوة أعصابهم ومقدار انتباههم، أخذ يتحدث معهم جميعاً حديث من نسى أصلهم وفصلهم، ولقد أصبح محرماً عليهم تماما — حتى فى غيابه وفى أثناء حياتهم اليومية العادية — أن ينادى أحدهم زميله باسمه الحقيقى، تمضى الساعات فإذا كل منهم قد أصبح شخصاً آخر ... كان الرجال يعلمون أن العد التنازلى قد بدأ، وكانوا على استعداد فى أية لحظة، ليلا أو نهاراً، أن يأتى من يقول لهم: «يالله بينا يارجالة !»، ثم يصحبهم إلى حيث لا يعرفون، ليقوموا بمهمة لا يعلمون عنها شيئا حتى الآن !!

فى الليلة الماضية، وعندما هم نديم بمغادرتهم قبل انتصاف الليل بقليل.

ألقى عليهم هذا السؤال التقليدى :

« مش عاوزين حاجة ياأولاد ؟! »

هتف المتدين والقرش فى وقت واحد :

« عاوزين نفطر فته ولحمه ! »

« اشمعنى ؟! »

قالها ضاحكاً فردوا عليه جميعاً : « كل سنة وانت طيب ! »

وساد الصمت ، فلقد انتبه نديم ، وكان قد نسى فى غمرة ما كان يقوم به ، أن عيد الأضحى يقترب ، ولم يكن يعلم أن اليوم التالى هو أول أيامه ... وابتسم كمن يعتذر ، لا للرجال ، ولكن لأناس آخرين سوف يقضون أيام العيد وحدهم دون وجوده ... تمتم وهو يمد يده للرجال مصافحاً :

« كل سنة وانتم طيبين يارجاله ! »

تلك لحظات نادرة فى أعمار البشر ، عندما يلتحمون فى سبيل هدف واحد ، هدف يسمو على كل ما عداه . حتى ينسى الرجال من أجله كل شىء ولو كان ذواتهم وأنفسهم وزوجاتهم وأولادهم !

لكن الغريب أن نديم نسى الأمر بسرعة مدهشة ، نسيه وهو يهبط بسيارته طريق المقطم الملتوى ، عاد إلى استغراقه فى الخطة وترتيباتها وتوقعاته حيالها والاحتمالات المواتية والاحتمالات المضادة و... و... وهو عندما قال ما قال فى ذلك الوقت المبكر من الصباح فى غرفة طاهر رسمى المزدحمة بالأشياء والأفكار ، ساد الصمت تماماً وراح كل من الرجال الثلاثة يردد البصر بين زميليه ... فى تلك اللحظات دق الباب فهتف طاهر وكأنه وجد شماعة يعلق عليها الصمت

والفكر وما يجول فى الصدور إلى حين :

« الفطار ! »

ثم صاح متحركاً نحو الباب :

« ادخل »

وفتح الباب وتهادت بين يدى رجل كان يخطو إلى الداخل صينية هائلة ، تفوح منها رائحة الفتة والشواء ، والتفت طاهر نحو عزت الذى كان الآن يبتسم ، وقال :

« هو أنت مابتنساش حاجة أبداً ؟ »

وغمغم مخزن الأسرار والصمت المسمى بعزت بلال أو الكومبيوتر ، غمغم وهو يخلع نظارته الطبية :

« كل سنة والبلد بخير ! »

....

....

كان وقع الجملة رهيباً ، أحس نديم أن ثمة وخزاً فى قلبه ، واندفعت طبقة رقيقة من الدمع إلى عينى طاهر رسمى ، حاول كل منهم أن يخفى مشاعره فراح يتقدم من الصينية عندما دق جرس التليفون ، قال طاهر وهو يرفع السماعة :

« ده المدير ! »

وبالفعل ، ما كاد يضع السماعة على أذنه ، حتى جاءه صوت أمين هويدى من الطرف الآخر مختنقاً بالتهاب حاد فى الحلق ، وأنفلونزا عنيفة ألزمته الفراش تماماً :

« كل سنة وأنتم كلكم طيبين يا طاهر! »
وجاشت عواطف الدنيا من حولهم !!

....

....

كان هذا بالتحديد يوم الاثنين ١٦ فبراير (شباط) عام ١٩٧٠.

وعلى مائدة الإفطار الحافلة، تقرر أن تبدأ الحركة فوراً ودون انتظار... تقرر أولا أن يسافر نديم قلب الأسد فى فجر اليوم التالى ــ الثلاثاء ١٧ فبراير (شباط) ــ إلى دكار ... وأن يطير رجال الضفادع البشرية، على حسب الخطة الموضوعة، صباح الأربعاء ١٨ فبراير (شباط)، وأن يتم تدمير الحفار مع أول ضوء يوم الخميس ١٩ فبراير (شباط).

ليس هناك وقت للتفكير أو للتدبير، بل ... ليست هناك حاجة أصلاً لهذا أو ذاك، فلقد كان كل شيء جاهزاً ومعداً منذ أسابيع !

وإذا ما سافر نديم فى صباح الغد، فلسوف يصبح أمامه ٢٤ ساعة كاملة لتجهيز المسرح للأحداث القادمة ... لم تكن مهمته فى هذه الساعات الأربع والعشرين هينة، فلقد كان عليه أن يجرى اتصالات شديدة التعقيد مع كل الأطراف التى لا يعرف بعضها البعض فى دكار، كان عليه أن يدرس بدقة بالغة، مكان الحفار، على أى رصيف فى الميناء يقف، كيفية الوصول إليه، نقطة الوثوب، الطريق إليها، المداخل والمخارج، المياه وطبيعتها وعمقها واحتمالات وجود أسماك متوحشة أو ضارة أو قاتلة فيها. الحراسة من حول الحفار، وأماكنه، وطبيعتها، والأساليب المتبعة فيها ... المسافة إلى الحفار من

نقطة الوثوب ذهاباً وإياباً، الوقت اللازم للتنفيذ، والوقت اللازم للانسحاب... الرجال ونقلهم وحمايتهم وملابسهم ومعداتهم واستقبالهم ووداعهم ...و ... و... وعشرات التفاصيل الكامنة فى أعماقه فى انتظار لحظة البدء.

كان نديم قلب الأسد يعلم أن الحمل كله الآن، قد وضع فوق كاهله، وأن المهمة محفوفة بمخاطر بلا حدود.. لكنه ــ بشكل ما ــ كان يعتمد على وجود الباشا هناك، ولقد كان الجميع موقنين أنه ــ أبداً ــ لن يكتفى بتوصيل المتفجرات إلى دكار، بل لابد أنه الآن قد عرف الكثير عن الحفار!

« ومش بعيد يكون زاره! »

قالها عزت بلال كنكتة، فانفجر لها طاهر ونديم ضاحكين!

....

....

كان الحديث عن الباشا مدخلا للحديث عن مسرح الأحداث هناك ... مالذى يجرى فيه؟... ماذا فعل الرجال؟ ... ثم ماذا عن ليزونورمان ؟!.

خبرة الرجال أنبأتهم بما سوف يقدم عليه البروفسور « إيزاك ديستان » أو « ديڤيد ليڤنجر » مع ليز ونورمان!

وبرغم أنه لم يكن هناك خوف على الشابين اللذين كانا من هذا النوع من الشباب الأوربى الذى يشعر بالعار لما يجرى على سطح الكرة الأرضية من أحداث، كانا فى الأصل عضوين فى الجيش الجمهورى الأيرلندى، برغم أن نورمان من مواليد إحدى مدن أسكتلندا، وكانت ليز من مقاطعة ويلز ... ولقد

كان طبيعيا أن يلتقيا ببعض الشباب العربى فى لندن ، والشباب تجمعه الرغبة فى التغيير، سنة الله ولا تبديل لسنة الله ، قرآ وناقشا ودرسا ثم زارا إسرائيل مرة ، وبعدها أصبحا مؤيدين عظيمين للقضية العربية ، واشتد إيمانهما بأنه قد آن الأوان لهذا العالم كى يقبل التغيير... وأن يحل العدل محل الظلم ، والحرية بدلا من الاستبداد ، وأن تعود الأرض لأصحابها ... ولذلك ، كان سهلاً أن يطلب أحدهم منهما خدمة بسيطة للقضية العربية ، كانت الخدمة هى السفر إلى دكار، ومراقبة حفار اسمه « كينتنج » ، وتجميع أى قدر من المعلومات عنه .

وإذا كان البروفسور « إيزاك ديستان » يفرض على الفتى والفتاة صداقة هى أقرب إلى الحصار، وإذا كان الشابان الإنجليزيان يشعران أنهما ــ منذ وصولهما إلى دكار ــ مراقبان ، فإن الاحتمالات المطروحة تصبح : إما أن ديفيد ليفنجر عرف أنهما من الجيش الجمهورى الأيرلندى ، وإما أنه قد اشتم بأنفه الحساس ، أنهما يعملان لحساب المخابرات المصرية ...

ومع وجود « ليلى مسعود » أو « سارة جولدشتاين » ، يصبح من المؤكد أن الفتى والفتاة سوف يتعرضان لشىء ما فى الساعات القادمة ، وأن ثمة حركة عنيفة سوف تشهدها دكار بين لحظة وأخرى .

وعلى الفور أرسلت برقية إلى دكار، تطلب من ليز ونورمان ألا يقتربا من الميناء ، وأن يقضيا أيامهما فى شهر عسل حقيقى بعيداً عن أى مكان يثير شبهات من أى نوع ... وأكثر من ذلك ، أن يستسلما لأى عرض يعرضه عليهما البروفسور « إيزاك ديستان ! »

غير أن نديم ، فى خضم المناقشات ، أثار نقطة هامة : فبعد أن انتهى الرجال

من طعامهم ، وتصاعدت الأبخرة من أكواب الشاى ، وسحب الدخان من اللفائف المشتعلة ، أمسك نديم بالصور التى وصلت من فرناندو بالديرا ... كانت الصور واضحة إلى حد يفضح تماماً أسلوب الإسرائيليين فى حراسة الحفار... فهل هذه الصور حقيقية ؟!

ثم : وحتى ولو كانت الإجابة بنعم . فكيف ؟... وما الذى حدث فى جزيرة سان ميجيل ؟... وكيف أقدم فرناندو على ما أقدم عليه دون استئذان ، ولماذا ؟! ... وبالذات ، وحتى تكتمل الصورة أمام عينى الرجل الذى كان يستعد للقفز على قاع الفريسة لتدميرها ، ماذا عن كل حركة وكل سكنة وكل تصرف قامت به سارة جولد شتاين فى بونتادلجادا ؟!

• • •

على بعد بضعة عشرة كيلو مترات من لشبونة ، تقوم مدينة صغيرة ، ربما يعتبرها البعض ضاحية بعيدة من ضواحى العاصمة البرتغالية اسمها « أشتوريل »

ولقد اشتهرت أشتوريل فى أوساط معينة من العالم ، هى أوساط المقامرين والباحثين عن الإثارة والمغامرة ، ذلك أنها تضم كازينو هائلا ، أقيم فيها على غرار كازينو مونت كارلو صاحب الشهرة العالمية ، وإذا كانت « اشتوريل » أقل شهرة من مونت كارلو فى إمارة موناكو، ولاس فيجاس فى جنوب ولاية نيفادا الأمريكية ، فإنها تتمتع فى عالم الميسر بسمعة ذات طابع خاص ، هو الهدوء ونظافة اللعب والمستوى الأرستقراطى العريق الذى ينتمى إليه روادها !

وقبل يومين أو ثلاثة على وجه التقريب ــ فتحديد التاريخ هنا أمر شديد

الصعوبة ــ كان فرناندو بالديرا يقود سيارته فى الطريق المؤدى إلى اشتوريل... فور وصوله من الازورس أجرى اتصالاً مع مراد، فطلب منه مراد أن يلتقى به فى مساء نفس اليوم حيث تعودا أن يلتقيا... وإذا كان مراد متلهفاً للقاء فرناندو، فإن فرناندو فى واقع الأمر كان أكثر تلهفاً للقاء مراد!!

فى جيبه فيلم كامل يحوى صوراً عديدة للحفار كينتنج، ومعلومات وفيرة عنه، وعما تزودت به القاطرة «چاكوب ڤان هيموكيراك» من وقود ومياه وأطعمة وفواكه... أتته المعلومات تسعى إليه، وقص عليه ضابط الشرطة «خوليو فارجاس» شقيق تريزا كل ماعرف عن الحفار فى الجزيرة... حكى له عن الرجال والحراسة، عن الدهشة التى اعترته هو شخصيا كما اعترت رجال الميناء للأسلوب الذى دخلت به القاطرة والحفار إلى بونتادلجادا... ذلك أن أحداً من الرجال لم يعرف عنها شيئا إلا قبيل وصولها بساعات معدودة... ثم تلك الطريقة الغريبة التى وصلت بها الطالبة الأمريكية «باربرا هوفمان» إلى الازورس، والطريقة الأغرب التى رحلت بها عنها!!

كان الوقت مساء والطريق إلى اشتوريل ضعيف الإضاءة، وحركة المرور تكاد تكون معدومة، مما ساعد فرناندو أن يستسلم لأفكاره، بل ربما... لذكرياته مع تريزا!

لم يعد لديه الآن أى قدر من الشك فى أنه أصبح يحبها، ظل يقاوم هذا الحب منذ أن عرفها، يخشى أن يستسلم لضعفه ويخبر مراد بما وصلت إليه عواطفه من تطورات حتى لا ينهره هذا كعادته ويؤنبه، ويذكره بزوجته التى شاركته

السراء والضراء، ويتحول إلى قسيس يلقى موعظة الأحد فى الكنيسة! ... وربما طلب منه ألا يذهب بعد ذلك إلى سان ميجيل...

وفى الحقيقة فإن فرناندو لا يدرى بالضبط مالذى حدث له فى تلك الأيام القليلة التى تحول فيها من إنسان إلى آخر... فبالرغم من أنه كان يتحرك بحساب، ويتحدث بحساب، ويصادق بحساب، فإن شيئاً ما، شيئا غريبا خرج على كل هذه الحسابات التى تدرب عليها طويلا حتى أصبحت جزءا من تكوينه، شيئا كسر كل الحسابات، حطمها... ليجد فرناندو نفسه غارقاً فى الحب إلى أذنيه... التهب الحب فجأة، ثم وكأنه بركان مخزون تحت قشرة رقيقة، انفجر!!

ومع إحساسه هذا الجديد بالحياة، لم يستطع أن يقاوم الشك الذى ملأه نحو تلك الطالبة الأمريكية «باربرا هوفمان»، ولقد قاوم الشك طويلا وهو يتذكر نصائح مراد وأوامره بألا يخرج عن المهمة التى توكل إليه مهما كانت المغريات، ومهما حدث، ومهما كانت المكاسب أيضاً... لكنه فى النهاية ــ ومع الشك المتزايد ــ أحس أنه مستفز، استفزه ذلك الصلف الممقوت الذى كانت تلك الفتاة تتعامل به مع الآخرين، فترك لشكوكه العنان، وراح يرقبها فى غدوها ورواحها... كان من عادته إذا ما انتهى من جولته فى مزرعة الأناناس فوق الجبل، وعاد إلى المدينة، أن يتسكع فى شوارعها ويتحدث إلى السكان الذين ارتبط بهم بصداقات كانوا يحرصون عليها... لكنه لاحظ شيئاً غريباً، استفز شكوكه أكثر. لاحظ أنه ــ أينما كان ــ كان يجد مس هوفمان هناك!!

وعندما رأته تريزا معها وفعلت مافعلته أدبرت الفتاة عنه، لكنها أقبلت من

ناحية أخرى، على ضابط الشرطة خوليو فارجاس الذى استخفه الفرح، وراح يثرثر معها ويجيب على كل أسئلتها بلا حرج ... وعندما سأل فرناندو شقيق حبيبته ذات مساء كان يتناول فيه العشاء الذى أعدته لها تريزا عن تلك الطالبة الأمريكية، زجرت تريزا مهددة إياه إن هو عاد إلى الحديث أو الجلوس معها، لكن خوليو الذى كان قد امتلأ بكئوس عديدة من ليكير الأناناس الفاخر، الذى أهداه له فرناندو، انطلق يحكى كل مادار بينه وبين تلك الفتاة الغريبة الأطوار، وأسئلتها التى لا تنتهى ... قال هذا ثم هتف:

« أنها تسأل عن كل شىء، وكل شخص، وتلح فى السؤال عن الغرباء! »

قال الضابط فارجاس هذا ثم تجشأ مستطرداً فى تساؤل:

« أى غرباء يأتون إلى بونتادلجادا؟! »

ليلتها أيقن فرناندو أن ثمة شيئاً وراء هذه الفتاة، ثم ازداد يقينه عندما عاد إلى غرفته ذات مساء ليجد أن هناك من عبث بمحتوياتها، ووصل إلى رقم حقيبته السرى وفتحها، وعبث بأوراقها!... فمن يكون هذا المتسلل سوى « باربراهوفمان »؟!

لقد علمه مراد الكثير من الأشياء المفيدة، علمه كيف «يؤمّن» حقيبة أوراقه وغرفته، وأن يعرف إن كانت هناك أيد قد عبثت بأشيائه ـــ مهما كانت هذه الأيدى مدربة ـــ أم لا ... كما علمه ألا يترك تلك الكاميرا الصغيرة الدقيقة التى أهداها له ذات يوم، والتى طلب منه ألا يستعملها إلا عند الضرورة القصوى ... وأن يحتفظ بها فى جيبه دائما إذا ما كان خارج لشبونة.

فى البداية، كانت هذه الأمور التى تعلمها من مراد، تشكل عليه عبئاً

سخيفاً، لكنها ـــ مع الوقت ـــ أصبحت أسلوباً فى حياته يتبعه فى كل مكان يذهب إليه، حتى فى بيته ومكتبه الكائن خلف مطعمه القائم على شاطئ نهر التاج فى لشبونة!

ذات مساء استخفه الحب واستفزته باربراهوفمان، فاتخذ قراراً بأن يلتقط لها صورة... لكن الفرصة لم تسنح له إلا فى ذلك اليوم الذى قرر فيه الخروج فى رحلة مع تريزا إلى بحيرة الألوان السبعة ... كان انتظاره للحفار « كينتنج » قد طال، ولم يكن هناك خبر فى الميناء عن وصول سفن أو حفارات ... هبط فى ذلك الصباح إلى بهو الفندق قبل وصول تريزا فى سيارة ميجيل العجوز، وما كاد يخطو إلى غرفة الطعام الصغيرة حتى ابتسم، كانت باربرا هناك، تتناول إفطارها، وقد دست وجهها فى كتاب راحت تلتهم سطوره فى نهم واضح!

كان يحمل على كتفه حقيبة صغيرة من حقائب الرحلات ـــ هاندباج ـــ قد امتلأت بما كان يحتاج إليه فى كل رحلة على قمة جبل تستغرق يوماً، طلب الإفطار فى صوت عال، سأل عن ميجيل العجوز وتساءل لم تأخر عن موعده، أوصى على البيض وطلب نوعاً معيناً من الجبن ... كان يصنع جلبة من يريد أن يلفت إليه الأنظار، وقد رفعت باربرا رأسها إليه فانتهز الفرصة وهز رأسه تحية، لكنها عادت إلى القراءة والطعام دون أن ترد تحيته ... وكان هذا بالضبط، ما يريده فرناندو بالديرا ... أخذ يخرج ما فى حقيبته من أغراض وكأنه يبحث عن شىء بعينه، امتلأت المائدة أمامه بكل ما كان فى الحقيبة، وصنعت ساتراً بينه وبين باربرا، ومن خلف الساتر، أخرج الكاميرا الصغيرة

الدقيقة من جيب سترته الداخلى، وراح يلتقط لباربرا مجموعة لابأس بها من الصور!

و ...

وعندما استيقظ فى صباح اليوم التالى وجد الحفار داخل الميناء، استخفه الفرح والمرح أكثر وراح ــ بعد أن تأكد أن باب غرفته مغلق تماماً، وأنه فى مأمن ــ يلتقط من نافذة غرفته صوراً للحفار... ولم يكن صعباً عليه بعد ذلك أن يصبح واحداً من مجموع السكان الذين وقفوا على الرصيف يتفرجون على الحفار، وأن يجد أماكن مناسبة لالتقاط عدد آخر من الصور للحفار!

كان ثمة ظاهرة أثارت لغطاً بين سكان الجزيرة، هى أن طاقم الحفار، وطاقم القاطرة من البحارة، لم يغادروهما إلى الجزيرة كما تعود البحارة أن يفعلوا فى كل الموانئ فى كل الدنيا، خاصة فى ميناء مثل بونتادلجادا، هؤلاء رجال قضوا فى المحيط قرابة عشرة أيام، ومازال أمامهم عدد آخر من الأيام يصارعون فيها أمواج المحيط فكيف لا يغادرون سفينتهم؟!... وعندما حاول سكان الجزيرة الاقتراب من الحفار والقاطرة لتسويق بضائعهم، منعهم الحراس الذين أحاطوا بهما فى غلظة واضحة!

فى الواحدة ظهراً اشتدت العاصفة واختفت الشمس خلف ركام ثقيل من السحب السوداء وبدأت السماء ترعد والموج يزمجر، وهبت الرياح شديدة البرودة من الشمال، وأخذت الأمواج تضرب حاجز الميناء وأحجار الرصيف فى عنف، فغادر أغلب السكان أماكنهم وعادوا إلى بيوتهم وقد أيقنوا أن الحفار والقاطرة لابد باقيان فى الميناء حتى تنجلى العاصفة ... لكنهما رحلا فى المساء!

ومن نافذة مكتب الضابط خوليو فارجاس، شاهد فرناندو رجال الميناء وهم يحذرون القبطان، «ڤان كيرك» من الإبحار، فارتفاع الموج فى المحيط مخيف، وسرعة الرياح بلغت درجة لا تستطيع القاطرة أو الحفار مقاومتها... لكن الرجل بدا قليل الحيلة، بادى الخوف!

وهكذا ظهر الحفار فجأة، ثم رحل وسط عاصفة مدمرة!

وهكذا ظهرت باربرا هوفمان فجأة، وبطريقة غريبة، ثم اختفت برحيل الحفار، فما هذا الحفار العجيب؟!

ما أهميته؟! ... وما الذى يحدث فوق سطح هذه الكرة الأرضية من عجائب؟!

....

....

وها هو الآن فى طريقه إلى مراد، يحمل كنزه الثمين فى جيبه وعقله، فيلما كاملا للحفار، وصوراً عديدة لباربرا هوفمان، وتقريراً مفصلا عن كل ما دار فى الجزيرة خلال ذلك اليوم العجيب!

وها هى أضواء اشتوريل تبدو فى الأفق ... وهو يعلم ماذا عليه أن يفعل ... كان عليه أن يدلف إلى الكازينو، وألا يقف عند مائدة بعينها طويلا، فهو لا يأتى إلى الكازينو بانتظام، ومعنى هذا أنه ليس محترفاً... عليه أن يجرب حظه فى الروليت والبكاراه والبلاك جاك، وألا يتحدث إلى مراد إذا ما رآه، وأن ينتظر إلى أن يعطيه هذا إشارة معينة، فيذهب إلى البار، ويطلب كأساً، ويجلس فى الصالون دقائق يتأكد خلالها أنه غير مراقب أو متبوع، ثم يتسلل إلى

حديقة خلفية بعد التأكد من أن أحداً لا يراقبه أو يتبعه، ويعبر الحديقة إلى حيث تقوم مجموعة من الأكواخ لنزلاء الفندق، ليدخل بعد ذلك كوخاً بعينه يتغير رقمه فى كل مرة على حسب معادلة حفظها فرناندو عن ظهر قلب!

عندما فتح باب الكوخ، وخطا فرناندو إلى الداخل، كان مراد فى انتظاره.

مضت دقائق تسلم فيها مراد الفيلم والتقرير المكتوب، حتى إذا ما سأله سؤالا، تدفق فى الحديث بإسهاب، كان يحمل فى جوانحه ذلك الإحساس الغامر بأنه أدى عملاً عظيماً، ظل يحكى ويحكى ويحكى حتى إذا انتهى ساد الصمت، راح يحملق فى وجه مراد الذى اكتسى بقناع لا ملامح له... طال الصمت فأحس فرناندو بالحرج، سأل مراد إن كان هناك شىء خطأ، فجاءة صوت مراد كحد السكين:

« لم فعلت كل هذا الذى فعلته ؟! »

ارتج فرناندو، لم يفهم ما الذى يقصده مراد بسؤاله، أصابه صوته الجاف بالارتباك، مضت ثوان قبل أن يقول متلعثما:

« ألم تطلب منى أن أترقب وصول الحفار؟! »

« فقط ! »

خرجت الكلمة من بين شفتى مراد فى زئير رصاصة تنطلق!

« إذا كان الحفار يعنيك فلقد ظننت ... ... »

« ألم أطلب منك ألا تظن شيئاً لم نتفق عليه ؟! »

« نعم ولكن ... ... »

« وأن ترسل برقية فور وصول الحفار؟ »

٢

« لم يكن هذا ممكنا ! »

« وألا تفعل شيئاً ليس مطلوبا منك ؟ »

« كانت شكوكى ... ... »

هدر مراد بصوت خفيض بدا لفرناندو كهزيم رعد بعيد:

« لتذهب شكوكك إلى الجحيم، كيف خالفت ما اتفقنا عليه ؟! »

وعبثا حاول فرناندو أن يدافع عن موقفه، كان مراد غاضباً وعنيفاً وحازماً... ظن فرناندو أنه يستحق مكافأة وإذا مكافأته مزيد من التأنيب!

فكر فرناندو لحظة أن ينسحب من اللعبة كلها، فجاءه صوت مراد خافتاً ذا جرس خاص:

« إن لم تكن خائفاً على نفسك، فنحن خائفون عليك! »

بدأت سحب الغضب تتبدد، واستطرد مراد فى حنان:

« إنك تعلم أنك لست صديقاً عادياً لنا... ولابد لك أن تعلم أيضاً أننا حريصون على حياتك وأمنك وسلامتك أكثر من حرصنا على مجموعة من المعلومات مهما كانت قيمتها ... إن تصرفاً كهذا كان كفيلاً بأن يوقعك فى ورطة لا يعلم إلا الله كيف نخرجك منها! »

كان لحديث مراد وقع السحر على فرناندو الذى راح يغمغم بأنه كان حسن النية، فابتسم مراد وهو يربت على كتفه قائلاً:

« هل نسيت المثل القائل بأن الطريق إلى الجحيم مفروش بالنوايا الحسنة ؟! »

ابتسم فرناندو وهم بالحديث، فضحك مراد مداعباً إياه:

« أم أن البرد فى الأزورس كان قارساً فأردت أن تذهب إلى الجحيم بحثاً عن الدفء ؟!! »

أقر فرناندو بخطئه ، فقدم له مراد سيجارة وهو يقول :

« والآن ... قص على ما حدث بالتفصيل ! »

هتف الرجل :

« ولكنى سردته عليك منذ دقائق ! »

اتسعت ابتسامة مراد ، فعاد فرناندو يهتف :

« ثم إنى كتبت كل شىء فى التقرير الذى سلمته لك ! »

« وهل يضيرك أن تقص علىّ ما حدث مرة أخرى ؟! »

هكذا قال مراد فى صوت ودود ، فنفذ صوته إلى إرادة فرناندو مباشرة ، فراح يقص ما حدث من جديد !!

....

....

تم الاتصال بمراد فى منتصف يوم الاثنين ١٦ فبراير عام ١٩٧٠ ، كانت وسيلة الاتصال غريبة ومضحكة فى نفس الوقت ، ولقد استغرق هذا الاتصال أكثر من عشر دقائق ، أكد فيها مراد ، بما لايقبل الشك ، أن فرناندو صادق فى كل ما قاله وكتبه فى التقرير ... وأن الصور بالتأكيد صحيحة !!

وكان هذا هو كل ما يتمناه نديم قلب الأسد ، فلقد أصبح الحفار الآن ، مثل كعكة طرية عليه أن يلتهمها فى شغف !

• • •

أخيراً تنفس رجل الأعمال التركى « عصمت كارجى » الصعداء !

تأخر وصول الحفار عن موعده الذى قدروه يومين كاملين بفعل العاصفة ... يومان مضيا على الباشا وكأنهما دهران ، فلقد ظن ذات لحظة قلق أن الحفار اختار لرسوه مكاناً آخر ... لم يكن يكف عن عقد الاجتماعات ، وإبرام الصفقات ، كان يعمل ليل نهار بطاقة تفوق طاقة من كان فى سنه ... وبرغم هذا ، فلقد عرف عنه كل الذين التقوا به فى دكار ، أو تعاملوا معه ، أنه رجل فوق ذكائه الشديد ، ونشاطه الغريب ، وخفة ظله ... يعشق الحياة إلى حد الجنون !

كانت مدموازيل « ليليان » صديقته جميلة جمالاً أخاذاً ، كانت مطيعة ومؤدبة ومدلهة فى حبه ، تتبعه متمسحة به كقطة أليفة ، وبرغم هذا كان دائم الجوع إلى الجنس الناعم اللطيف !... ووصل الأمر إلى حد أن تهامس موظفو الفندق الذى ينزل فيه ، أنه شوهد بصحبة فتاة فى لون الأبنوس ، وأهل السنغال مسلمون ، لا يعجبهم مثل تلك التصرفات خاصة إذا صدرت من مسلم مثلهم ، حتى ولو كان تركياً !!

لكنه من الواضح تماماً ، أن « عصمت كارجى » لم تكن تعنيه مثل هذه الأقاويل ، بل ــ وهذا مدهش ــ لاحظ بعض الأذكياء أن تلك الشائعات كانت تسعده !!

فى غضون الأيام التى قضاها الباشا فى دكار ، التقى بعدد لا بأس به من المسئولين فى الميناء ، كما التقى مع عدد آخر من متعهدى السفن ... كان العرض الذى جاء به « عصمت كارجى » مغرياً بحق ، فلقد قرر أن يفتتح خطاً ملاحياً جديداً فيما بين أزمير ودكار ... وبداية ، فإن الخط الملاحى سيتكون من سفينتين فقط

من سفنه العديدة التى تجوب بحار العالم، ولقد كان على استعداد لزيادة عدد السفن كلما ازدادت التسهيلات المقدمة إليه من السلطات والمتعهدين على السواء ... إن هناك أسواقاً تطلب أطناناً من الفول السودانى وحب العزيز — المحصول الرئيسى للسنغال — كما أن هناك عروضاً لشراء بضعة آلاف من الأطنان من زيت الفول الذى يستخرج من مصانع السنغال نفسها!

ولقد نجح «عصمت كارجى» فى إبرام عدد من الاتفاقات — التى نفذت بالفعل فيما بعد!!! — كما نجح فى اكتساب ثقة كل من التقى به... كان رجلا غريباً ساحر الابتسامة، لايستطيع أحد أن يقاوم سحر ابتسامته تلك، ولاضحكته الماجنة التى كان يطلقها إذا ما وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود، وكانت تلك الضحكة الغريبة تزيح كل عقبة... كانوا يرونه دائم السعادة، وكان الباشا يعيش قلقاً مدمراً!

مضغ الباشا قلقه فى صمت أياما وراء أيام، لكنه كوفئ على هذا القلق، بضربة حظ لا تحدث فى العمر سوى مرة واحدة!!

فلقد كان هو أول من علم بموعد وصول الحفار إلى دكار... ولابد من مصادفة تضفى على الأمر كله نوعاً من الغرابة، وتبقى للرجال ذكرى مع الأيام يبتسمون لها فى حنين... وهى مصادفة صنعت الكثير، فلولاها، لفوجئ الرجال بما لم يكن فى الحسبان!

كان «عصمت كارجى» فى مكتب أحد المسئولين عن الميناء، عندما تلقى هذا المسئول — الذى كان يتحدث الفرنسية، كما يتحدث بها الباشا، بطلاقة — مكالمة تليفونية تنبئه بأن قاطرة قادمة من بلجيكا اسمها «آلبى»، وأنها فى

طريقها إلى ميناء «أبيدجان» فى ساحل العاج، وتريد دخول الغاطس فى دكار — والغاطس هو المنطقة المحيطة بالميناء بعيداً عن الأرصفة، والتى يمكن للسفن أن تتوقف فيها لبعض الوقت، لتنتظر مكاناً يخلو لها على أحد الأرصفة، أو لتتزود بما تحتاج إليه من وقود ومياه لترحل بعدها مباشرة — وكان هذا بالضبط ماتبغيه القاطرة «آلبى»!

كان الحديث بين المسئول وبين «عصمت كارجى» قد وصل إلى نقطة حساسة عندما جاءت هذه المكالمة، ولم يكن لدى الرجل وقت يضيعه فى مثل هذه التفاصيل، فأعطى الإذن فوراً للقاطرة بالدخول!

ولفت نظر الباشا فى الأمر الذى بدا وكأنه لايعنيه فى كثير أو قليل، كلمة «قاطرة»، وحفر اسم «آلبى» فى رأسه... وبذلك الحس المرهف لضابط مخابرات ذى أنف شديد الحساسية، لعب الفأر فى عبه! ... ولذلك، فما إن وضع الموظف سماعة التليفون حتى وجد فى انتظاره سيجاراً فاخراً يقدمه له «عصمت كارجى»، ثم يشعله له بولاعة ذهبية غالية الثمن!!

لم يكن الموظف فى حاجة لأن يبدى إعجابه بالولاعة الذهبية، فقط راح يتحدث عن الشركات والقباطنة الذين لايتبعون الأصول العالمية فى المعاملات البحرية، وشجعه عصمت على الاستمرار فى الحديث، فاشتكى المسئول — مثلا — من أنهم تلقوا فجأة فى صباح ذلك اليوم، برقية من عرض المحيط، تنبئ عن وصول قاطرة هولندية اسمها ... ...

صمت الموظف وهو يقلب فى بعض الأوراق فوق مكتبه، وحبس الباشا أنفاسه، أخيراً قال الرجل:

« جاكوب ڤان هيموكيراك ! »

دق قلب الباشا فى عنف، لكنه لوى شفتيه فى لا مبالاة فاستطرد الرجل ناظراً إلى الورقة :

« وأنها تسحب حفاراً اسمه كينتنج وتطلب الإذن بالدخول الآن ! »

اضطجع المسئول فى مقعده، وجذب نفساً من السيجار الفاخر، واختطف نظرة من الولاعة الراقدة فيما بينه وبين الباشا وقال :

« ويصبح علينا فى بضع ساعات أن نجهز مكاناً، أن نسحب سفينة لندخل أخرى، أن نعيد ترتيب الأرصفة وكأن السفن لعب أطفال ! »

بدأ « عصمت كارجى » متفهماً تماماً لموقف الرجل الذى كان يطرح ما قد يستجد من متاعب مع سفن رجل الأعمال التركى ... غير أن شيئاً بقى فى نفس الرجل الذى مال نحو الباشا قائلاً :

« المدهش، أن المتعهد كيوبيدو بارتينى، وهو إيطالى يعيش بيننا منذ سنوات، كان يعلم بوصول القاطرة والحفار، لكنه لم يخطر سلطات الميناء ! »

« وكيف تسمحون بهذا ؟! »

قالها عصمت وهو يعيد إشعال سيجاره بالولاعة الذهبية، فهتف الرجل :

« لقد سألته عن السبب، فأجاب بأنه كان يعلم من الشركة بأمر وصولها حقاً، لكنه أبداً لم يكن يعرف موعد هذا الوصول ! »

تشممت أنف الباشا رائحة معينة فغمغم :

« لابد أنه متعهد كفء ! »

قال المسئول :

« إنه أكفأهم جميعاً ! »

« إذا كان الأمر كذلك ... ... »

ولم يكمل الباشا، فلقد قاطعه الرجل فى حماس :

« وأنا أرشحه لكى يكون متعهداً لسفنك ! »

وهكذا غادر السيد عصمت كارجى مكتب مسئول الميناء، وكان على موعد فى المساء مع المتعهد الإيطالى « كيوبيدو بارتينى ».. وتذكر رجل الأعمال التركى وهو يستقل السيارة الفاخرة التى أستأجرها طوال مدة إقامته فى دكار... أنه نسى ولاعته الذهبية الثمينة فى مكتب المسئول السنغالى، فمط شفتيه فى لا مبالاة !

....

....

هكذا جاءت المعلومات إلى الباشا فوق صينية من فضة، ولأنه رجل يعرف كيف يتعامل مع البشر، خاصة أبناء القارة التى عشقها منذ سنوات، فلقد استطاع الحصول على كل ما يريد فيما يختص بوصول الحفار، بل إنه عندما جلس إلى مائدة العشاء التى دعاه إليها السنيور كيوبيد بارتينى ــ وكانت مدموازيل ليليان فى صحبته ــ استحوذ على إعجاب المتعهد، واستطاع أن يلهب حماسه، وأن يدفعه لأن يدعوه إلى زيارة الميناء فى ذلك الوقت من الليل، كى يشاهد بنفسه، وعلى الطبيعة، كيف يقوم رجاله وموظفوه بالعمل ليلاً ونهاراً فى خدمة السفن، وإمدادها بكل ما تحتاج إليه مهما كان الوقت ضيقاً.

ووصلت المصادفة الذهبية إلى ذروتها، عندما وجد «عصمت كارجى» نفسه أمام الحفار وجهاً لوجه، فلقد صحبه بارتينى إلى حيث كانت القاطرة والحفار يتزودان وسط عشرات اللمبات المضيئة بما يحتاجان إليه من لحوم وخضروات وفاكهة وخمور ومياه وبترول، وكيف يقوم المهندسون والعمال بالإصلاحات اللازمة بعدما عبرا المحيط وسط تلك العاصفة العاتية التى أصابت القاطرة ببعض الأضرار.

ولقد رفض الباشا أن يغادر السيارة، كان قد احتسى — هكذا كان يبدو — كمية هائلة من الخمر، وبدا نصف نائم وهو يجلس فى مقعد السيارة الخلفى، وبجواره ليليان وقد ألقت برأسها فوق صدره، وراحت فى سبات عميق... ومن خلال عينيه نصف المغمضتين وذهنه المتوثب إلى أقصى درجات الاستيعاب، راح الباشا يرصد الحفار والقاطرة... كان معنى ما يجرى أمامه أن الحفار لن يبقى طويلا فى دكار، وكان سنيور بارتينى يتجول بين موظفيه وعماله ويصدر أوامره هنا وهناك ويتحرك فى نشاط، ويعرض على عصمت كارجى بضاعته، لكن هذا كان مشغولا عنه بالتقاط كافة التفاصيل من فوق الحفار ومن حوله. إذن... فهذا هو «السيد» كينتنج الذى يبحث عنه الرجال؟!

كان الحرس من حوله يضربون نطاقاً حديدياً يمنع أياً من الغرباء من الاقتراب، وقد حدث أن اقترب واحد من الحرس من السيارة الفاخرة وألقى بنظرة إلى الداخل... ويبدو أن الأمر بدا له طبيعيا للغاية، فسرعان ما أشاح عن الرجل الجالس فى المقعد الخلفى ليعود إلى ما كان فيه!

....

....

٢

فى الثانية صباحاً، بعد عودة الباشا إلى فندقه بساعتين تقريباً، وصلت إلى مكتب طاهر رسمى رسالة كان مصدرها المباشر هو تركيا... كانت من رجل اسمه «كمال بنانى»... أما محتويات الرسالة الطويلة بعض الشىء، فكانت عن استئجار سفن وشحن بضائع وأسعار وعمولات ونولون و... وبرغم هذا، فلقد أصبحت سطور هذه الرسالة بالذات، كالأضواء الكاشفة أمام نديم قلب الأسد، الذى قرأها — بعد حل الشفرة — عدة مرات حتى حفظ ما فيها عن ظهر قلب!!

• • •

كان موعد إقلاع طائرة «ايرفرانس» المتجهة من القاهرة إلى باريس عن طريق «نيس» هو السادسة صباحاً، ولذلك، ففى الرابعة صباحاً كان نديم هاشم يستعد لمغادرة جهاز المخابرات المصرى وهو يقلب جواز سفره الذى يحمل اسم «سليمان عبد البر محمود»، وأمام كلمة المهنة كتب: «مهندس»، وفى جيبة عقد عمل موقع وموثق من رجل الأعمال السورى الأصل «سليم أبو فوده»، الذى يقيم فى السنغال منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً... وكان العقد بينه وبين المهندس سليمان عبد البر محمود، المصرى الجنسية، ينص على أن يعمل هذا الأخير لحسابه كبيراً للمهندسين فى مصنع «تكرير الزيت» الذى يملكه المليونير السورى، وكانت مدة العقد عاماً قابلا للتجديد!

لم تكن كل هذه التفاصيل تعنى نديم قلب الأسد الذى تعود النفاذ من أسوار الحراسة فى أى مكان فى العالم بأساليب مبتكرة شهد له بها زملاؤه ورؤساؤه على السواء... كانت المشكلة فى الحقيبتين الكبيرتين إلى حد لافت للنظر اللتين تحويان — مع عدد من الأشياء التى لا لزوم لها — ملابس الضفادع

ومعداتهم بالكامل !!... كانت نظرة واحدة من أى مفتش جمارك فى أى مطار إلى واحدة من هاتين الحقيبتين كفيلة بأن تثير حولها الشكوك بلا نهاية، حقاً كانت هناك ترتيبات تضمن السلامة، ولكن، لكل قاعدة شواذ، فماذا لو شذت عن القاعدة حادثة صغيرة لتقلب له الدنيا رأساً على عقب ؟!

حملت الحقيبتان إلى السيارة الأجرة التى كانت تنتظر نديم فى فناء خلفى بمبنى جهاز المخابرات، ووقف نديم أمام طاهر وعزت وابتسم... منذ ساعات تحدث إليه أمين هويدى من فراش المرض، قال الرجل: إنه يريد أن يأتى إليه لكن الأطباء منعوه، قال له إنه لن يوصيه على الحاج، كان كلامه ملغزاً، لكن الألغاز كانت تحل فى رأسه كلمة بكلمة، وعندما قال له أمين هويدى: إن شرف البلد أصبح الآن بين يديه انقبض قلبه!

مد يده وصافح زميليه فى صمت. مالبث أن غمغم:

« أشوفكم بخير! »

ولم يردا التحية، ظل الصمت سائدا إلا من صوت خطواته تدق أرض الغرفة، مد يده إلى الباب، وقبل أن يفتحه، هتف طاهر:

« نديم ! »

التفت إليه نديم، فابتسم هذا قائلا:

« ربنا معاك !! »

....

....

يالهذه اللحظات التى لاتوصف، عندما يشعر الإنسان أنه ينفصل عن الكل

الذى ينتمى إليه، ليسبح فى فضاء العالم نحو مجهول، وأحداث لايدرى كيف ستكون ... عندما تكتشف أن قدرك هو أن تكون واحداً من جيل المهمات الصعبة، وأن عليك فى هذه الحياة أن تختار بين ما هو صعب، وما هو أكثر صعوبة ... ثم لا تجد مفراً، فقدرك هو أنت، هو ما تريد حقيقة دون حسابات، هو ما خلقت من أجله... وعندما تصبح أنت أنت، ثم تجد نفسك فى الصف الأول من مواجهة هذه الصعوبات، فعليك أن تواجهها راضياً، فالصفوف من خلفك كلها تعتمد عليك... وآه ... آه لو تخاذلت للحظة !!

طريق المطار خال أو شبه خال، ضوء الفجر يشق الأفق البعيد من خلف سحب تراكمت فى السماء منذرة بمطر قريب، والسيارة تنهب الأرض نهباً، والسائق مغلق الشفتين صامت... أما نديم، فلم يكن فى الحقيقة صامتاً، كان صاخباً، وكان صخبه فى صدره !!

وعندما خطا خطوته الأولى فى صالة الرحيل بمطار القاهرة الدولى، كان يشعر أنه يخطو إلى ساحة مليئة بالألغام!

....

....

ما إن وضع نديم قلب الأسد قدمه على أرض فرنسا فى مطار «شارل ديجول» المخصص لطائرات شركة «ايرافرانس»، حتى أحس بالجو المتوتر الذى يسود المطار، وتلك النظرات المتشككة التى تصوب إلى كل عربى مهما كانت جنسيته... ايقن أن شيئاً ما قد حدث، وكان عليه أن ينتقل من مطار «شارل

ديجول » إلى مطار « أورلى » كى يستقل إحدى طائرات شركة « ايرافريك » المتجهة إلى دكار، وصل إلى مطار أورلى فإذا الشكوك أكثر التهاباً ... ففى هذا المطار تهبط الطائرات الأجنبية، ومنه تقلع، من هذه الطائرات طائرات شركة « العال » الإسرائيلية، والتى اكتشفوا في هذا الصباح شحنة ناسفة ترقد فى إحدى حقائب المسافرين على إحداها ... بحثوا عن صاحب الحقيبة فلم يجدوه، اشتد توترهم وازدادت عصبيتهم، وكان ضباط الجوازات يحملقون فى وجوه العرب ويسألونهم إلى أين ولماذا ومتى وكيف ومن و... و... ويضيقون عليهم الخناق وكأنهم يطردونهم من بلادهم طرداً !!

لم يكن نديم يعلم بعد ما الذى حدث وماذا يجرى من حوله، لكنه كان موقناً أن المطار مشحون بالخطر، كما كان واثقاً من ذلك التعاون السرى بين المخابرات الفرنسية والمخابرات الإسرائيلية ... ولا بد أنهم هنا، هؤلاء وأولئك، فى كل مكان، يسعون بين المسافرين، يحملقون فى الوجوه، ويفرزون الملامح، ويلتقطون كل حركة بعقول دربت على كشف الخبىء ... فهل يفلح ؟!

أن ما يحمله فى حقيبته لا غبار عليه شكلا، لكنه موضوعاً — لو أنه اكتشف بمصادفة ليست فى الحسبان !!! — سوف يقلب الدنيا رأساً على عقب، وسوف يجعل الخطط التى بذل فيها الجهد والعرق طوال الأسابيع الماضية، فى خبر كان ... كان اكتشاف ملابس الضفادع البشرية ومعداتهم، كفيل بأن يصل إلى الإسرائيليين فى ثوان، وكان كفيلاً بأن يجعلهم كالواقفين على أظافرهم، وكفيلاً بأن يضع بدل العقبة مئات العقبات !

ينظر الناس إلى ضابط المخابرات وكأنه « سوبرمان » لكنه بشر!

ولقد كان نديم هاشم مشهوراً — بجوار جرأته البالغة — بهدوء أعصابه الشديد ... كان يقوم بأخطر العمليات بهدوء من يشعل سيجارة مصرية وهو بعيد عن مصر! ... لكنه الآن، اعترف لنفسه أن هذا الهدوء ليس على ما يرام !!

اتجه إلى الكافتيريا وطلب فنجاناً من القهوة المركزة، ألقى بمعطفه الثقيل فوق مقعد، وخطا نحو حامل الجرائد فامتدت يده إلى جريدة إنجليزية ولم ينظر حتى للجرائد العربية ... عاد إلى مائدته وكان فنجان القهوة قد وضع فوق المائدة وبجواره تذكرة الثمن فلم يعرها اهتماماً، أشعل سيجارة وراح يطالع الجريدة.

كانت العناوين الرئيسية فى « التايمز » عن حوادث اختطاف العرب للطائرات، بجانب الأخبار كانت هناك مقالات وتحليلات وتعليقات ... بدا نديم وكأن الأمر لا يعنيه، ألقى بالجريدة جانباً وتفرغ لفنجان قهوته، رشف رشفة فتذكر عزت بلال وقهوته الفرنسية، داهمه الحنين إلى مصر وهو لم يغادرها إلا منذ ساعات قليلة ... مسحت عيناه المكان من حوله فى خبرة من كانت تكفيه لحظة كى يلم بكل شىء إلمام صورة فوتوغرافية، شاهد وجهاً يمرق من أمامه فابتسم، ولكن إلى الداخل، لو أن صاحب هذا الوجه نظر الآن فى عينيه لاكتشف أمره فى ثوان، انتهى من فنجان قهوته، وأمسك بتذكرة الثمن كى يقرأ ما فيها، لكن الغريب أنه لم يقرأ الجانب المطبوع، بل قرأ على الجانب الآخر كلمة كان فى انتظارها، كلمة قرأها فى لهفة ثم تنفس بعدها الصعداء!

كانت الترجمة العربية للكلمة المكتوبة بالفرنسية هى: « مرحباً »

سمع النداء الأول على طائرة « إيرافريك » المتجهة إلى دكار، نظر فى

ساعته ونهض وهو يضع على المائدة فرنكاً فرنسياً، لكن ورقة الثمن كانت قد اختفت داخل كفه، غادر الكافتيريا فى خطوات ثابتة، ما إن وصل إلى بوابة الإقلاع، حتى وجد من يطلب من المسافرين أن يلتقطوا حقائبهم من صالة جانبية، وأن يتقدم كل راكب بحقائبه للتفتيش !

وكان التفتيشَ رهيباً !!!

هل يوجد فى قواميس اللغات كلمات تسمو إلى مستوى الخوف الإنسانى عندما يصبح نوعاً من الكهرباء الخفية التى تصيب الروح بالرعشة ؟! .. عندما يتحول الإنسان من إنسان إلى « خائف » ... ولقد كان نديم فى تلك اللحظات الرهيبة خائفاً، لكن خوفه لم يكن من اكتشاف أمره، فهذا أمر هين إذا حدث ... لكن خوفه كان : ألا يلحق بالحفار فى دكار !!

« مسيو محمود »

بدت له العينان الزرقاوان كنصلين بادرين يخترقان رأسه، جاءه صوت الضابط الفرنسى مثل لكمة !

« نعم ! »

أومأ الضابط نحو الحقيبتين الكامنتين إلى جواره

« هاتان لك ؟ ! »

« بالتأكيد ! »

« ماذا تحويان ؟ ! »

هز نديم كتفيه :

« بعض الملابس التى تكفى لمدة عام، وبعض الكتب فى الهندسة الميكانيكية ! »

نفذت من عينى الضابط نظرة أحس نديم أنها تخترق عينيه إلى نخاعه، كان الترحيب الذى وجده على ظهر تذكرة الثمن فى الكافيتريا قد بعث بالأطمئنان إلى نفسه ولكن ... ...

« هل تحمل أشياء ممنوعة ؟! ... »

« على الإطلاق ! »

كان يعرف كيف يبث الثقة برنة صوته فيمن يتحدث إليه، فهل ... ...

« افتحها من فضلك !! »

ها هى اللحظة قد حانت، فليلق بنفسه فى البحر!!!

١٣

٨ - الفصل الثامن

الجولـــة الاولى .

فى صوت هادئ خافت كأنه الهمس، قال الملازم:
«تحيا مصر!»
وكـان هـذا فـوق طـاقـة نـديم عـلـى الاحتمال!... فأشاح عن الرجال خاطياً إلى بعيد وهو يردد معهم الهتاف:
«تحيا مصر!»

□ الذى لا شك فيه أن الأمور كانت تسعى حثيثاً نحو ذروة شديدة الخطورة، وأن إيقاع الأحداث كان يتسارع لحظة بعد أخرى، وأن كل تصرف ــ مهما صغر شأنه ــ كانت له قيمته ومعناه... ولذلك، فلقد كان نديم هاشم يعرف تماماً ما هو فيه الآن، ففى تلك اللحظات الشديدة الغرابة، وعندما تفقد اللغة مدلولات كلماتها، وتصبح البطولة والشجاعة والصمود والإقدام تعبيراً عن حالة ينفصل فيها الإنسان عن ذاته، كى يلتحم بذلك الواقع الجديد الذى فرضته عليه الأحداث.. فى تلك اللحظات لا يصبح أمام الإنسان سوى طريق واحد، هو مواجهة الأمر بثبات!!

كانت كلمات ضابط الأمن فى مطار أورلى مهذبة حقاً لكنها خرجت من بين شفتيه كالرصاص الطائش، وعندما طلب من نديم أن يفتح الحقيبتين، أيقن هذا أن ثمة خطأ قد وقع فى سياج الأمن المضروب من حوله فى المطار، وأن أمره قد انكشف... فظللت ملامحه على الفور ابتسامة ثابتة، ورفع الحقيبتين ووضعها أمام الضابط الذى كان يرقبه بعينيه الزجاجيتين ونظراته الباردة الحاسبة... راح يفك الأحزمة ويفتح الاقفال وكان الضابط الفرنسى يرقبه بإمعان، رفع غطاء احدى الحقيبتين فهتف الضابط بكلمات كقطع الثلج القطبى:

«كل هذه الملابس لك؟!»

ضحك نديم ساخراً وهو يقول فى لا مبالاة:
«سوف أقضى عاماً كاملا فى دكار!»

على السطح كانت الكتب متراصة فى نظام وترتيب، انقضت يد الضابط على كتاب راح يتصفحه ويفحصه، ألقى به ثم أمسك بكتاب آخر، وثالث، ورابع... كان واضحاً أنه يشك فى أن الكتب قد تكون صناديق تحوى متفجرات، لكنه عندما دس يده فيما تحت السطح وراح يعبث بمحتويات الحقيبة، أدرك نديم أن اللحظة قد حانت فاستعد، فتحت هذا السطح البرىء كانت تكمن كارثة، ملابس الضفادع البشرية ومعداتهم وأدوات تفجير تحت الماء وكشافات خاصة و... و... وخرجت يد الضابط تحمل حقيبة جلدية صغيرة، وعرف نديم فيها حقيبة أدوات حلاقته ومعجون أسنانه، فتح الضابط الحقيبة وألقى نظرة على محتوياتها ثم أغلقها وأعادها إلى نديم مع جواز سفره وهو يقول:

«تستطيع أن تصعد الآن إلى الطائرة!!»

ولم يتنفس نديم الصعداء، ذلك أنه كان يعلم أن الخطر ما زال قائماً، بل كان يعلم أنهم ربما سمحوا له بالصعود إلى الطائرة لأكتشاف المزيد مما كانوا يريدون معرفته... حتى عندما أغلق الحقيبتين وتركها وسط حقائب المسافرين على طائرة «ايرافريك» المتجهة إلى دكار، كان يدرك تمام الإدراك، أن أية ملاحظة، أوخطأ بسيط، أوشك فى أى شىء مهما كان تافهاً أوصغيراً... كفيل بأن يقلب الدنيا رأساً على عقب!

٢

وهو فى طريقه إلى الطائرة، أدرك نديم مدى الضراوة التى سيدافع بها الإسرائيليون عن حفارهم هذا، كما أدرك أن المهمة ستزداد صعوبة. وتذكر ليزونورمان وما قد يحدث لها من ديفيد لينفجر الذى لابد وأن يكون قد التقى الآن بسارة جولد شتاين التى وصلت بالتأكيد مع الحفار إلى دكار... كان يعلم تمام العلم ما الذى يمكن أن يفعله هذان السفاحان لمجرد الشك فى مخلوق، وهو وأن كان يثق فى الرجال الذين سبقوه إلا أن الثقة شىء، وما قد يحدث بغتة للشابين البريطانيين شىء آخر... وما قد يحدث لهما سوف يحدد بالقطع أسلوبه فى وضع خطوته الأولى!!

غير أنه ما إن وضع قدمه فى الطائرة، حتى راحت عيناه تبحثان بين الركاب عن وجه بعينه، وجه بذل جهداً مضنياً ـ فى أثناء وجوده فى المطار ـ كى لا يبحث عنه أويقترب منه أوتلتقى عيناه بعينى صاحبه... كان عدد الركاب قليلا، لذلك، فسرعان ما توقفت عيناه عند صاحب الوجه الذى كان يجلس فى مقعد، وقد ربط الحزام ودس عينيه فى صفحات كتاب بدا مستغرقاً فيه إلى أقصى حد.

كان صاحب الوجه شديد الشبه بنديم هاشم، قامته تقارب قامته، ولون بشرته المصرى يبعث بالدفء إلى أوصال الرجل الذى كان يبحث الآن عن مقعد بعيد... وعندما مر به نديم، ابتسم بينه وبين نفسه، فإن أحداً بالتأكيد لم يلحظ أن الرجل كان يرتدى بذلة من نفس لون بذلة نديم، بل من نفس القماش، ونفس التفصيلة، ونفس القميص وربطة العنق والحذاء والجورب!!...

كان مفروضا أن يسافر هذا الرجل إلى دكار قبل سفر نديم بأربع وعشرين ساعة على الأقل، لكن تلاحق الأحداث أجبر الرجال على ركوب المخاطر... ذلك أن وجود الرجلين معاً على نفس الطائرة، وبهذا التشابه الذى لاشك مصنوع من أجل هدف ما، قد يعرض المهمة كلها إلى خطر محقق!!

ألقى نديم بنفسه فوق مقعد بعيد تماماً عن الرجل، ربط الحزام ووضع رأسه فوق المسند، وراح فى سبات عميق!!

كان فى حاجة شديدة إلى النوم، فنام ساعة وبعض الساعة، وعندما فتح عينيه أطل من نافذة الطائرة، وكانت قد غادرت المجال الجوى الفرنسى، وراحت تعبر البحر الأبيض المتوسط تجاه الشواطىء العربية فى أفريقيا... وهنا فقط، تنفس الصعداء!

مالت نحوه المضيفة الأفريقية ذات القوام الأبنوسى والوجه المضىء عن ابتسامة مرحبة، وهى تسأله إن كان يريد شيئاً بعينه... كانت وجبة الطعام المعتادة قد وزعت على الركاب فى أثناء نومه، فلم تشأ أن توقظه... أرادت أن تهيىء له وجبة خفيفة، لكنه اعتذر، وطلب فنجاناً كبيراً من القهوة المركزة!!

غادرته المضيفة فأشعل سيجارة، وعاد عقله ــ بلا ملل! ــ يعيد التفكير فيما كان عليه أن يفعل، أخذ يجمع كل تلك الخيوط التى عليه أن يمسك بها فى قوة وذهن يقظ وعقل متوقد!

ترى أين مكان الحفار من الميناء؟.. على أى رصيف يرسو؟!... هل هناك مسالك إليه أوأنهم سدوا كل المسالك؟!... ماطبيعتها؟!... ثم... ماذا عن ال « Safehouse » أوالبيت الآمن الذى سينزل فيه مع الرجال... ماذا عن... عن ليز ونورمان مرة أخرى وثانية وثالثة ومليون، هما مفتاح الخطوة الأولى له فى دكار، يكاد يوقن أن ثمة شيئاً قد حدث لهما برغم البرقية التى أرسلها طاهر رسمى بالأمس... ثم تذكر «سليم أبوفودة» فابتسم!... هذا السورى الأصل الذى يعيش فى السنغال منذ مايقرب من أربعين عاماً، كم سمع عنه، وعما فعله من أجل العرب والقضية العربية، وكم ــ على البعد ــ أحبه؟!... وكم ود اللقاء به... و... وهاهو فى الطريق إليه!!

لكنه عندما تذكر محمود شوكت، أو الباشا، أورجل الأعمال التركى عصمت كارجى... سرت إلى صدره نسمة من راحة مفتقدة، فيكفى أن يكون الباشا هناك، حتى يكون كل شىء على ما يرام!

• • •

برغم أن الباشا كان يعلم أن نديم فى طريقه إلى دكار، فإنه كان حريصاً على بث رسالة فى الصباح الباكر إلى طاهر رسمى، كان لابد وأن يعلم طاهر بكل شىء فى حينه، ولهذا... فعندما حل طاهر الشفرة، قرأ الرسالة على عزت بلال:

«عاينت مكان الحفار، قابلته شخصياً، سمح لى بعشر دقائق للحديث معه، اسألوا عن قاطرة بلچيكية أبحرت من ميناء انتويرب منذ عشرة أيام تقريبا.

١٧

اسمها «آلبى». القاطرة «آلبى» دخلت إلى المياة العميقة فى ميناء دكار ولكنها لم ترس على رصيف. ظلت فى الميناء لسبع ساعات وست وثلاثين دقيقة ثم أبحرت فى طريقها إلى أبيدجان بعد أن أخذت حاجتها من الوقود والمياة والطعام. لم أعرف شيئاً أكثر من ذلك، لكنى أشك فى قوة!»

انتهى طاهر من قراءة البرقية، ورفع رأسه نحو عزت بلال الذى غمغم:
«مفيش أخبار عن ليز ونورمان؟!»

وإذا كانت المهمة تندفع الآن بسرعة نحو النهاية، فإن هذا لم يمنع الرجال من التفكير فيمن يعيش الآن فى خطر، وكان عليهم بالضرورة، ووسط كل هذا، ان يحموه وينقذوه!

ولم يكن الأمر فى حاجة إلى الكثير من الذكاء، كى يدرك طاهر وعزت أن المحطة التالية للحفار ستكون أبيدجان فى ساحل العاج، وإذا كان خبراء البحرية قد قالوا إنه من الصعب أن تسحب قاطرة واحدة، حفاراً من بحيرة «ايرى» فى جنوب كندا إلى البحر الأحمر، وأنه لابد من استبدالها، فها هى حساباتهم تتحقق!

بعد دقائق لم تزد على العشر، تجمعت لديها كل المعلومات المطلوبة عن القاطرة «آلبى» من دليل السفن البحرية الموضوع فوق مكتب طاهر... وبعد خمس ساعات ـ وكان هذا زمناً قياسياً ـ وصلتهم رسالة من ميناء انتويرب

البلچيكى رداً على البرقية العاجلة التى أرسلوها، تؤكد أن «آلبى» متجهة بالفعل إلى أبيدجان، لكن أحداً لا يعرف بالضبط ما هى المهمة التى ستقوم بها هناك... وعلى كل، فالقاطرة مؤجرة لشركة إنجليزية اسمها «ميدبار»... و... وكانت أخر كلمات الرسالة تقول: «سمعت من نقابة البحارة هنا، أن طاقم «آلبى» قد انتقى بعناية فائقة، وبأسلوب خاص... وسرت هنا شائعة تقول إن أحد المليونيرات العرب هو الذى استأجرها»!!!

نظر عزت وطاهر كل منهما إلى الآخر وقد علت وجهيهما ابتسامة ذات معنى.

ضرب الباشا ضربته فى دكار فكشف سراً مهولا، وجاءت المعلوات تؤكد شيئاً جديداً: أن الحفار «كينتنج» سوف يلقى رعاية من نوع خاص ابتداء من أبيدجان... أطلق الإسرائيليون شائعة الثرى العربى الذى أستاجر القاطرة آلبى حتى يلووا الأعناق والأذهان بعيداً عنهم... هؤلاء الثعالب الذين يستفيدون من كل شىء بذكاء لابد من الأعتراف به... وإذا كنت ذكياً بحق، فعليك أن تعترف بذكاء خصمك إذا ما كان كذلك... ولقد اتخذ طاهر قراره على الفور، ولابد من ضرب الحفار فى دكار وقبل أن يصل إلى أبيدجان، بأى ثمن!

• • •

كان اليوم التالى هو الثانى من عيد الأضحى لذلك العام، وكانت المصالح الحكومية كلها فى السنغال معطلة. إلا بعض الشركات الكبرى التى تستلزم أعمالها تواجد بعض الموظفين حتى فى الأعياد... وفى الساعة الثانية عشرة

٢

وعشرين دقيقة ظهراً... كان رجل الأعمال السورى الأصل «سليم أبو فودة» يستعد لمغادرة مكتبه فى دكار، كان هناك عدد من موظفيه- وكان يناقشهم فى بعض الأعمال وهو يستعد للإنصراف... كان ذاهباً إلى المطار لاستقبال المهندس «سليمان عبد البر محمود» الذى سيشرف على مطاحنه ومعاصره، والذى سيعيد المعصرة الكبيرة إلى العمل بعد توقف دام لأسابيع. أنهى أعماله مع موظفيه ثم انطلق إلى المصعد... فتح له السائق السنغالى باب المصعد فدلف إليه، وخطا السائق خلفه... ما إن أغلق باب المصعد هابطاً حتى مد سليم يده إلى السائق متحدثاً بلغة «الولوف» السنغالية قائلاً:

«أعطنى مفاتيح السيارة وعد إلى بيتك واقض اليوم مع أولادك!»

فى الطريق إلى المطار كان سليم مستغرقاً فى التفكير، كان يثق فى المصريين ثقة بلا حدود، ثقة من عرك الأحداث معهم واختبر معدنهم فاطمأن تماماً إليهم... لكنه، برغم ثقته هذه، كان اليوم قلقاً!!

فما الذى يريده هؤلاء «المصاروة» من دكار؟!

....

....

وليست العاصمة السنغالية بالمدينة الكبيرة إلى حد تستطيع معه أن تخفى ما يجرى فيها، ومنذ أسبوعين بالضبط وثمة حركة غريبة وغير محسوسة تجرى فى

المدينة، وهى حركة لا يلحظها أو يدركها إلا من عاش العمر كله فى بلاد السنغال، عاشه مهاجراً، وظل مهاجراً حتى بعد حصوله على الجنسية!

جاء سليم أبو فودة إلى دكار وهو فى العاشرة من عمره، نزح أبوه «شكرى أفندى أبوفودة» من حلب فى شمال سوريا إلى السنغال– وكانت تحت الاستعمار الفرنسى– ليعمل موظفاً فى الحكومة!... ولأنه كان مسلماً ومتديناً، ولأن ثمانين فى المائة من سكان السنغال مسلمون، فلقد أضاف التدين إلى مهابة الوظيفة الحكومية مهابة اختصوا بها الرجل الذى كان يرى فى الإسلام أسلوباً قبل كل شىء... وفي كل أحاديثه الخاصة، أو أحاديثة الدينية التى أصبح يلقيها بعد أن تعلم اللغة السائدة فى السنغال وهى الولوف، كان الرجل يؤكد أن قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «الدين المعاملة»، هو الركن الأسمى لحياة المسلم.. كان «شكرى أفندى أبو فودة» يرى أن المسلم لا يخدع ولا يغش ولا يسرق ولا «يبلف» ولا يأكل مال غنى أو فقير أو يتيم... المسلم الحق هو من يعرف قيمة الزكاة وسط شعب من فقراء المسلمين!!

شب سليم عن الطوق وهو يؤمن بكل هذا ويعتنقه ويمارسه كالتنفس... غير أن الأيام علمته الكثير، خاصة بعد وفاة والده وكان هو قد بلغ السادسة عشرة... ولقد كان الدرس الأول الذى تعلمه، هو أن «المهاجر» غريب فى كل مكان يحل به، كان الحنين إلى مسقط رأسه كالمرض العضال... اكتشف أن الوطن «قدر» كالأب والأم لا حيلة للإنسان فيهما، كان يشعر برغم أنه وعى على الدنيا وشب عن الطوق فى السنغال أنه مواطن من الدرجة الثانية... وبعد وفاة أبيه تقلب فى العديد من الأعمال كسباً للقمة العيش... وخبر فى تقلبه

١٧

هذا — كل نواحي النشاط الاقتصادى فى البلاد التى انتمى إليها ، لكنه — عندما تجمع لديه بعض المال — شد الرحال إلى حلب ... وهناك ، وجد نفسه أشد غربة مما كان ، أصابته وحشة من يسير فى أرض يعشقها وهى لا تعرفه ... كان كل شيء غريباً عليه ، وكان هو غريباً فى وطنه ... فاتخذ قراره ، وعاد إلى السنغال !

قرر سليم أبو فودة أن يهاجر من جديد ، لا إلى بلد بعينه ، ولكن إلى « المال » ! ! !

بدأت هجرته إلى المال وهو لم يتعد الثامنة عشرة من عمره ، وسرعان ما أنس إلى هذه الهجرة ، عندما عرف أن المال كالمهاجر ... بلا جنسية ... موطنه الكرة الأرضية بأسرها ، فإذا ما أنتمى إليك المال ، أصبحت مواطناً عالمياً ، تفتح لك كل الأبواب ، وترحب بك كل الدول !

فى سنوات قليلة أصبح سليم أبو فودة ثرياً ... صعد من السفح إلى القمة قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، سلاحه لافتة علقها فوق مكتبه ، منذ أن كان هذا المكتب مجرد مائدة صغيرة فى دكان متواضع بأحد أحياء دكار الشعبية ، حتى أصبح ذلك المكتب الفخم فى واحدة من أعظم بنايات دكار الحديثة ... لافتة كتب عليها : « الدين المعاملة »

....

....

فى منتصف الستينات أقام القنصل المصرى فى دكار حفل عشاء فى

مبنى القنصلية دعا إليه عدداً من ممثلى الدول ، كما دعا إلى العشاء الذى أقيم احتفالاً بعيد ثورة ٢٣ يوليو ، عدداً كبيراً من المسئولين فى السنغال ، وبعض رجال الأعمال المرموقين ... وكان منهم سليم أبو فودة .

ولأن فى السنغال بضع لغات تختص كل قبيلة بلغتها ، فإن اللغة الرسمية السائدة هى اللغة الفرنسية ... ولقد دار الحديث فى ذلك المساء فى شرفة القنصلية بين القنصل المصرى وبين عدد من المدعوين ، من بينهم سليم بك ، حول ثورة ٢٣ يوليو وعبد الناصر ... كان الحديث مليئاً بالود ، عندما قال سليم فجأة ، وبصوت سمعه كل الحاضرين :

« أتدرى ما هو أفظع ما فعله بى الرئيس عبد الناصر ياسعادة القنصل ؟ ! »

ران السكون فجأة على الجميع ، وابتسم القنصل متحفزاً وقد أدرك أن بوادر أزمة فى الطريق إليه ، لم تكن ذكرى انفصال سوريا عن مصر بعيدة عن الأذهان ، التفت القنصل نحو سليم قائلا :

« لم أكن أعلم أن للسيد الرئيس أعمالاً فظيعة ! »

رد سليم بنفس الصوت الواضح النبرات :

« لقد أيقظ عبد الناصر فى أعماقى ، ذلك الإحساس المرير بالانتماء ! »

أدرك القنصل على الفور ماالذى كان يعنيه هذا الرجل الشديد الذكاء ، فرد عليه بالعامية المصرية :

« الأنتماء مش كلام وبس يا سليم بك »

وتوقف الحوار ليلتها عند هذا الحد، ولم يحدث أن اتصل القنصل بعد ذلك بسليم أبو فودة، لكن الحوار أستؤنف بعد ذلك بحوالى ثلاثة أشهر، عندما زار دكار شاب متفجر بالحماس، كان يحمل رسالة خاصة من الرئيس جمال عبد الناصر إلى السيد سليم أبو فودة... كانت الرسالة تقول: إنه إذا كان جمال عبد الناصر قد أيقظ فى أعماقه هذا الإحساس المرير بالإنتماء، فإنه سيصبح إحساساً أشد مرارة إن لم نحاول أن نغذى هذا الانتماء ونرعاه!

كان الشاب قادماً للمناقشة، أما سليم فلقد كان الأمر قد فاض به، فانفجر فى وجه الشاب بلهجته الشامية تلك، يقول بأنه على استعداد لتغذية انتمائه بكل ما يملك، وكل ما يستطيع، تحت شرط واحد!

ضحك الشاب قائلا:

«وسيادة الريس له شرط واحد هو كمان!»

قال سليم بالفرنسية متسائلا:

«ماهو شرط الرئيس؟!»

رد الشاب:

«ألا تصنع شيئاً ــ مهما صغر شأنه ــ ضد السنغال!»

وأطلق سليم ضحكة هائلة صاخبة، فلقد كان هذا شرطه الوحيد... أيضاً!!

....

....

عندما هبط نديم هاشم من الطائرة فى مطار دكار، كان يرتدى نظارة

شمسية داكنة اللون، ولم يمكث فى المطار أكثر من عشرين دقيقة، كان وجود سليم أبو فودة، بشخصه فى استقباله، كفيل بأن يفتح كل الأبواب... فتمت الإجراءات فى دقائق، وحملت الحقيبتان ــ بدون تفتيش ــ إلى السيارة الفاخرة التى كان يقودها سليم بنفسه... فى الطريق من المطار إلى الفندق، سأله نديم هاشم:

«إيه الأخبار ياأخ سليم»

فبادر سليم على الفور صائحاً:

«شو العمى ياأخى، أنا اللى بأريد أعرف شوها الحكى اللى فى دكار من أسبوعين؟!»

....

....

توقفت سيارة سليم أبو فودة أمام باب الفندق فهرع الخدم إليها يحملون الحقيبتين، صحب الرجل ضيفه إلى الداخل حيث وجد من الموظفين ترحيباً حاراً... كان المهندس سليمان عبد البر محمود لايزال يرتدى النظارة الشمسية الداكنة التى كان يرتديها منذ غادر الطائرة... وظل سليم هناك حتى انتهت كل الإجراءات، فصافح كبير مهندسيه فى حرارة، وغادرة على موعد فى المساء لتناول العشاء بمطعم الفندق!

وصعد المهندس سليمان عبد البر محمود إلى غرفته تسبقه حقيبتاه.

كان كل شىء يبدو طبيعياً... حتى أمام هذين الرجلين القريبين اللذين

١٠

كانا يحومان فى مدخل الفندق... كان أحدهما نزيلا، أما الأخر فلا أحد كان يعرف ما الذى يفعله هناك.

كان كل شىء يبدو طبيعياً للغاية... إلا أن المهندس سليمان عبد البر محمود، الذى صعد إلى غرفته فى الفندق، لم يكن هو نديم هاشم، ولم تكن الحقيبتان اللتان صعد بهما الخدم، حقيبتى نديم...

كان المهندس سليمان عبد البر محمود الذى صحبه سليم أبو فودة إلى الفندق، هو نفسه صاحب الوجه الذى بحث عنه نديم فى الطائرة. والذى يشبهه، ويرتدى نسخة أخرى من ملابسه... أما الحقيبتان فلقد كانتا نسختين أخريين من حقيبتى نديم وكانتا ممتلئتين بالملابس والكتب الهندسية فعلاً، وكانتا قد وصلتا إلى دكار، قبل ثمان وأربعين ساعة!

• • •

أما نديم هاشم، فلقد كان فى ذلك الوقت يجلس فى سيارة راحت تنهب الطريق نهبا إلى إحدى ضواحى دكار، وكانت هذه هى السيارة الثالثة التى ينتقل إليها نديم منذ غادر سيارة سليم... بجواره، كان ثمة شاب يقود السيارة وقد غرق فى الصمت، كان الجو حارا ودرجة الرطوبة عالية، فخلع نديم سترته ورباط عنقه وشمر أكمامه وفتح ياقة قيصه... ما إن وصلت السيارة إلى مشارف الضاحية حتى انحرفت إلى شارع جانبى ثم توقفت، غادر الشاب السيارة وفتح غطاء الموتور وراح يفحصه... وهو فى الحقيقة لم يكن يفحص الموتور، بل كان يفحص الطريق من خلفه ومن حوله بعينى صقر لا تغفلان شيئاً، كان الطريق خالياً والسكون عميقاً، وشوراع الضاحية التى يسكنها الفرنسيون واللبنانيون ــ أكبر جاليتين فى السنغال ــ وتحتل الكثير من مبانيها سفارات الدول وقنصلياتها، وبعض الأثرياء من الوطنيين... كانت شوارع الضاحية خالية تماماً من المارة... وكما سكن الشاب لدقيقة وبعض دقيقة، فلقد استسلم نديم هو الأخر للسكون، طنت من حول رأسه ذبابة كبيرة اندفعت من إحدى نافذتى السيارة، دارت دورة، ثم غادرت السيارة من النافذة الأخرى... وكان الشاب قد أطمأن، فأعاد غطاء الموتور الى مكانه، ورجع إلى السيارة وانطلق بها على مهل!

أمام فيللا صغيرة، توقفت السيارة.

هبط الشاب ونديم معاً بعد أن شملا المكان بنظرة خبيرة... تقدم الشاب من الفيللا ودق الباب دقتين، ثم ضغط على زر الجرس مرة واحدة... فتح الباب وأوسع الشاب طريقاً لنديم كى يدلف إلى الداخل... وكان أول من استقبله هو الباشا شخصيا..

....

....

لم يكن هناك وقت للترحيب، بدأ الرجلان العمل فورا... راح الباشا، فى دقة متناهية، يسرد على نديم كل شىء، كل مارآه وكل ماجمعه من معلومات، بجوار الباشا كان المواطن إبراهيم سيد فرج الله ــ ذلك الذى غادر القاهرة ذات صباح على طائرة سويس ايرا إلى جنيف ثم دكار للعمل بها كمدرس للغة

١٣

العربية ــ كان متحفزاً للحديث هو الأخر، فما إن انتهى الباشا حتى راح إبراهيم يدلي بتفاصيل شديدة الدقة، تفاصيل استطاع أن يجمعها من الأرصفة ومكاتب الميناء والمتعهدين والبحارة وعمال السفن ... انتهى الرجل من الحديث فسأله نديم :

« إيه أخبار ليز ونورمان ! »

ضحك الباشا قائلا :

« البروفسور خطفهم ! ! »

وأردف إبراهيم :

« وكانت معاه واحدة شكلـ... ... »

قاطعة نديم وقد تحددت أمامه معالم الطريق :

« دى ساره جولد شتاين ! »

وهوت الكلمات فى الغرفة كالقنبلة ... ولفت الرجال زوبعة عاتية من الصمت دامت لثوان .. لكنهم سرعان ما عادوا إلى العمل من جديد !

....

....

لم تكن الصورة أمام نديم هاشم مشجعة بأى شكل من الأشكال ... كان الوصول إلى الحفار محفوفاً بالمخاطر، بل إن ضرب الحفار نفسه ــ حتى ولو استطاع الرجال الوصل إليه ــ كان أيضا محفوفا بمخاطر بلا حدود ... هتف محمود شوكت وكان الرجال يجلسون حول مائدة غداء خفيف :

« زوارق الطوربيد الفرنساوى قريبة قوى من الحفار ! »

غمغم نديم :

« الفرنساويين بيلعبوا معاهم يا باشا ! »

أضاف إبراهيم سيد فرج الله :

« المسافة بين نقطة الانطلاق والحفار طويلة جداً »

لكن رأى الباشا وإبراهيم، كان : أن التنفيذ ممكن جداً، لكنه ليس سهلاً !

وكان رأى نديم معلقاً، أنه بالتأكيد يثق فى زميليه، ولكن ..

« امتى أقدر ادخل الميناء يا إبراهيم ؟! »

« دلوقت اذا حبيت ! »

« يالله بينا ! »

هم الرجال بالنهوض عندما دق جرس التليفون ... أسرع شاب من الداخل فرفع السماعة ... دار الحديث بينه وبين المتحدث بالفرنسية، ثم أمسك الشاب بقلم وراح يكتب فى صمت ... ما إن انتهى الحديث، حتى حمل الشاب الورقة المكتوبة ــ وكانت بالشفرة ــ إلى نديم ... ألقى نديم نظرة على الرسالة وهتف فى الباشا :

« ايه حكاية القاطره آلبى دى ؟! »

وقص عليه الباشا ــ مرة أخرى ! ــ كل ما عرفه عن هذه القاطرة، فغمغم نديم :

«طاهر عاوزنا نضرب هنا بأى ثمن!!»

....

....

لم يكن الدخول إلى الميناء صعباً... هبط نديم من السيارة التى كان يقودها أحد موظفى شركة سليم أبو فودة، دخلت السيارة إلى الميناء بسهولة، وتوجهت على الفور إلى رصيف بعيد شبه مهجور ترسو عليه سفن وقوارب قديمة ومتآكلة الأجساد محطمة الألات... كان الغرض المعلن من الزيارة، معاينة إحدى سفن الصيد التى تعطلت من منذ شهور، وتحتاج إلى إصلاح، ويريد السيد سليم أبوفودة شراءها!

وقف نديم فوق السطح المائل لهذه السفينة الصغيرة، وألقى ببصره إلى بعيد، ضمت عيناه جسد الحفار بأبراجه الأربعة المرتفعة فى الهواء... كانت المسافة بين السفينة — التى اتفق على أن تكون هى نقطة انطلاق الضفادع البشرية — والحفار تزيد على الثمانمائة ياردة... كانت هذه المسافة فى خط مستقيم، أما الطريق إلى الحفار فكانت تعترضه أرصفة وسفن ولنشات ومنشآت وقوارب... لم يكن نديم يستطيع أن يقول كلمته الأخيرة قبل أن يعرف رأى رجال الضفادع البشرية... تذكر أن خليفة جودت — قائد الرجال — سوف يصل فى السادسة من صباح الغد... التفت نحو الموظف قائلا:

«أنا محتاج معاينة ثانية!»

«تحت أمرك!»

«المسافة من المطار لحد هنا قد إيه؟!»

«نص ساعة!»

«يبقى تعمل حسابك أننا نعمل معاينة بكرة الساعة سبعة الصبح!»

وعندما غادر نديم سفينة الصيد كان مهموما، ألقى نظرة هنا ونظرة هناك... كان الموقع المختار مثاليا بالنسبة للميناء والدخول والأمن والانطلاق، لكنه قد لا يكون كذلك بالنسبة للرجال... ترى ما الذى اكتشفه طاهر رسمى بخصوص القاطرة «آلبى» والذى لابد دفعه لإرسال مثل تلك البرقية... عاين الباشا الحفار من قرب واستطاع أن يحدد بالضبط أماكن الحراسة فوقه ومن حوله، تطابقت أقوال الباشا مع أقوال فرناندو بالديرا، إذن فالإسرائيليون لم يغيروا من نظام الحراسة شيئاً... ولو استطاع الرجال أن يعبروا هذا الطريق الطويل فى الظلام وتحت المياه، فلسوف يتمكنون من الحفار... ولن تصيب الانفجارات أياً من زوارق الطوربيد الفرنسية، فلسوف يتم التفجير تحت المياه فلن يصيب سوى الحفار، ثم... هناك رصيف يبلغ عرضه أكثر من خمسين متراً يفصل بين الزوارق والحفار... سوف تكون ضربة ناجحة... ولكن، لا قرار قبل وصول «خليفة جودت»!

• • •

كان معروفا عن رجل الأعمال السورى الأصل «سليم أبو فودة» إنه يتناول عشاءه فى السادسة مساء... ذلك أنه يحب أن يأوى إلى فراشة مبكراً حتى يستيقظ قبل الفجر، ويستغل ساعات الصباح فى العمل قبل هجوم الحر اللافح... ولذلك، فقبل السابعة بقليل، انتهى العشاء الذى أقامه لكبير مهندسيه الجديد «سليمان عبد البر محمود» فى مطعم الفندق الذى ينزل به، والذى دعا اليه عدداً

قليلا من كبار موظفى شركته، واثنين من المهندسين أحدهما إيطالى والآخر فرنسى.

انتهى العشاء وغادر الضيوف الحفل، كما صعد المهندس سليمان إلى غرفته التى لم يكن فى حاجة إلى الكثير من الجهد ليكتشف أنها فتشت تفتيشا دقيقاً ومحترفاً... فابتسم وهو يرفع سماعة التليفون ويطلب من عاملة السويتش أن توقظه فى الرابعة صباحاً... وكان هذا يعنى – بلا تفاصيل – أم الغرفة فتشت، وأن الذين قاموا بالتفتيش محترفون... أعاد السماعة وبدل ملابسه ودس نفسه فى الفراش وراح فى نوم عميق!

أما السيد سليم أبو فودة، فلقد عاد من الفندق إلى قصره الصغير الذى يطل من فوق رابية عالية، على المحيط مباشرة!

وعندما وصل إلى القصر كانت الساعة قد تجاوزت السابعة بقليل... وفى ذلك الوقت، وصلت سيارة فرنسية صغيرة إلى منطقة معينة من الشاطىء لا تبعد كثيراً عن قصر سليم أبو فودة... كانت الشمس تميل نحو الغرب وقد لامس قرصها مياه الأفق البعيد، وصبغ لون الشمس القانى مياه المحيط فتحولت إلى كرة بللورية ساحرة... توقفت السيارة فساد السكون وران الصمت إلا من همسات المياه وهى تتمرغ على صدر الشاطىء الرملى فى مداعبة كانت تضيف إلى الجو روعة أسطورية... هذه هى أفريقيا، إنها ليست سوداء كما يقولون، إنها أسطورية، ورائعة، وغنية، وجميلة... فى داخل السيارة كان نديم يجلس بجوار الشاب الذى صمت لثوان، ثم فتح الباب المجاور له قائلا:

« اتفضل أخى! »

راح الشاب يخترق الطريق بين عيدان نباتات تنمو بكثافة على الشواطئ فى موسم الأمطار، تبعه نديم وهو يهبط منحدراً شديداً ومتعرجاً أوصله إلى الشاطئ الرملى... سار الرجلان عند سفح الربوة حوالى مائتى ياردة، انحنى بعدها الشاب إلى الأمام ودفع بابا مصنوعاً من سيقان النبات حتى لا يعرفه إلا من يعرف أمره... سار نديم خلفه فى ممر ممهد وسط شجيرات صغيرة لنبات لا يؤكل ثمره... ضاق الممر قليلا ثم انفرج عن باب خشبى فى السور الجانبى للقصر، بمفتاح خاص فتح الشاب الباب ودخل فتبعه نديم... على بعد مائة ياردة، كان ثمة مرتفع صغير، فوقه مائدة رصت فوقها أطباق الطعام... ولم يكن هناك سوى سليم أبو فودة... وعندما وصل إليه نديم وتصافح الرجلان فى حرارة، كانت الشمس قد غربت تماماً، تاركة وراءها على مياه المحيط، هذا اللون القرمزى الساحر!

انصرف الشاب وكانت الجلسة بين الرجلين هادئة... وجامل سليم ضيفه بأن تحدث معه مباشرة، بالعامية المصرية...

« أنا قلت أحضر لك لقمة تاكلها... انت أكيد ما أكلتش طول النهار! »

ضحك نديم وهو ينقض على الطعام، فلقد كان جائعا... وراح الرجلان يتحدثان فى كل الأمور، أراد سليم أن يعرف - ولم تكن هذه هى عادته - ما الذى يفعله المصريون فى دكار حقاً... إن الظنون تروح به وتغدو لكنه...

« تفتكر حانيجى هنا دلوقت نعمل إيه ياسليم بك!! »

« الحفار ؟! »

« عشرة على عشرة »

ساد الصمت بين الرجلين فلقد غرق سليم فى التفكير، وانغمس نديم فى الطعام، وكان بين الحين والحين يختطف نظرة من وجه الرجل الذى كان الآن ينظر نحو المحيط نظرة من ألف الحديث مع المياه... وفجأة... قال سليم:

« أنا شربت القهوة مع السفير السورى النهاردة العصر! »

رفع نديم رأسه نحو الرجل، أيقن أن وراء ما قاله السفير خبراً، فتوقف عن الطعام منتظراً... استطرد سليم بعدها فى كلمات واضحة وفى صوت جلى النبرات:

« أصل السفير كان بيزور وزير الداخلية النهاردة الصبح! »

توقفت يدا نديم عن الحركة، جمد فى مكانه وهو يحملق فى سليم:

« الوزير مندهش من عدد المصريين اللى دخلوا دكار فى الأسبوع الأخير! »

كانت الرسالة شديدة الوضوح، فكف نديم عن الطعام!!

• • •

فى ذلك الوقت دقت ساعة جامعة القاهرة تمام العاشرة والنصف مساء، وتوقفت أمام بيت أمين هويدى ـ مدير المخابرات المصرية ـ فى مصر الجديدة، سيارة مرسيدس سوداء من ذلك النوع الكبير الذى لا يوجد منه فى مصر سوى عدد ضئيل، أغلبه فى رياسة الجمهورية... كان الوزير مريضاً، وكان طبيعيا

أن يزوره مجموعة من ولاة الأمور والوزراء... هبط من السيارة خمسة شبان لم تكن ملامحهم واضحة فى الإضاءة القليلة فى الشارع... بجوار الشرطى الذى عادة ما يحرس بيوت الوزراء فى مصر، كان ثمة حارس يرتدى الملابس المدنية، تقدم الحارس منهم وصافحهم وقادهم إلى الباب، فتح الباب فأستقبل الشبان الأربعة خادم ريفى طيب الملامح، رحب بالضيوف وقادهم إلى الصالون البسيط الذى يواجه مدخل البيت... تركهم لدقيقتين، ظهر بعدها مدير المخابرات وهو يرتدى الروب ويمسك فى يده منديلا أبيض، وفى اليد الأخرى صندوقاً للمناديل الورقية... وقف الشبان لتحيته فانتابته نوبة سعال حادة... ظل الرجل واقفاً عند باب الغرفة لا يقترب، حتى استطاع التنفس، فقال:

« بلاش أسلم عليكم علشان العدوى! »

كان الشبان الخمسة هم: الرائد خليفة جودت قائد المجموعة التى وقع الاختيار عليها للتنفيذ وهم: الملازم، والعريف، والمتدين ثم القرش... ساد الصمت لثوان كان المدير يبحث فيها عن مقعد بعيد، لكنه ما لبث أن هتف فى تذمر المريض:

« ياعم مصطفى! »

« نعم يابنى! »

ظهر الخادم إلى جواره فوراً، فقال هويدى مداعبا:

« مش تخلى بالك منى شويه... أنا عيان! »

« أنت تؤمر! »

« حط لى كرسى هنا بعيد عنهم علشان ما يخدوش عدوى منى! »

وضع الخادم المقعد فى مدخل الغرفة ، فغمغم المدير بلهجة جاءت ريفية رغماً عنه : « الشاى ! »

وهرول عم مصطفى ليحضر الشاى ، وجذب هويدى الباب المنزلق فأغلقت الغرفة .

تلك لحظات صمت لابد منها ، بدا فيها مريضاً حقاً ، لكنه قال فجأة :

« أنا عارف انتوا تعبتوا قد إيه ، وعارف كمان قيمة إنكم لحد دلوقت ماتعرفوش انتوا مسافرين فين ولا رايحين تعملوا إيه ؟! »

بدا وكأن أمين هويدى لا يجد مايقوله ، فلقد نظر فى ساعته بغتة ، ومال نحو خليفة قائلا :

« الأخ ... ... »

ولم يكمل ، سدد إليه نظراته واستطرد :

« اسم الكريم إيه ؟! »

فورا رد خليفة فى لهجة أردنية واضحة :

« محمد عويدات سيدى ! »

« الأخ محمد عويدات مسافر دلوقت ، حايسبقكم ، بعد نص ساعة حايكون فى المطار ... وأى حاجه حاتكون ناقصة هو حايكملها قبل وصولكم ، يعنى باختصار ... انتوا حاتوصلوا علشان تلاقوا كل حاجة جاهزة ، وحمايتكم قبل أى حاجة ثانية ! »

أحس هويدى أن المرض يمنعه من التعبير عن نفسه لكنه استمر :

« كل اللى أقدر أقوله إن البلد حطت وراكم كل إمكانياتها ... ورحلتكم بيتخطط لها من أسابيع طويلة ، كل حركة فيها مدروسة ومعتنى بها لأقصى درجات الأعتناء ، أنا بس مش عاوزكم تنفذوا المهمة بنجاح ، أنا عاوزكم ترجعوا لنا بالسلامة ... أنتوا ... انتوا ثروة قومية وطنكم بيعتز بيها ، وإذا كنتوا في عنينا ، لازم مصر تكون فى عينيكم !! »

صمت المدير فجاشت نفوس الرجال ... وتساءل القرش بينه وبين نفسه ، إذا كان المدير لايعرفهم ولايعرف أسماءهم ، فكيف عرف أن الرائد خليفة هو القائد ، وهو الذى سيسافر بعد نصف ساعة ؟! ...

« كان لازم أشوفكم ... كان لازم ! »

هكذا قال هويدى وكأنه يعتذر عن عدم قدرته على التعبير عن نفسه .

«ومعنديش حاجة أقولها غير ربنا معاكم ! »

ولم يكن المدير فى حقيقة الأمر فى حاجة إلى حديث ، كان الرجال يشعرون به ، بمسئولياته ، بمرضه ، كان اللقاء ، فقط هذا اللقاء ، وتلك الجلسة ، وذلك الإحساس الذى جمعهم ، كفيل بأن يلهب مشاعر الرجال .

نهض أمين هويدى محاولاً أن ينفض عنه المرض ، وواجه الرجال بصوته المجروح :

« أشوفكم إن شاء الله بخير ... مع السلامة يارجاله ! »

ثم مد يده ودفع الباب المنزلق.. وكان عم مصطفى يحمل صينية الشاى على الجانب الآخر منه !

• • •

صعد الرائد خليفة جودت، أو المواطن الأردنى محمد عويدات، إلى إحدى الطائرات المتجهة إلى المغرب، وكانت الساعة تقترب حثيثاً من منتصف الليل... فى يده حقيبة «هاندباج» بها بعض الملابس الخاصة، كما كان موقناً أن رحلته لن تتوقف إلا فى دكار بالسنغال... لم يعرف شيئاً عن وجهته إلا عندما أصبح داخل مطار القاهرة الدولى، دخل من باب جانبى، وأخذ إلى غرفة حكومية من غرف المطار، سلمه أحد الرجال جواز سفره الجديد، والغريب أنه كان جوازا مستعملا... قال له إنه سيركب طائرة متجهة إلى الرباط ليصل إليها فى حوالى الثالثة والنصف... وأنه سيجد فى المطار ضابط مخابرات مغربياً إسمه «بوصابر» سيصحبه إلى طائرة أخرى متجهة إلى دكار، ليكون هناك فى تمام السادسة صباحاً بتوقيت السنغال!... وأن عليه فى كل مراحل الرحلة، ومهما كانت الظروف، ألا يصنع شيئاً سوى انتظار من سيأتى إليه، ذلك أنه سوف يجد كل شىء معداً لاستقباله على أحسن وجه!

كان الرائد خليفة جودت واحداً من أفذاذ الضفادع البشرية الذين عرفتهم مصر... ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يعهد إليه بعمل مثل هذا... ولذلك، وعندما صعد إلى الطائرة، لم يفكر فى أى شى سوى وجبة الطعام التى سيقدمونها، هل ستكفيه ؟!.. وهل من حقه أن يطلب وجبة أخرى ؟!... ولما

جاءت الوجبة، التهمها فى ثوان، وكانت المفاجأة، أن المضيفة رفعت الصينية الصغيرة الفارغة من أمامه، ووضعت مكانها واحدة أخرى، ثم همست:

« إذا حبيت طبق ثالث أطلب ماتتكسفش ! »

والتهم الوجبة الأخرى، ثم وضع رأسه فوق المسند... ونام !!!

• • •

بدأ الموقف للرجلين شديد التعقيد!

كان نديم قلب الأسد يقف الآن، وفى اللحظة التى كان خليفة جودت يحلق فيها على ارتفاع عشرات الألوف من الأقدام فوق سطح الأرض... فى بدروم الفيللا التى اختيرت فى تلك الضاحية الراقية فى دكار... كان يقف مع الباشا وهما ينقلان البصر هنا وهناك، فى ذلك البدروم الذى أعد لاستقبال الرجال ابتداء من اليوم... كانت المعدات قد خرجت من مكمنها، وكل بذلة غطس، وضعت فوق سرير صاحبها، معها زعانفه ومعداته وكشافه وخنجره.

« أنا شايف إن الخناجر ملهاش لازمة ! »

هكذا قال الباشا، فرد نديم:

«وأنا ما أقدرش أنزلهم فى مهمة زى دى من غير سلاح، وعلى الواحد منهم، عند أى اعتراض فى أثناء التنفيذ أوبعده، إنه يتصرف وبسرعة ! »

كان قلب الأسد الآن يطفو على السطح ليحتل المساحة كاملة... كل شىء جاهز الآن تماماً، لكن المناقشة لم تكف لحظة بين الرجلين... ولقد كان الباشا يعلم أن الكلمة الأخيرة هنا، لنديم، ولذلك فلم يتوان فى تقديم العون بالصورة التى يحبها نديم أو يراها... ومنذ ساعة كان الباشا هناك - بأسلوب أو

بآخر - يعاين الحفار للمرة الثالثة عن قرب ... وتأكد هذه المرة أن الاسترخاء كان هو السمة الرئيسية للاسرائيليين ... كان رأى الباشا أن الخطة قد أفلحت، وأن عدم ظهور أى رد فعل لاختطاف ليز ونورمان، قد جاء بنتيجة رائعة ... إن أعصاب الإسرائيليين الآن أصبحت أكثر هدوءاً، ولقد سمح الحراس عصر اليوم لبعض الباعة من الوطنيين من الاقتراب من القاطرة ليبيعوا بعض ما حملوه من بضائع.

جاءتهما الأخبار منذ ساعة أويزيد قليلا أن ليز ونورمان - رغم عدم وصول رسالة طاهر إليهما بالاستسلام وعدم الاهتمام - قد تصرفا وكأن الرسالة قد وصلت فعلا، فهما لم يبذلا أى جهد للمقاومة فى أثناء عملية الاختطاف، بل لقد أصابهما ارتباك قد يكون حقيقيا ... وإنهما استسلما لسارة جولدشتاين وديڤيد ليقنجر استسلام من لا يفهم ومن فقد الحيلة فى نفس الوقت ... ولابد أن الإسرائيليين حاولوا استجوابهما وخرجوا صفر اليدين ... ثم ... ثم ذلك المهندس الذى فتشت غرفته تفتيشا دقيقاً ومحترفاً ولم يبد عليه أنه لاحظ شيئاً، وأوى إلى فراشه طالباً إيقاظه فى الرابعة صباحاً ... ولقد وصل المواطن إبراهيم سيد فرج الله فى أثناء الحوار بنبأ يدعم ما ذهب إليه الباشا ... قال إن «سارة جولدشتاين» شوهدت فى مطعم فندق كبير، وهى تتناول العشاء وحدها، وأنها كانت تبدو -على غير عادتها- هادئة تماماً، بدا هذا واضحا فى الأربعة كئوس من النبيذ الفرنسى التى احتستها فى أثناء العشاء بلذة واضحة!

استمع نديم لكل هذا فهتف:

« يالله بينا ! »

سأله الباشا:

« على فين ؟! »

« عاوز أشوف الحفار يا شوكت ! »

« تانى !! »

هكذا صاح الباشا ضاحكا، وهو يستعد لمرافقة نديم!

• • •

همس الباشا مازحاً:

« تيجى نشتغل فى السينما يانديم ؟! »

« اشمعنى ؟! »

« اللى أحنا عاملينه ده، مابيتعملش إلا فى السينما ! »

كانت بالفعل فكرة خيالية، لكنها قربتهما من الحفار بجرأة يحسدان عليها، وتعرضهما لخطر محقق ... كانا الآن يجلسان فى أحد قوارب الصيادين الذى استعاراه لساعة واحدة نظير مبلغ محترم من الفرنكات الفرنسية ... وقد دهنا جسديهما باللون الأسود حتى أصبحا فى تلك الملابس الوطنية المميزة التى يرتديها عمال الميناء، سنغاليان يسعيان وراء لقمة عيش حتى ولو كان الليل قد انتصف منذ ساعة وبعض الساعة ... كان شوكت قد صور الحفار من قبل، ولكنه عاد يصوره الآن مرة أخرى، ورغم أن نديم قال له إن: « الصور مش حاتطلع »، فإن الباشا لم يتوقف عن التصوير، بينما كانت عينا نديم تدرسان كل موقع، وكل مكان، وكل زاوية، وكل ظاهرة من حول الحفار أو فوقه ...

كانت الصورة الآن مطابقة تماما لخياله الذى ظل يرسم فيه، وفى دأب، طوال الأسابيع التى مضت!

....

....

بعد ذلك بساعة، تغامز موظفو الفندق الذى ينزل فيه السيد عصمت كارجى رجل الأعمال التركى... فلقد عاد الرجل الى الفندق مترنحاً كمن شرب برميلا من الخمر... كان يترنح فى وقفته وفى سيره تفوح منه رائحة خمر قوية... وعندما طلب مفتاح غرفته من موظف الاستقبال، ذكره هذا فى أدب أن الآنسة ليليان فى الغرفة لم تغادرها... ولوح كارجى بيده فى ضيق، وترنح حتى وصل إلى المصعد، واختفى فيه!!

....

....

أما نديم هاشم فلقد حاول النوم دون جدوى.. أطفأ النور، وأغمض عينيه، وراح يعيد ترتيب الأمور فى ذهنه من جديد، استعدادا لاستقبال خليفة القادم بعد ساعتين على الأكثر!

كان نديم... قد اتخذ قراره بالتنفيذ.

....

....

كانت الساعة تشير إلى السابعة وخمس دقائق عندما تسلل نديم مع خليفة جودت، الذى كان قد وصل إلى دكار منذ ساعة واحدة، إلى ذلك القارب

المائل... زحف الرجلان على السطح حتى وصلا إلى مكان مناسب، أشار نديم نحو الحفار دون كلمة، فساد الصمت!

ثم بدأ نديم الحديث بعد ذلك فى صوت خافت وكلمات واضحة وبذهن مرتب تماماً، ذكر لخليفة كل شىء عن المنطقة، ذكر له نتيجة معاينة الباشا، والمواطن إبراهيم، ثم بعض تلك المعلومات الثمينة التى نجدها دائما عند المتطوعين تفضلاً أو بالأجر!

وعاد الصمت بين الرجلين مرة أخرى.

فى هدوء خلع خليفة سترته، فتح صدر قميصه، أخذ من قاع القارب كتلة من الأوساخ راح يكسو بها ملابسه، مزق سرواله، خلع حذاءه وشرابه، طلب من نديم أن يمزق له ظهر القميص ففعل... غادر السفينة إلى الرصيف وقد بدا بشعره القذر ومشيته العرجاء كواحد من المتسولين الذين يبحثون فى تلك الأماكن عن شىء يسد رمقهم، فى كل خطوة كان يقيس زاوية الرؤية بالنسبة للحفار، حتى إذا ما وصل إلى الزاوية التى يبغيها، وجد هناك قارباً قديماً، فركع على الأرض، وتظاهر بأنه يقضى حاجته!!!

وفى جلسته تلك، كان يرى الحفار كاملاً!

وعندما عاد خليفة إلى القارب، قال لنديم: إنه تعود على أسلوبهم جيداً، فهم دائماً ـ حراس السفن الإسرائيلية ـ ما يحملون نظارات معظمة تكشف المساحة فى دائرة واسعة من حولهم، وإن أى شىء، مهما كان تافها، كفيل بأن يجعلهم يتحركون وبسرعة.

ثم لزم خليفة الصمت حتى عاد مع نديم إلى السيارة ... لم يكن هذا الأخير قد انبأه بعزمه على التنفيذ، كان فى الحقيقة، وقبل أن يعلن، يريد أن يسمع.

« عاوز تنفذ أمتى ؟! »

تنفس نديم الصعداء، وابتسم:

« بكره قبل أول ضوء ! »

« على بركة الله ! »

وهكذا اتخذ قرار تدمير الحفار « كينتنج » !

• • •

ما إن طلع النهار وسبحت الشمس إلى كبد السماء، حتى شهدت دكار حركة غير عادية ... وقص بعض عمال الميناء قصصا حول ذلك التوتر الذى أحاط بالحفار « كينتنج » والقاطرة « چاكوب ڤان هيموكيرا » ... وتضاحك بعض الوطنيين من عمال السفن وهم يحكون عن تلك السيدة الشرسة التى كانت تصدر الأوامر ذات اليمين وذات الشمال وبلا توقف وفى عصبية فائقة.

كان العمل فى العطب الذى أصيبت به القاطرة فى أثناء عبورها المحيط، وبعد مغادرتها جزر الأزورس وسط عاصفة عاتية، يتم ليل نهار دون توقف، ومنذ وصول القاطرة والحفار ... غير أن بعض العالمين ببواطن الأمور، والقادرين على رصد الحركات فى تلك العاصمة، قالوا: إن هذا التوتر الشديد، لم يظهر بصورته الملحوظة إلا بعد أن هبط إلى مطار دكار موظفان شابان: أحدهما مغربى والآخر فلسطينى تابعين لإحدى شركات الملاحة المغربية ... ولقد توجها فوراً إلى مكتب

المتعهد الموكل إليه أمر سفن هذه الشركة ... ثم، وبعد ساعتين، وصل شاب مصرى على إحدى طائرات شركة أخرى للطيران قادماً من روما ... وكان هذا الشاب على موعد مع أحد الوزراء فى السنغال، فى نفس اليوم، لمناقشة إمكانية أفتتاح خط جديد لطائرات شركة مصر للطيران الذى كان الشاب مندوباً عنها ... وعلى شركة طيران ثالثة ... وصل شاب لبنانى رقيق أسمه « مازن الشدياق »، وكان أول ما فعله أن تحدث فى التليفون من المطار طالباً قريبه خليل المرعبى الذى يعمل فى السنغال منذ عام واحد ... وطلب خليل من قريبه أن يركب سيارة أجرة، وأملاه عنوانه بالتليفون.

....

....

وفى ذلك اليوم استيقظ رجل الأعمال التركى عصمت كارجى من النوم متأخراً، وطلب الأفطار فى غرفته ... وعندما دخل الخادم بالإفطار عليه، كان لايزال راقداً فى الفراش يعانى من صداع شديد ... وكانت مس ليليان تقدم له كوباً من اللبن وحبتى أسبرين، وكانت تؤنبه بفرنسية باريسية اللهجة على إفراطه فى الشراب، وكادا يتعاركان، وسمعه خادم الفندق بعد أن جهز مائدة الإفطار وهمّ بالخروج، سمعه يطلب من صديقته أن تأمر السويتش بألا يحول إليه مكالمات ... قال هذا ثم أردف:

« إنى فى حاجة للراحة ولو ليوم واحد ! »

وأخفى الخادم ابتسامته وهو يغادر الغرفة.

ما إن غادر الخادم الغرفة حتى قفز الباشا من فراشة بنشاط شديد، واندفعت

ليليان نحو باب الغرفة كى تغلقه بالمزلاج ، كانا يتحركان بسرعة شديدة وهى تساعده فى ارتداء ملابس تبدو غريبة الشكل ... ثم ، وبينما هما منهمكين ... دق جرس التليفون .

ساد الصمت فى الغرفة إلا من رنين الجرس ، لم تكن ليليان قد أبلغت السويتش بعد بعدم تحويل أية مكالمات للغرفة ، فقال الباشا :

« ردى على التليفون ... أنا عيان ! »

....

....

أما المهندس سليمان عبد البر محمود ، فلقد قضى يومه كله ، من الصباح الباكر إلى قرب الغروب بين الآلات فى المعصرة ، كان يفحص ويناقش ويدرس ويجهز لعمل شاق لابد أن يبدأ من الغد ... وطوال اليوم ، لم يختف سليمان عن عيون الموظفين والعمال والمهندسين ، وزوار أجانب جاءوا ليلقوا نظرة ، وسمح لهم بالدخول ببساطة ، ووقفوا دقائق ، كان أحدهم يرمق المهندس سليمان فى إمعان ... حتى إذا انتهى يومه ، أعادته سيارة الشركة إلى الفندق فوراً ... وكان الرجل فى حاجة إلى حمام ساخن ، طلب بعده العشاء فى غرفته ، ثم آوى إلى فراشه !

....

....

ها هى اللحظة الرهيبة تقترب ... كل دقيقة ، بل كان ثانية تمضى من عمر

الزمن ، تقصر المسافة بين الرجال وبين المهمة الموكولة إليهم ... فى الثالثة صـ ا ، كان بدروم الفيلا يغص بما فيه من حركة ورجال ، ولكن دون صوت ، وإذا ما تحدث أحد تحدث بصوت شديد الخفوت ... وبرغم أن البدروم لم تكن له نوافـ على الطريق ، فإن الأضاءة فيه كانت خافته ... وكان رجال الضفادع البشرية - القرش والعريف والمتدين والملازم ، أى الفلسطينى والمغربى والمصرى واللبنانى الذين وصلوا صباح اليوم - يقفون حول مائدة صغيرة تتوسط المكان ، فردت عليها مجموعة من الخرائط ... وكان نديم ومعه خليفة ، يشرحان لهم كل ما يحتاجون إليه من معلومات ... كان على كل رجل منهم أن يحمل عبوة ناسفة ، وأن يضعها فى مكان معين من قاع الحفار ... جذب نديم خريطة هندسية تبين تركيب قاع الحفار ، وكان قد ذاكرها فى مصر حتى حفظها عن ظهر قلب ، وراح يشرح لكل منهم المكان الخاص به ... كان الرجال يستمعون فى صمت وتركيز ، حتى إذا انتهى نديم ، وجه إليهم ذلك السؤال التقليدى :

« حد عنده أسئلة ؟! »

وساد السكون تماماً ، ساد لفترة طالت حتى جثمت على صدر نديم الذى نظر فى ساعته ولم يكن باقياً على موعد بدء الحركة أكثر من خمس دقائق ، جاشت نفسه بعشرات الانفعالات ، وجاء صوته أجشّ :

« الحفار ده إسرائيل اشترته علشان تذلنا بيه ! »

عاد الصمت يجثم على المكان إلا من صدى صوت الرجل بين الحيطان العارية :

« وحتى لو كانت عايزاه علشان البترول ... البترول ده بتاعنا ، فى أرضنا ! »

لمح نديم طبقة رقيقة من الدمع فى عينى الملازم ، فعصفت به الانفعالات فجأة :

« أنا عارف إنكم مش محتاجين للكلام ده ... ... »

أرغم نفسه على التوقف عن الحديث ، كان انفعاله كالإعصار يكتسح فى داخله كل جمود ، وهاهى اللحظة التى عاش لها وبها ومن أجلها ثلاثة أشهر كاملة تأتى ، وها هو الحفار على مرمى حجر من يده ... وها هو كل شيء يبدو مكتملا إلى حد يصعب تصديقه ... ابتلع انفعاله وتغلب عليه مع السيجارة التى أشعلها ، ثم نفث الدخان فأستعاد نفسه ، وعاد يقول بصوت مبلل بدمع داخلى :

« أنا عارف انكم مش محتاجين للكلام ده ... بس ... أنا لازم أقوله ! »

فى صوت خافت هادئ كأنه الهمس ، قال الملازم :

« تحيا مصر ! »

وكان هذا فوق قدرة نديم على الاحتمال ! فأشاح عن الرجال خاطيا إلى بعيد وهو يردد معهم الهتاف :

« تحيا مصر ! »

• • •

و ... و ...

وحانت لحظة الرحيل ، كان الرجال جميعا ، يرتدون ملابس من تلك التى

يرتديها البحارة فى كل العالم ... وكان عليهم أن يفترقوا فى ثلاث جماعات صغيرة تلتقى جميعها عند سفينة الصيد تلك المائلة على رصيف مهجور فى أطراف الميناء .

وضع نديم خطة شديدة التعقيد للدخول إلى الميناء ، كان يدرك أن توتر الإسرائيليين الذى عاد بعد الهدوء ، وراءه ما وراءه ... وأنهم الأن سيتحولون إلى وحوش ضارية ... ولابد أنهم وضعوا عيونهم فى كل مكان ، عند بوابات الميناء وفى مكاتبها وفى داخلها وعلى أرصفتها ... وكان لابد للرجال من أن يدخلوا الميناء بسلام ، ودون أن يلفتوا نظر أشد الناس ذكاء !

....

....

فى الثالثة والنصف تماماً ... تسلل نديم مع خليفة من الحديقة الخلفية للفيللا ... قفزا السور فى خفة وعبرا الطريق فى خطوات قافزة ... اختفيا داخل شوارع الضاحية وراحا يخترقانها حسب خط سير معين ، حتى إذا وصلا إلى ناصية عندها صندوق بريد ، توقفا أمام الصندوق ، نظر كل منها فى ناحية ، ثم اندفعا نحو أبواب السيارة المفتوحة التى لم تكن تبعد عنها بأكثر من خمس ياردات !

بعد عشر دقائق بالضبط ، تحركت سيارة أسبور من أمام الفيللا مباشرة ، وكان يقودها شاب صغير لابد أن عائلته من الأثرياء ، وبجواره شاب أخر — خلف

الشابين ــ مقرفصا فى الدواسة ، كان ثمة شاب ينظر إلى الطريق من خلال مقعدى الشابين ، وهو يدل السائق على الاتجاه ... كان الشابان ، هما الملازم والقرش !

وتسلل المتدين والعريف إلى جراج الفيللا ، فتح المتدين النافذة الخلفية للجراج ، وأطل منها إلى الخارج ... ظل لثوان طالت بعض الشىء ، لكنه مالبث أن قفز إلى الخارج ، ومن بعده قفز العريف ... انحرفا يساراً ولزما السير بجوار أسوار القصور الصغيرة حتى نهاية الشارع ، وتحت شجرة وارفة تلقى بظلالها الكثيفة على الأرض ، كان ثمة سيارة لا يكاد المار أن يراها ، فلونها كان فى لون الليل أو الظل ... ماإن دخلاها حتى انطلقت هى الأخرى .

كانت الآن ثلاث سيارات تسعى فى شوارع دكار ، وكل منها تأخذ اتجاهاً مخالفاً ، وربما كان مضاداً ، لإتجاه السيارتين الاخريين .

....

....

وضع نديم نظارته المعظمة فوق عينيه ، وراح من مكمنه داخل سفينة الصيد المائلة ، يرقب الحفار قدماً بقدم ... فى قلب السفينة كان خليفة مشغولاً بتجهيز اللمسات الأخيرة لمعدات الرجال ... سمعا صوت خطوات ، فقفز خليفة كالفهد من مكانه وهو ينزع من منطقته خنجراً التمع نصله فى الظلام ... وتوارى نديم خلف حطام كابينة قيادة السفينة وقد انتزع مسدسه الذى ركب عليه كاتماً للصوت ... أصاخا السمع فإذا الخطوات تقترب ، نظر كل منهما فى ساعة يده

وكانت تشير إلى الرابعة وعشر دقائق ... كان القمر محاقا والظلام دامساً ... بعد ثوان اقتربت الخطوات أكثر ، وظهر شبحان يسيران على الرصيف فى خطوات طبيعية وثابتة ... قبل أن يصلا إلى القارب توقفاً ، وأشعل أحدهما سيجارة ، فتنفس نديم وخليفة الصعداء !

وصل القرش والملازم ... وبقى العريف والمتدين .

قال القرش وهو يرتدى ملابس الضفادع البشرية ، إنهما كادا يتوهان فى هذه الغابة من السفن والقوارب المحطمة ... وخف توتر نديم وخليفة وهما يستقبلان العريف والمتدين ... فى خفة ويسر من فعل هذا آلاف المرات من قبل ، ارتدى الرجال ملابسهم ومعداتهم ...

راح خليفة يتمم على ملابس كل فرد ... فقال فى أثناء عمله :

« المسافة من هنا لحد الحفار مش طويلة وبس ، دى طويلة ومليانة عقبات تحت الميه ... وإذا كانت مصر حطت كرامتها فى أيدينا ، فلازم نفهم قبل كده ، إن ايدينا دى هى اللى رفعت رأس مصر فى إيلات من كام أسبوع ! »

شق الأفق البعيد ضوء الصباح الخافت .

وكان الرجال فى وضع استعداد على الرصيف ... فى انتظار الأمر للنزول إلى المياه

« جاهزين يا رجالة ؟! »

هكذا قال نديم عندما هتف الملازم وهو يشير ناحية الحفار :

« مش ده الحفار ؟! »

التفتوا جميعاً، والتفت نديم!

كان الحفار هناك بالفعل، فى مكانه، تغمره الأضواء، قال نديم:

« أيوه هو ده الحفار! »

« ده بيمشى يافندم! »

اندبت الكلمة فى قلب نديم كالنصل الحاد... عاد ينظر للحفار فلم يلحظ أنه يتحرك... هم بالحديث عندما دوت فى سماء الميناء صفارة متقطعة لسفينة، قال خليفة غير مصدق:

« دى صفارة قاطرة مش مركب يارجاله، مش كده! »

رد الملازم:

« ميه الميه! »

« الصفارة بتقول انهم ماشيين! »

أطلقت القاطرة صفارتها الثانية المتقطعة فصاح خليفة فى ضيق:

« ده بيقول مع السلامة! »

ولم ينطق أحد بعد ذلك بكلمة، ظلوا جامدين فى أماكنهم، وهم يشاهدون الحفار وهو يبحر خلف القاطرة مغادراً ميناء دكار إلى عرض المحيط الواسع!

١٢

٩ - الفصل التاسع

عملية اختطاف بارعة

« ... ... كان لابد وان يتم اختطاف ايخمان بأى ثمن، والخروج به من الأرجنتين... ولقد كلفنا هذا كثيراً من الصراع الداخلى... أما عنى، فلقد كان ضميرى مستريحاً للقيام بعملية سرية حتى ولو كانت فى دولة صديقة »!!!

« ايسار هاريل »

من كتاب:

بين شارع غاريبا لدى اختطاف رودولف ايخمان.

□ يبدو الحديث الآن وكأنه نوع من السباحة فى بحر ملىء بالألغام فى ليلة كان القمر فيها محاقا!!

الألغام هنا ليست ألغاماً قابلة للتفجير فقط، لكنها ترتفع إلى مستوى نوع من الأسرار التى تولد وتموت فى صدور أصحابها، وفى ملفات لا تصل إليها يد إلا للضرورة القصوى، وفى كتمان شديد!

وبرغم هذا فلا مفر من الخوض فى الحديث.. ولكن، على حذر بالغ... ذلك أن الأسئلة تفرض نفسها فرضاً علينا ونحن نقلب فى الأوراق والأقوال والأحداث معاً... نقارن بين ما أتيح لنا من معلومات وما لم يتح، ثم نستنتج فى محاولة للاقتراب من الحقيقة بقدر ما نستطيع من جهد... برغم أننا نعلم أن ما سوف نصل إليه لا يمكن ان يكون «إجابة» عن الأسئلة، كما أنه لا يمكن أن يرتفع إلى مستوى «المعلومة» اليقينية... لأنه فى البداية والنهاية ليس سوى «استنتاج» أو «اجتهاد»!

كما أنه لابد من التوقف لالتقاط الأنفاس كما توقف الرجال استعداداً لمرحلة أخرى وجولة قادمة... ولن يكون توقفنا للراحة أوالثرثرة، بل لرؤية الصورة كاملة والإلمام بها إلماما شاملا!

٢

كان المشهد فى فجر يوم ١٩ فبراير عام ١٩٧٠، على هذا الشاطىء الإفريقى البعيد فى ضوء فجر باهت يسعى حثيثا إلى هذا الجزء من كوكب الأرض.. مخيفاً تقشعر له الأبدان!! ستة من الرجال تسمروا فى أماكنهم ذاهلين، أربعة منهم يرتدون ملابس الضفادع البشرية السوداء مدججين بالسلاح والمتفجرات فبدوا وكأنهم أسماك متوحشة خرجت من قلب المحيط الذى كان اسمه ذات يوم «بحر الظلمات»!... ثم أثنان: أحدهما يرتدى ملابس خاصة تخفى خنجراً مرهف النصل من هذا النوع الذى يستعمله المحترفون... أما الثانى: فلقد غاب عن المشهد فى تيار عاصف من الأفكار... فهو، هو وحده الآن الذى كانت الأسئلة تنفجر فى رأسه كمدفع سريع الطلقات فى يد مجنون لا يعى... وهو، هو وحده الآن صاحب القرار، ومهما كانت مشاعره أوشكوكه أوانفعالاته، فثمة أرواح مصيرها فى كلمة قد تصدر عنه بلا روية فيحقق كارثة!!

بدا الحفار على البعد وهو يتبع القاطرة، كالأمل يتبدد فى الفضاء، سرى صوت آلآت القاطرة المكتوم فى سماء الميناء كالهدير البعيد... شبحان يتبع أحدهما الآخر، هدأت العاصفة فى المحيط ومرت، فاستكانت مياهه حتى الأفق ككرة بللورية فى عالم مسحور، وجاء صوت نديم مغموساً فى حزن لم يستطع كتمانه:

«يالله بينا يارجاله!»

... ...

... ...

كيف خرج الحفار؟!

ولم خرج فى هذا الوقت بالذات؟!

وما الذى دفع الإسرائيليين إلى التعجيل بالرحيل؟!

هل هى مصادفة؟!

أوأنه حدث مصنوع؟!

وإذا كانت المصادفة قائمة كحدث ممكن، فهل يصلح مثل هذا الحدث أن يكون «مصادفة»؟!

كانت كل المعلومات التى تجمعت لدى الرجال فى دكار تقول إن العطب الموجود فى القاطرة «چاكوب ڤان هيموكيراك» — نتيجة لإبحارها من جزيرة سان ميجل فى جو عاصف — يستلزم على الأقل أسبوعاً حتى يتم إصلاحه.. وهكذا راح المصريون يعملون بسرعة، ولكن فى هدوء وثقة... ذلك أن مصدر المعلومات لم يكن واحداً، بل كانت ثلاثة مصادر مختلفة، واحد منها من قلب الشركة التى تقوم بالإصلاح... فكيف أبحرت القاطرة وبها ما بها من عطب؟!... كيف أبحرت وهى تسحب من خلفها حفاراً يحتاج إلى آلآت قوية وسليمة ولا عطب فيها وفى هذا الوقت من السنة، حيث تنتاب المحيط نوبات هستيرية من العواصف والأمواج والرياح تدمر السفن وتتلاعب بها فى وحشية.. وإذا كان هذا ممكناً وهو — على المستوى الهندسى — ممكن بالقطع.. فلماذا خرج الحفار أصلا قبل أن يكتمل إصلاح القاطرة فيضمنون له السلامة؟! باختصار: هل عرف الإسرائيليون شيئاً؟!... هل «أحسوا» بالخطر يحوم من حولهم؟!... أو أنهم «عرفوا» أن الخطر يهددهم؟!

وإذا كانوا قد عرفوا أوحتى أحسوا بالخطر.. فمن الذى أمدهم بالمعلومة أوبالإحساس؟!!

إن أحداً لم يعرف بموعد التنفيذ سوى ثلاثة: اثنان منهم فى القاهرة، والثالث يقف الآن على الشاطىء تتقاذفه رياح الفكر بوحشية تعصف برأسه عصفاً وهو يرى الحفار يفلت من بين أصابعه كالقابض على المياه!!

ثم... هناك رابع علم أن العملية سوف تتم، وكان لابد أن يعلم فهكذا جرى العرف وهكذا التقاليد، لكنه ـ أبداً ـ لم يعلم بموعد التنفيذ... ذلك هو السفير المصرى فى السنغال!

وإذا كان السفير المصرى فى أى بلد من بلدان العالم هو المسئول عن المصريين فى هذا البلد، وإذا كان ممثلا أيضاً لبلاده، فلقد جرى «العرف» أن يأخذ السفير فى مثل هذه الحالات خبراً.

ولقد حدث هذا فى زيارة سريعة وسرية قام بها نديم هاشم لمقر السفارة فى اليوم السابق، التقى بالسفير الذى كان من هذا النوع من رجال الدبلوماسية المصرية التقليديين.. هو نوع من السفراء الذين تراهم فى الأفلام وبين سطور الكتب... رجل أنيق مهذب مثقف مجامل يعرف وزن كل كلمة تخرج من فمه، وهو يتقن عدداً لا بأس به من اللغات.. باختصار كان الرجل دبلوماسياً محترفاً!

كان اللقاء ودياً للغاية فى بداية الأمر، حتى إذا عرج نديم على الموضوع بدا التوتر يسود اللقاء، ثم.. وعندما واجهه نديم بما هو مقدم عليه، ثار السفير وغضب!

كان ما قاله السفير: إنهم ـ أى الدبلوماسيين ـ يبذلون فى ذلك الوقت بالذات جهودا مضنية كى يقيموا علاقات حسنة وطيبة نحن فى أشد الحاجة إليها مع كل دول العالم... وفى السنغال، فى غرب أفريقيا بالذات، كان السفراء المصريون يبذلون جهوداً كبيرة للسير بالعلاقات فى طريق بعيد عن الأشواك، خاصة وأن إسرائيل استطاعت أن تقيم مع بعض هذه الدول علاقات متينة بالفعل... ثم بعد كل هذا: «تيجوا انتوا تهدوا كل اللى احنا بنيناه؟!»

ولم يقل نديم شيئا، أعاد ما طرحه على السفير مرة أخرى... قال: إن المسألة مسألة كرامة مصر وأمن واقتصاد مصر وثروات مصر بل وأرض مصر... وإنه مقدر تماماً لكل ما يقوله السفير، ولذلك فهو يعده وعد شرف، أن أحدا لن يعرف أن المصريين هم الذين قاموا بالعملية وهو يلتزم أمام السفير بهذا الوعد، ثم قال أخيرا وقد شعر أن السفير لم يقتنع:

«وعلى كل دى أوامر يافندم!»

وغادره نديم، وكان السفير لا يزال متذمراً!

وحتى رجال الضفادع البشرية: خليفة جودت، والقرش والعريف، والمتدين ثم الملازم الذى كانت عيناه الآن تبرقان ببريق يصعب وصفه... حتى هؤلاء الرجال لم يعرفوا «هدفهم» ولا موعد التنفيذ ولا ما سيفعلون إلا منذ ساعة وبعض الساعة، وهم منذ أن عرفوا لم يغب أحدهم عن نديم أوأحد من زملائه!

هل وصل تعليق وزير الداخلية السنغالى للسفير السورى والذى ذكره سليم أبو فودة لنديم هاشم فى جلستها تلك فى حديقة قصره المطل على المحيط، هل وصل هذا التعليق إلى الإسرائيليين؟!.. هل تحدث وزير الداخلية فى هذا الموضوع،

مع أحد غير السفير السورى ؟!... وهل تحدث السفير السورى مع أحد غير سليم أبو فودة ؟!... أوأن الإسرائيليين استطاعوا ــ عبر ثغرة ما ــ أن يصلوا إلى استنتاج دفعهم دفعاً إلى الفرار؟!!

هل باحت إليزابيث ستيل أونورمان ويليامز، ولو بغلطة فى الحديث بمهمتها إلى ديفيد لينفجر وسارة جولد شتاين بعد اختطافها وتحت تهديد وضغط ؟!

أسئلة تجر أسئلة تولد أسئلة بلا نهاية!

ولقد كان المطلوب معرفة الحقيقة، بل لا بد من الوصول إليها... لكن نديم هاشم كان يعرف متى يركز تفكيره فى أمر ويزيح أمراً آخر مهما كانت خطورة شأنه إلى زاوية نسيان مؤقت.. لأنه كان لابد له من اتخاذ قرارات بعقل ثلجى، ولابد من اتخاذ هذه القرارات فى زحام حركة بدأت على الفور بعد ثوان من جملته تلك التى قالها للرجال فى حزن حاسم... بدأت الحركة على حسب خطة عدلت قليلا نتيجة لتغيير الوقت لإعادة الرجال إلى القاهرة فى نفس اليوم، رجلا وراء الآخر، ودون إثارة أى نوع من أنواع الشكوك أوحتى الأنتباه... فعلى مدار عشر ساعات غادر رجال الضفادع البشرية مطار دكار بجوازات سفر غير التى جاءوا بها... ووسط التفكير فى إعادة المتفجرات أونقلها أوالتخلص منها أيها أفضل، ثم بحث الخطط والخطط البديلة مع الباشا والمواطن ابراهيم سيد فرج الله الذى كان الأن يستعد لمغادرة السنغال... ثم أولا وقبل كل شيىء كان على نديم هاشم أن يجرى اتصالا بالقاهرة لإبلاغهم بالنبأ.. فهذه هى بالضرورة مهمته الأولى!!

• • •

٢

دق الجرس التليفون فى غرفة طاهر رسمى فانتفض طاهر وعزت معاً وكأنهما لدغا.. هبا واقفين برغم أن التليفون كان فى متناول يد أى منهما، التقت عيونهما فى نظرة صارخة.. هذه هى اللحظة التى انتظراها لساعات بعد ساعات، ومنذ أن أشرقت الشمس على القاهرة وقبل أن تشرق على دكار بثلاث ساعات وهما جالسان صامتان منتظران، لا ينطقان حرفاً، ولا يكفان معاً عن التدخين برغم أن عزت لا يدخن... وطوال ست ساعات طويلة ومضنية لم يدق التليفون سوى مرة واحدة، وكان المتحدث هو المدير... ألقى أمين هويدى تحية الصباح على طاهر وكان صوته مختنقاً ببقايا الأنفلونزا، ثم سأله عن الأخبار، فقال طاهر:

« مفيش ! »

« أنا فى المكتب. ابقى اطلبنى ! »

وانتهت المكالمة، وعاد الصمت يجثم كسحابة ثقيلة بلا مطر... ثم هاهى دقة الجرس الثانية تمزق حتى الذكرى القريبة، قبل أن تنتهى الدقة اختطف طاهر سماعة التليفون خطفاً ووضعها على أذنه ولم يقل شيئاً، بعد ثانية واحدة قال:

« تعال لى فوراً ! »

هذا هو الوقت بالضبط، وهاهى الأنباء تأتى إليه.. بالفشل أم بالنجاح ؟!

أعاد السماعة ثم قفز من مكانه متسائلا:

« ياترى عملوها ؟! »

فى هدوء بارد قال عزت بلال:

« ليه لأ ؟! »

التفت إليه طاهر:

« فيه مفاجأت واحتمالات ! »

بنفس الهدوء رد عزت :

«[illegible] خيرها فى غيرها ! »

فى [illegible] صاح طاهر :

« لا . مش ممكن . نديم أكيد عملها ! »

[illegible] ! »

[illegible] أن [illegible] أسلوب زميله وصديقه الثلجى هذا . هم بالتقدم نحوه [illegible] دقة [illegible] باب الغرفة فاندفع إلى الباب وفتحه بنفسه وأختطف الرسالة [illegible] الباب وعاد إلى المكتب وكان عزت فى إنتظاره ... وكانت هذه هى [illegible] الوحيدة التى اجتاح فيها الانفعال ملامح عزت ، الذى انكب [illegible] قرآن الرسالة الشفرية معاً ويحلان الشفرة فور القراءة فى رأسيها ! ... [illegible] ولم ينظر أحدهما إلى الآخر . قرآ الرموز فعرفا الحقيقة ولم يفه [illegible] فقط خيل لعزت بلال ــ هكذا قال فيما بعد مازحاً ــ إنه كان [illegible] طاهر [illegible] وهى تصرخ غضباً !!

[illegible] قال [illegible]

[illegible] الثانية !! »

[illegible]

[illegible] ويقدر فذة على تجاوز أية عقبة ــ بدأ الرجلان العمل ، فردا [illegible] ، ووصلت حرارة المناقشة إلى ذروتها فى ثوان ..

....

....

[illegible]

٢

كان أمام الحفار حتى يصل إلى رأس [illegible] جنوب أفريقيا ، حيث يصبح هناك [illegible] هائل من الموانى التى لابد له أن يدخل [illegible] الاقل [illegible] لابد وأن يُضرب فيها .

كانت هناك كوناكرى فى غينيا ، [illegible] ليبيريا ، أبيدجان فى ساحل العاج ، أكرا فى [illegible] ولاجوس فى نيجيريا ... ثم يبقى إحتمال ثامن وأخير ، وهو [illegible] ميناء بوانت نوار فى الكونغو برازڤيل !

وفى دقائق طالت بعض الشيء ناقش الرجلان [illegible] ليجدا نفسيهما يعودان إلى نقطة البداية ... وهى أن الحفار لابد وأن [illegible] أبيدجان بالذات !

وبالتأكيد فلقد كانت هناك أسباب أهمها تلك العلاقات [illegible] تربط حكومة ساحل العاج بالحكومة الإسرائيلية ... وكانت [illegible] الأيام بالضبط ، على وشك افتتاح فندق جديد فى أبيدجان اسمه [illegible] » كانت قد بنته عنوانا للصداقة بين البلدين ... وكان معنى هذا أن دخول [illegible] إلى أبيدجان سيكون محسوساً ومحسوباً ومصحوباً بعلامات استفهام و[illegible] بلا حدود !

وثانى هذه الأسباب هو تلك الزيارة المتوقعة فى خلال [illegible] الفضاء الأمريكيين ، وبالطبع ، فلسوف تكون هناك عيون [illegible] المخابرات المركزية الأمريكية فى المدينة كلها ، مما سيساعد بالقطع على [illegible] الحفار [illegible] بطريق غير مباشر .

أما السبب الثالث فهو القاطرة «آلبى» التى أخذت حاجتها من الوقود والمياه فى غاطس ميناء دكار، والتى كان المفروض أن تسحب الحفار من أبيدجان إلى البحر الأحمر بدلا من القاطرة «چاكوب ڤان هيموكيراك» ... ولقد جاءت الأنباء من هناك، من الصحفية الهولندية «لونابايرن» بالتحديد، تؤكد وصول هذه القاطرة «آلبى»، وتقول إنها تعرفت على قبطانها وبعض رجالها، وأن القاطرة رست على رصيف أحيط بحراسة تبدو غريبة ... ثم تساءلت لونا فى النهاية: إن كانوا متأكدين أن القاطرة المطلوبه هى «چاكوب ڤان هيموكيراك» وليست «آلبى» !!

كان أهم ما فى هذه الخطة الثانية، هى: لونابايرن.

وكان أهم ما فى الخطة الثالثة، هى البعثة السينمائية التى تضم الفنانة الشهيرة «دلال شوقى»

كانوا منغمسين فى العمل تماما عندما توقف عزت متسائلا:

«مش حاتقول للمدير!»

وصمت طاهر رسمى، لا تردداً، ولكن إشفاقاً على الرجل الذى غادر فراش المرض لأول مرة صباح اليوم.. لكنه سرعان ما حسم الأمر، رفع سماعة التليفون، طلب المدير، جاءه صوت أمين هويدى ملهوفاً:

«إيه الأخبار ياطاهر؟!»

«الشيخ سافر!!»

ران الصمت لثوان من الصعب أن تحسب، جاء بعدها صوت هويدى حاسماً:

«استمر»

وكان فى هذا الكفاية ... كل الكفاية!

• • •

منذ البداية تيقن طاهر رسمى من أن البروفسور إيزاك ديستان هو «ديڤيد ليڤنجر» رجل المخابرات الإسرائيلية الذى تخصص، منذ سنوات طويلة، فى أعمال الخطف والعنف ... والذى لم يكف برغم بلوغه الستين عن المشاركة فى العمليات الهامة التى تقوم بها المخابرات الإسرائيلية ... المشاركة بالتخطيط، والإشتراك أحياناً فى التنفيذ!

وبرغم أن «سارة جولد شتاين» أو «ليلى مسعود» أو «باربراهوفمان» تلميذته، فإنها استطاعت أن تثبت جدارتها فى القيام ببغض العمليات الصعبة وحدها، لذلك فهما لم يشتركا معاً فى عملية واحدة من قبل ... لم يحدث أن اشتركا فى عمل من تلك الأعمال التى تقوم بها إسرائيل لصالحها أولاً ثم لحساب بعض الحكومات المعينة فى أحيان أخرى ...

فلماذا يشتركان معاً فى هذه العملية بالذات؟!

كانت الإجابة الطبيعية تقول: لأنهم — أى الإسرائيليون — مصممون على دخول الحفار إلى البحر الأحمر بأى ثمن لتضطر مصر لضربه بالطيران فتنفذ على الفور خطة ما فى إحدى خزائن الموساد..

وهو عندما قرر ألا يواجه العنف بالعنف، لم يتخذ قراره هذا خوفاً أو تجنباً

٢

لمعركة... بل بحثاً عن أكثر الأوضاع مثالية لتدمير الحفار... ولقد كان واثقاً أن الإسرائيليين ــ مع الهدوء الذى أحاط رحلة الحفار حتى الآن ــ سيقومون بعمليات استفزازية لجس النبض واختبار ما يحيط بهم من أجواء... إما لهذا، وإما لفرط العصبية التى جاءته الانباء تقول: أنها أصابتهم فى الأيام الأخيرة فى دكار بشكل واضح !!

لذلك... فهو عندما استشعر الخوف على « اليزابيث استيل » و« نورمان ويليامز » ــ أى ليز ونورمان ــ قرر أن يفوّت الفرصة على الإسرائيليين بأى ثمن... كان يعلم أن سارة سوف تصل إلى دكار على ظهر الحفار « كينتنج »، وانها إذا ما التقت بأستاذها « ديڤيد ليڤنجر »، فلسوف يصنعان شيئاً تجاه الشابين الإنجليزيين، وعلى هذا فلقد أبرق الى « على » ــ ذلك الشخص الذى استطاع نورمان أن يحقق معه اتصالاً فى اليوم الأول لوصوله إلى دكار ــ يطلب منه أن يبلغ ليز ونورمان بألا يقاوما أى تصرف من بروفسور إيزاك ديستان الذى غالبا ما سيصحب معه هذه المرة فتاة اسمها « باربرا هوفمان »... ومهما حدث، فإن المطلوب منهما الاستسلام الكامل والتصرف كأى شابين انجليزيين، مهما كانت الضغوط، وان يفعلا كل ما يطلب منهما، وألا يبوحا بكلمة عن الحفار « كينتنج »... ثم لا بد لهما أن يثقا ثقة بلا حدود، أنهما سيكونان دائماً فى حماية المصريين!

....

....

وصلت البرقية فى مساء اليوم الثانى عشر من شهر فبراير (شباط)، وهو نفس اليوم الذى وصل فيه رجال الضفادع البشرية واحداً بعد الأخر... كانت

الساعة تقترب من السابعة مساء، وكان هذا هو موعد عودة ا... الفندق على حسب الإتفاق معهما... لم يكن هناك وقت أمام السا... الرياضى الجسد ذى الوجه الباسم أبداً كى يتصل بأحد رجال الم... الميزونرمان فى كل حجرة وكل مكان على حسب جدول شديد التعقيد. لذلك فلقد قرر مع إحساسه بخطورة الأمر أن يتصل بهما فوراً.. وبنفسه !!

لم يكن « على » يملك سيارة فى حقيقة الأمر، كان « المفروض » ألا يملك سيارة... وكان منذ يومين قد أخذ إجازة عاجلة من عمله لأمر هام حدث فى القبيلة يستلزم سفره... لذلك، فلقد كان حريصاً ألا يراه أحد وهو يستقل سيارة أجرة، ويستحث السائق على الأنطلاق بأقصى سرعة يستطيعها!

فى السيارة التى راحت تنهب شوارع دكار فى هذا الوقت من الغروب، كان « على » يفكر فى شيىء واحد: كيف يتصل بهما دون أن يكسر حاجز الأمن ودون أن يراه أو يشعر به مراقبوهما من الأسرائيليين؟! كان فى عجلة من إمره، وكان على حق... فما إن شارفت السيارة شارع الفندق الذى ينزلان فيه، حتى كان الأوان قد فات!

غادر السيارة وانتظر حتى انصرفت.. ووقف على البعد يرقب عملية اختطاف بارعة تتم قبل غروب الشمس بقليل فى وسط المدينة وشوارعها المزدحمة فى ذلك الوقت من اليوم.. دون أن يشعر مخلوق أو يحس إنسان!!!

....

....

رغم أن الفندق الذى نزل به نورمان وليز كان متواضعاً بما يناسب ميزانيتهما

٢

بالطبع، إلا أنه ــ في يوم نزولهما فيه ــ شهد رواجا ملحوظاً ... فبعد وصولهما بساعة جاء إلى الفندق رجل يوناني، ثم بعد دقائق جاء محام أمريكي رقيق الحال، ومن بعدهما جاء عروسان من الوطنيين المتوسطي الحال يريدان قضاء أيام من شهر العسل في دكار... وسر صاحب الفندق ونشط فنشط عماله لتوفير كل سبل الراحة للزبائن، الذين بدوا بوضوح، غافلين عن كل ما يدور حولهم، مهتمين بأشياء أخرى!

كان اسم اليوناني في جواز سفره «خريستو ماتياس»، أما مهنته فهي «ميكانيكي»، وبدا للجميع منذ لحظة وصوله أنه من هذا النوع من الرجال الذين يتنقلون في الدنيا الواسعة من بلد إلى بلد بحثاً عن عمل سرعان ما يتركه إلى عمل آخر لسبب غير مفهوم!

وعندما وصل خريستو إلى الفندق، تحدث في التليفون من الإستعلامات، وكان صوته عاليا وواضحا ويتحدث الفرنسية بلكنة يونانية، كان يسأل عن أحد أقربائه الذين يعملون في إحدى الشركات، ولما علم أن قريبه على سفر ليومين أوثلاثة، قال أنه يقيم في الفندق الفلاني وإنه لن يغادره حتى يصل ويتصل به!

لكنه بين الحين والحين كان يجرى مكالمة خافتة الصوت لا يسمعها حتى من التصق به، ولكنه دائماً ما يختمها بصوت عال قائلا إنه في الفندق لن يبرحه... ثم يعود إلى المكان الذى أختاره في مدخل الفندق ليجلس فيه طوال وقته، وقد كان مكاناً مناسباً لأن يرى منه كل من يدخل وكل من يخرج، وكل من حوله!

أما المحامي الامريكي الرقيق الحال فكان أسمه «سيمون ڤارتنيان»... كان يبدو محاميا في كل حركة من حركاته، وبرغم رقة حاله البادية فإنه كان أنيقا بشكل يلفت النظر، وكان يحمل حقيبة أوراق غريبة الشكل، ... لا يحدث أحدا ولا يتحدث اليه أحدا، لكنه عرف في الفندق على أنه جاء من الولايات المتحدة لتصفية بعض الخلافات بين الشركة التي يمثلها في ولاية بنسلفانيا وبين بعض الشركات في دكار.

أما الفتى السنغالي وعروسه، فلم يكن لهما موعد ولم تكن لحياتهما سمات، كان سعيدا بعروسه كما كانت هي سعيدة به، يخرجان ويدخلان إلى الفندق عشرات المرات في الساعة الواحدة... يمكثان في غرفتهما لدقائق، ثم يغادرانها وهما يضحكان... يحدثان الجميع ويلقيان التحية على كل من يلقاهما، ثم يختفيان أويبقيان!

وكان هذا كله طبيعياً للغاية، لولا أنه لوحظ أن مستر ڤارتنيان المحامي، كان لا يغادر الفندق إلا بعد أن يغادره نورمان مع ليز، ولا يعود اليه إلا بعد عودتهما..! كما لوحظ أن خريستو ماتياس لم يكن يغادر مكانه في مدخل الفندق إلا إذا خرجت ليز ونورمان، وانه يعود اليه بعد عودتهما بثوان أوقبلهما بقليل!!

كان واضحا، ومنذ البداية، ان بروفسور إيزاك ديستان أوديڤيد ليڤنجر، أصبح يشك في ليز ونورمان شكاً شديداً... ولذلك فلقد كانا متبوعين في كل خطوة ومراقبين مراقبة شديدة الصرامة... وأصبح واضحاً أمام المصريين بجلاء أن

الأسرائيليين غير حريصين على إخفاء الرقابة، بل على العكس، ربما كانوا حريصين على إعلانها وبشكل مستفز ملىء بالتحدى.

ولابد لنا أن نعترف أن الشابين الانجليزيين كانا ذكيين الى حد كبير... فلقد راحا يتصرفان — وقد شعرا بالقطع بكل ما حولهما — تصرفات من لا يشعر على الأطلاق بما يحيط به... كان البروفسور يفاجئهما فيرحبان به، ويصحبهما فى جولاتهما فلا يعترضان ولا يظهران أى تذمر، ويدلهما على الأماكن التى يجب أن يزوراها فيطيعانه... لكنه لم يكف لحظه عن تحريضهما على زيارة مدينة «سانت لويس» التى تبعد عن دكار ببضعة مئات من الكيلومترات... وهى تقع فى أقصى شمال الساحل السنغالى، فهى مدينه أثريه ولها أهمية تاريخية، ولأنها كانت أول ميناء يبنيه الفرنسيون منذ ثلاثمائة عام على هذا الشاطىء، بالتحديد، فى عام ١٦٥٩، وكانوا يريدون أن يصنعوا منها المركز المالى والثقافى فى جميع أنحاء هذا الغرب الأفريقى!

كان بروفسور ديستان يلح، أما ليز ونورمان فكانا يعتذران لعدم وجود ميزانية تكفى لرحلة طويلة كهذه... وفى ذلك اليوم، كان برفسور ديستان يتجول معهما فى أحد الأسواق الشعبية التى عشقها الشابان لما فيها من بساطة وطبيعية، وكان يتحدث عن «سانت لويس» ربما للمرة المائة، عندما قالت له ليز فجأة، وكأن الأمر قد فاض بها:

«بروفسور ديستان... ألا ترى أنك أهملت عملك كثيراً ؟!»

انطلقت من عينى البروفسور نظرة أحست بها ليز وكأنها رصاصة تخترق

رأسها، وأحست بالخوف يعربد فى كيانها، وزاد من خوفها. أن البروفسور غمغم بصوت بدا كأنه لرجل آخر:

« يبدو انك على حق ياآنستى... ولابد لى أن أعطى عملى اهتماماً أكبر بالفعل !! »

أوحت لهجته بنذير غامض، وما لبث أن أحنى رأسه تحية وقال:

« الى اللقاء ! »

وغاب فى زحام السوق، والتصقت ليز بنورمان وهى تستشعر رجفة تسرى فى جسدها. وضحكت إمرأتان سنغاليتان كانتا تشتريان بعضا من الخبز الأوربى، وهما ترقبات الشابين وقد أحاط كل منهما الآخر بذراعه وكأنه يحتمى به من خطر غامض... همست ليز:

« انى خائفة ! »

وقال نورمان:

« هيا إلى الفندق ! »

ولقد ظلا متلاصقين طوال الطريق، لم يترك أحدهما الآخر، ولم يفه أحدهما بكلمة... وإن كان كل منهما مستغرقاً فى دوامة من التفكير... إشتريا قليلاً من الفول السودانى وراحا يتعشيان به وهما في الطريق إلى الفندق، حتى إذا اقتربا من الشارع الرئيسى، الذى إذا ما عبراه إلى الشارع الموازى له خلف مجموعة من العمارات العتيقة ذات الطابع الفرنسى، وصلا إلى الفندق... توقفا على الرصيف، ألقيا ببصرهما هنا وهناك، كانا يستشعران ذلك الخطر الغامض

٢

يحوم حولهما فى الجو.. غير أن نورمان، قبل أن يخطو الى أرض الطريق، غمغم كمن يطرد عن رأسه أشباحاً:

« انى اثق فى المصريين! »

هتفت ليز وهى ترفع رأسها إليه باسمه :

« كدت أقول لك ذلك يا حبيبى! »

وكانت باسمة، فابتسم... ثم، وكأنهما توصلا إلى قرار، إنتهابتها السعادة فجأة، فانطلقا يعبران الشارع عدوا وهما يضحكان، ثم كان عليهما أن يختصرا الطريق الى الفندق، كانا فى عجلة من أمرهما يريدان الاختلاء ببعضهما، دلفا إلى ممر ضيق نصف مظلم فيما بين عمارتين من تلك العمارات الفرنسية الطراز العتيقة... اندفعت ليز تجرى بكل قواها وهى تضحك فى سعادة، واندفع نورمان خلفها يريد أن يلحق بها... تردد صدى ضحكاتها بين الجدران الشاهقة، ثم... فجأة، توقفت الضحكات... وتبدد الصدى!

على الطرف الآخر من الممر، كان بروفسور ايزاك ديستان فى انتظارهما... كان باسماً، وكانت ابتسامته ميتة، وكان يتقدم منهما، وكانت خطواته ثقيلة، ثم ما لبث أن توقف على بعد أمتار قليلة وهو يقول :

« يالها من مصادفة! »

ارتدت ليز إلى صدر نورمان فى عنف، لم تكن خمس دقائق قد مضت منذ

أن غادرهما فى السوق، أحاط نورمان كتفى حبيبته بذراعه وهو يتمتم فى صوت وجل :

« بروفسور ديستان ؟! »

« لقد كنت أبحث عنكما ! »

هتفت ليز وكأنها طفلة تبدى تذمرها :

« لكنك لم تغادرنا الا منذ دقائق! »

« مفاجأة ! »

« لسنا فى حاجة الى مفاجآتك بروفسور ديستان!! »

« رحلة ! »

« ولا نبغى أن نذهب إلى رحلات! »

«سانت لويس!!»

وكأن الأمر قد فاض بليز، فلقد أندفعت تخطو نحو البرفسور دون أن تنتبه إلى الشبح الذى كان يخطو إلى الممر من خلفها، كانت غاضبة، وكانت كلماتها سريعة متلاحقة :

«بروفسور... لقد سبق أن عرضت علينا هذه الرحلة إلى سانت لويس مرات، فاعتذرنا لك لقلة نقودنا... ولست أدرى ما الذى تر....... ؟»

توقفت ليز عندما أحست بحرارة جسد يقترب منها، كان الشبح قد اقترب منها، التفتت فى عنف فإذا وجه به مسحة من جمال شرقى وشعر كأنه الليل ينسدل على الكتفين تتخلله شعيرات بيضاء مضيئة... ظن نورمان أن الفتاة تريد

أن تعبر الممر فأفسح لها الطريق متمتماً :

« عفواً »

لكن الفتاة لم تتحرك ... وقال البروفسور فى صوت كحد سكين :

« نسيت أن أقدم لكما مس هوفمان من بوسطن ! »

هم نورمان بتحية سارة جولد شتاين عندما استطرد البروفسور :

« إنها صديقة قديمة التقيت بها مصادفة بعد أن غادرتكما بقليل ... وهى تملك سيارة فاخرة كانت لزوجها الغنى قبل أن يموت ، كما أنها تدعوكما لزيارة سانت لويس ـــ دون أى مقابل ـــ والنزول فى ضيافتها فى قصرها الهائل وسط مزارع الفول السودانى ! ! »

قالت ليز وكانت على وشك البكاء :

« كل هذا حسن ولكن ... »

ولكن ليز توقفت عن الحديث أمام تلك النظرة الوحشية التى انطلقت من عينى سارة جولد شتاين ، كانت نظرة تشع نوعاً من البريق الشيطانى .. وأدرك نورمان ما الذى يحدث تماماً ، فضغط فى رفق على ذراع صديقته وهو يقول :

« مس هوفمان ، إنه ليسعدنا حقا أن نلبى دعوتك ولكن ... »

« هيا بنا ! »

هكذا قاطعته سارة جولد شتاين وهى تومىء نحو المنفذ الآخر للممر .. فصاح نورمان :

« مهلا .. لقد كنت أقصد ...... »

ولم تمهله سارة هذه المرة أيضاً كى يكمل حديثه ، كانت تعلق حقيبة يدها فى كتفها الأيمن وقد وضعت يدها داخل الحقيبة التى دفعتها الآن بمقدمتها نحو الشابين اللذين تراجعا إلى الخلف حتى كادا يلتصقان بالحائط ... وجاءت كلماتها قاطعة باترة :

« استمعا إلىَّ جيداً ، فليس لدينا وقت نضيعه .. إن فى هذه الحقيبة مسدساً صغيراً ركب على ماسورته جهاز كاتم للصوت ، وعلى طرفى الممر حراس أشداء لن يسمحوا لأحد بالمرور قبل أن نغادر نحن هذا المكان ، وإذا ما انطلقت من المسدس رصاصة إلى صدر أحدكما ، فلن يسمع صوتها أحد ، ولن يشعر إنسان بما حدث إلا بعد أن نكون قد غادرنا المكان بزمن .. فهل تطيعان ؟ ! »

كانت ساقا ليز الآن ترجفان ، وبدا الخوف على نورمان وهو يلتفت نحو إيزاك ديستان :

« بروفسور ديستان .. لقد كنت أظن أننا أصدقاء ! »

ضحك ديفيد ليفنجر فى برود قائلا :

« ولهذا أدعوكما لرحلة ممتعة ! »

هم نورمان بالحديث لكسب مزيد من الوقت فجاءه صوت سارة صارما :

« تحركا ! »

وكان المشهد فى الشارع التجارى المزدحم فى مثل هذا الوقت من الغروب عاديا للغاية ، مجموعة من الأوربيين يركبون سيارة كانت فى انتظارهم .. كانت السيارة معروفة تماما لأهل دكار.. وكان الذى يقف إلى جوراها هو صاحبها « بيير فرانسوا » ... فمن من أهل دكار لا يعرف بيير فرانسوا ؟ !

أغلب سكان دكار يعرفونه ... بل إن بعضاً منهم كان يلقى عليه التحية وهو واقف فى الأنتظار... حتى « على » الذى كان يراقب المشهد منذ بدايته ، والذى أدرك ما يحدث ، ولاحظ الحارس الذى يقف عند مدخل الممر... حتى إذا ما تحركت المجموعة فى الداخل تحرك الحارس خلفهم وتبعه « على » فى خطوات واثقة تماما ... كان « على » يعرف « بيير فرانسوا » ربما أكثر من غيره من أهل السنغال ... دلف إلى الممر ببطء كعابر سبيل لا يشغل باله شىء ... وعندما عبر الممر كانت السيارة تبتعد وسط زحام السوق ، وكان بيير فرانسوا هو الذى يقودها بنفسه ... وكان « على » يعرف تماماً إلى أين هم ذاهبون ، فلم يقلق ، ولم يكن الأمر ليكلفه أكثر من مكالمة تليفونية !

....

....

فى منتصف الطريق مابين دكار وسانت لويس ، يقوم قصر منيف بنى منذ حوالى قرن من الزمان وسط مزرعة خصبة من مزارع الشمال القريبة من نهر السنغال ... بنى هذا القصر ثرى فرنسى كان اسمه « دانيال فرانسوا » ... يقول التاريخ السنغالى إنه بدأ حياته فى المنطقة بالاشتراك فى اصطياد الرقيق وتصديره

إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وجنى دانيال فرانسوا ثروة طائلة من وراء تجارة الرقيق ، اشترى بها تلك المزرعة الهائلة ، وبنى فى وسطها ذلك القصر المنيف الذى يحاكى قصور أغنى أغنياء فرنسا ... وعندما مات الرجل ورث ابنه « ارمان فرانسوا » ضيعته تلك الشاسعة وأملاكه وقصره ، لكن أرمان كان مختلفا عن أبيه تماماً ... كان صديقاً للسنغاليين يعتبر نفسه سنغالياً بالموطن ، فرنسياً بالأنتماء ... وعندما استقلت السنغال عام ١٩٥٨ فضل الرجل البقاء فى السنغال ، كانت السن قد تقدمت به فمات بعد الاستقلال بقليل ، ليرث أملاكه ولده « بيير فرانسوا » !

كان بيير فرانسوا منذ حداثته ولداً فاسداً متغطرساً ، كان يقضى أيامه فى باريس ينفق فى بذخ ويصادق ألواناً من البشر ، كان يدعوهم أحياناً إلى ضيعته تلك فى منتصف الطريق فيما بين دكار وسانت لويس ، ولم يعرف أنه اختلط أبداً بالأفريقيين ... فأطلق عليه الوطنيون هناك ، لقب : « المتغطرس »

ولقد رأى « على » المتغطرس وهو يقود السيارة بمن فيها فى ثقة من يعلم أن كل شىء على ما يرام ... اختفت السيارة عن نظرة فابتسم وهو يسرع الخطى نحو أقرب تليفون استطاع أن يصل إليه ، كان يعلم أن رسالة طاهر رسمى ــ لم يكن يعرف اسمه بالطبع ــ لن تصل الليلة إلى الشابين الإنجليزيين ، فأ يطمئنها ... ولقد تمت المكالمة التليفونية بسرعة ، كان يتحدث الفرنسية وكان أخر ما قاله :

« إنهما لن يستطيعا رؤيتى الليلة ... ولذلك فإنى أريدهما أن يط... ، وأن يشعرا أنى دائما هناك ! »

ثم وضع السماعة، ومضى مطمئناً!

....

....

كان قصر مسيو فرانسوا من ذلك النوع الذى تحيط به حديقة مترامية الأطراف يجوبها طوال الليل عدد من الحراس المسلحين، وعدد آخر من الكلاب المدربة... وبرغم ما فعله «على»، فإن الليلة كانت عصيبة فى بدايتها على ليز ونورمان... ذلك أن رسالة «على» لم تصلهما إلا بعد ساعة كاملة من وصولهما إلى القصر... وعندما وصلت الرسالة كانا قد بلغا درجة من الإرهاق جعلت «حامل الرسالة» يشفق عليهما ويشفق منهما فى نفس الوقت... ولم تمكث سارة جولد شتاين وديفيد ليفنجر فى القصر طويلا... مكثا مع الشابين فى حوار نارى ملتهب... بدأت سارة الحوار بعدما دخل الجميع إلى بهو القصر، وعبروه إلى غرفة من تلك الغرف التى انقرضت ولم تعد تظهر إلا فى الأفلام التاريخية... وعند بوابة القصر كان عدد لا بأس به من الخدم فى استقبالهم، أما بيير فرانسوا نفسه فكان على رأس مستقبليه كلب ضخم الجثة من هذا النوع الذى توحى مجرد ملامحه بوحشية بلا حدود... ومنذ تلك اللحظة، لم تشاهد ليز ولا نورمان مسيو فرانسوا دون هذا الكلب الذى كان يلازمه كظله...

كانت الغرفة التى اقتيدا إليها مفزعة، امتلأت حيطانها بأنواع مختلفة من الأسلحة التى كانت تتراوح ما بين بنادق صيد كبيرة وكلابات وكلبشات وقيود وسلاسل ومعدات صيد ورءوس حيوانات متوحشة... لم يكن الأمر فى حاجة

إلى شرح، فهذا المتحف، أو هذه الغرفة، كانت تعرض فى برود قاتل، تلك الأدوات الوحشية التى كان الأوربيون يصطادون بها العبيد... وما إن استقر الأمر بهم فى الغرفة، حتى سار مسيو فرانسوا إلى ركن منها وأختار مقعداً كان واضحاً أنه المفضل لديه، فجلس، وبجواره جلس كلبه الهائل!

قالت سارة فجأة:

«إننا نعرف أنكما من الجيش الجمهورى الأيرلندى!»

ردت ليز فى تحد:

«وماذا فى ذلك ؟!»

«أعضاء هذا الجيش متعاطفون هذه الأيام مع العرب!»

«هذا حقيقى!»

«إذن فأنتما مناهضان للسامية!»

«هذا غير صحيح!»

ولساعة كاملة دار الحوار فى هذا الفلك، كان واضحاً تمام الوضوح أن سارة جولد شتاين لا تعبأ بأن تعلن أنها إسرائيلية، ولم يكن هذا بالطبع غباء منها، بل كان نوعاً من الذكاء المدروس... فلو أن الشابين كانا يتعاونان مع العرب ــ وهذا ما كان يبدو أن سارة موقنة منه بأى شكل من الأشكال ــ فها هى فرصة ذهبية لإبلاغ المصريين رسالة تقول إن إسرائيل ليس غافلة، وإنها على إستعداد لخوض المعركة مهما تكن شراستها... وإن لم يكونا ــ وهذا احتمال كان وارداً

لديها دون شك ــ فهى رسالة أيضا لمثل هذا النوع من الشباب الذى كان تعاطفه مع القضية العربية، أصبح يسبب صداعاً مريراً لإسرائيل فى كل أنحاء العالم...

وهكذا، تم تبادل القذائف الكلامية لساعة كاملة، أثبتت فيها ليز أنها تصلح لأن تكون ممثلة من طراز فريد... ذلك أنها تولت مناقشة سارة منذ البداية فلزم نورمان الصمت، ثم إنها حولت الأمر فى براعة بدت سذاجة إلى قضية إنسانية، وراحت تقارع الحجة بالحجة. لا تخفى رأيها فى أن إسرائيل تهدد من حولها من جيران، وتحتل أراضيهم بالقوة... ثم...

«ثم فيم، كل هذا، فيم هذا الأختطاف تحت تهديد السلاح؟!... ولماذا؟!... ولأى سبب ونحن فى أرض بعيدة عن إسرائيل وعن العرب معاً؟!... أرض لا يرى الإنسان فيها عربياً واحداً»!

بعد إن مضت تلك الساعة الملتهبة بدا واضحا أن «سارة جولد شتاين» قد وصلت إلى طريق مسدود، وأن أتخاذها لقرار ما أصبح صعباً، برغم أنه حتمى... تبادلت النظرات مع ديفيد ليفنجر الذى كان قد اتخذ لنفسه مكاناً فى طرف الغرفة وراح يدخن فى صمت.. ثم التفتت نحو بيير فرانسوا الذى كان يحتسى كأسه ويداعب كلبه... وتبادلت معه نظرة سريعة رفع بيير على أثرها كتفيه كمن يقول: «كما يحلو لك!».. ثم بدا وكأن سارة قد استقر رأيها، فالتفتت نحو ليز ونورمان قائلة:

«ستكونان فى ضيافة مسيو فرانسوا ليوم أو يومين، ولست فى حاجة لأن أحذركما من أمرين، الأول: أن البيت محاط بحراسة من نوع لا يستطيع أحد

اختراقه... أما الأمر الثانى: فهو، أنكما لو فكرتما فى إبلاغ السلطات هنا أو إثارة أى نوع من أنواع المتاعب لمسيو فرانسوا، أو تفوهتما بكلمة عما حدث... فلن تريا بلدكما مرة أخرى!»

ثم التفتت نحو بيير فرانسوا قائلة:

«إنى اتركهما لك... وأنت تعرف الباقى!»

....

....

انصرفت سارة جولد شتاين مع ديفيد ليفنجر وصحبهما بيير فرانسوا وكلبه المتوحش حتى باب القصر، وكانت هذه هى الفرصة الوحيدة التى أتيحت لرسالة «على» أن تصلهما... وإذا كانت ليز قد بدت فى المناقشة رابطة الجأش شجاعة، فإن عينيها الآن أطلقتا نظرة رعب هائل وهى تلتفت نحو نوُرمان.. فى تلك اللحظة دخل خادم ليرفع الكئوس التى قد قدمت للجميع فارتجفت ليز لرؤياه.. غير أن ما حدث بعد ذلك بدالها ــ ولنورمان ــ وكانه حلم!

سار الخادم نحو المائدة التى تتوسط الغرفة ليرفع الكئوس الفارغة ونصف الممتلئة فى خفة ورشاقة من مارس هذا العمل طويلا... وفجأة سرى صوته الخافت فى إنجليزية ركيكة، قال:

«لا تقلقا!»

فى لهفة واضحة التفت الشابان نحوه وكان لا يزال يعمل، وسمعاه يستطرد:
«إن عليا فى القصر معنا، وهو يبلغكما تحياته!»

ارتجفت ليز فى سعادة من لايصدق أذنيه، همت بالحديث فطالعتها عينا الرجل بنظرة تحذير رهيبة، وبرغم هذا كان يبتسم وهو يقف قبالتها سائلا بصوت واضح:

«أتريدان مزيدا من الشراب؟!»

«نعم. أرجوك!»

قالتها ليز فى حماس من يريد أن يستبقيه لأطول فترة ممكنة، وبنفس الرشاقة راح الخادم يعد لها كأساً وهو يتمتم بصوته الخافت:
«اطمئنا تماما!»
ثم...
ثم لم يكن هناك ما يقال... قدم الرجل لها كأساً، ثم أنصرف!

غير أنه عاد بعد دقائق قليلة فى صحبة مسيو فرانسوا وكلبه... بادرهما فرانسوا قائلاً:

«كنت أتمنى أن أتناول معكما العشاء لكن هذا يبدو غير ممكن... وعلى كل، فلسوف يحمل لكما حسين الطعام فى غرفتكما... أتمنى لكما ليلة هادئة!»

قال هذا وهو يومىء للخادم الذى انحنى لهما فى أدب:
«سيدتى.. سيدى!»

فتبعاه على الفور!

....

....

ولقد قضيا بالفعل ليلة هادئة لم يتبادلا فيها سوى كلمات تشى بأنهما متعبان وأنهما مندهشان وأنهما لا يفهمان ما يحدث وأن هذا كله يبدو غريباً لهما... قالا هذا عن عمد بعد أن حذرهما حسين بالإشارة والنظرة قبل أن يغادرهما، بما يعنى أن حديثهما سيكون مسموعاً!!

فى الصباح حمل «حسين» القهوة إلى غرفتهما، لم يتبادل معهما حديثا سوى تحية الصباح، وما إن تناولا القهوة حتى عاد ليخبرهما أن «السيد» فى انتظارهما... فى دهشة بالغة تبعاه، قادهما الرجل إلى البهو حيث كان بيير فرانسوا يقف بجوار كلبه فى استقبالهما.

«أعتقد أنه لابد لى من الاعتذار لكما!»
ساد الصمت قليلا ثم ابتسم مستطرداً:

«أخشى أنى لن أستطيع اصطحابكما إلى سانت لويس، فإن لدى بعض الأعمال لابد من إنهائها!!»
قال نورمان:
«مسيو فرانسوا، أنت تعرف أننا لا نريد الذهاب إلى سانت لويس!»

في بساطة عاد الرجل الفرنسى يقول :

« إذن فلسوف يعيدكما السائق إلى دكار ! »

قبل أن يرد أحدهما أردف :

« وبالطبع ، فإنى أعتقد أنى لست فى حاجة إلى تذكيركما بتحذير مس هوفان ! »

قالت ليز:

« لك أن تطمئن تماماً ! »

غمغم بيير فرانسوا فى ارتياح :

« هذا حسن للغاية ... فإن لى سمعة فى هذه البلاد يهمنى أن أحافظ عليها ! »

ثم التفت نحو باب القصر منادياً :

« على ! »

ودلف السائق الذى كان يرتدى بذلة رسمية ، ولم يكن السائق الذى أعادهما إلى دكار سوى « على » شخصياً ! !

وكان الثلاثة طوال الطريق يضحكون فى مرح !

• • •

أبرق طاهر رسمى إلى « على » فى دكار برسالة يعرض فيها على الشابين « إليزابيث استيل » و « نورمان ويليامز » ، أن يقضيا عطلة لمدة أسبوعين فى أى مكان يشاءان فى العالم تعبيرا عن الامتنان ... وكان رد الشابين : أن الأمر الطبيعى فى مثل هذه الظروف أن يشعرا بالخوف وأن يعودا للوطن إيثاراً

للسلامة ... وتصادف وجود سفينة بريطانية فى الميناء وكانت تستعد للإبحار فى اليوم التالى إلى ليفربول ... استطاع الشابان أم يجدا عليها مكانين ، لكنهما هذه المرة ... سافرا فى إحدى الكبائن ، وليس على السطح !

ولقد قالا فيما بعد : إنهما تمتعا بالرحلة متعة فائقة ، وأن ثقتهما فى المصريين قد ازدادت !

١٠ - الفصل العاشر

دلال شوقى تقع فى الحب .

شىء فى قلبى يحترق
اذ يمضي الوقت ... فنفترق
ونمد الأيدى
يجمعها حب
وتفرقها ... طرق !

« أمل دنقل »
من قصيدة: شىء يحترق

◻ لم يكن إفلات الحفار هينا على الرجال. هذه حقيقة لابد من الاعتراف بها... كان رد الفعل قاسيا عليهم خاصة وأنهم كانوا قاب قوسين أو أدنى من إتمام العملية... غير أن نديم هاشم بالذات - بالرغم من ضيقه وغضبه وجهده الذى تبدد فى ثوان لأسباب كانت لاتزال مجهولة بالنسبة إليه - أحس والحفار يفلت ضاربا فى مياه المحيط مبتعدا عنه، بسعادة غريبة وغامضة فى نفس الوقت، فتنفس الصعداء!

وفى مثل هذا العالم الخفى قد يقتنع البعض بالحاسة السادسة والإلهام وما إلى ذلك، ولكن الحقيقة تظل دائما سيدة كل موقف، وكل تقدير لموقف... الحقيقة ولاشىء عداها... ومنذ وصول نديم إلى دكار، ومنذ معاينته للحفار والمكان الذى يرسو فيه، ثم اختياره لنقطة الانطلاق فى ذلك القارب المائل فوق الرصيف النائى المجهور، وشىء ما يصده على اتمام العملية، شىء غريب غامض كان يلح عليه إلحاحا، إحساس مثير للضيق لكنه منفصل عن الواقع المحيط به فراح يعد العدة لتدمير الحفار... ربما كان تفسير هذا الإحساس هو موقع الحفار «كينتنج» بالقرب من زوارق الطوربيد الفرنسية، واحتمال - ولو واحد فى المليون - أن يصاب واحد من تلك الزوارق نتيجة للتدمير وما قد يجره هذا على مصر من مشاكل هى فى غنى عنها... ربما كانت عصبية الإسرائيليين الزائدة، وهى عصبية من السهل الرد عليها بعنف لولا القرار الذى اتخذ فى القاهرة

ولا يملك هو أن يغيره... ولقد تمثلت عصبيتهم بوضوح فى أسلوب الحراسة فوق الحفار ومن حوله، وتواجدهم الدائم فى المدينة بحثا عن وجه مصرى، ثم مراقبتهم الشديدة للشابين ليز ونورمان اللذين لم يقتربا من الميناء ولم يريا الحفار منذ وصولهما، وتصل العصبية إلى ذروتها فى خطفهما دون مبرر واضح وإن كان المبرر كامنا... ربما كان سبب إحساسه الغريب هو عنصر من هذه العناصر، وربما كانت هذه العناصر مجتمعة... المهم، أنه عندما رأى الحفار يمضى أمام عينيه، وبالرغم من خيبة الأمل، فلقد داخله ارتياح حقيقى... ارتياح ساعده - دون شك - على ترتيب ذهنه بسرعة، والتصرف بدقة جعلت اليوم المشحون بتلك الحركة المركبة التى كان عليه أن يخطط لها وينفذها ويتابعها لحظة بلحظة، يمضى فى سهولة ويسر!

....

....

ودائماً ما كان طاهر رسمى يقول ضاحكاً: «إن المآزق تخلق العبقرية!»... والمتتبع لأسلوبه فى العمل، لابد وأن يكتشف شيئاً غريبا، هو أنه يصبح فى أحسن حالاته إذا ما واجه مأزقاً خطراً... ساعتها تدهش الذين يعملون معه لهذا الصفاء الذهنى الغريب الذى يتمتع به وسط ضباب الأحداث وتراكمها بل وتلاحقها.... فى مثل هذه الحالات، قد يخلط طاهر رسمى أوراق اللعب كلها، وقد يقلب الخطط رأساً على عقب، ليولد من هذا كله خطة جديدة... وعلى هذا، فلقد كان وهو يعمل الآن مع عزت بلال، ينتابه ذلك الإحساس الفائق اللذة، بأنه مقدم على خلط الأوراق، واللعب مع الإسرائيليين من جديد، بل... وتلقينهم درسا فى الخدمة السرية!

كان أهم ما يعنيه الآن، بعد أن أفلت الحفار وفشلت الخطة الأولى لمصادفة وقعت، أو ثغرة غفل عنها، أو لذكاء من العدو... فلقد كان هذا - برغم خطورته الشديدة وضرورة بحثه ومعرفة أسبابه - فى جانب ناء من رأسه وتفكيره... كان كل ما يعنيه الآن، هو جمع أكبر عدد ممكن من التفاصيل، كان ما يعنيه أن تكون أجزاء الصورة كلها متجمعة أمام عينيه... ولذلك، كان أول ما فعله هو إرسال برقية إلى نديم هاشم، يطلب منه فيها التصرف بسرعة، و«تنظيف» المكان، والعودة فورا!!

أجزاء من الصورة تجمعت لديه الآن، وبقى ذلك الجزء الأهم، الذى يستطيع نديم هاشم، ونديم هاشم وحده، أن يكمل به الصورة كأشد ما تكون الدقة!

لقد عرف تفاصيل ما حدث مع ليز ونورمان قبل أن تمضى أربع وعشرون ساعة... تسلم شريطا مسجلا بصوتيهما، خرج الشريط من دكار مع واحد من ركاب إحدى طائرات «ايرافريك» المتجهة إلى باريس... والغريب، أن حامل الشريط تخلص منه فور وصوله إلى مطار أورلى بإلقائه فى أحدى سلال المهملات بالمطار، ثم جاءت عاملة نظافة أفريقية لتفرغ السلة فوراً، ثم استقر الشريط بعد ذلك، فى حقيبة يد كبيرة لإحدى السيدات كانت تغادر باريس فى هذا اليوم إلى القاهرة، وكعادة المصريين يسرفون دائماً فيما يحبون، فلقد كانت الحقيبة الكبيرة لتلك السيدة ذات المظهر الشديد البراءة، مليئة بأشرطة موسيقية وغنائية للمطرب الفرنسى شارل ازنافور، ومطربة لم تكن قد عرفت بعد فى العالم العربى هى «مارى ماتيو»... كانت السيدة البدينة البريئة المظهر مسافرة على إحدى

طائرات شركة مصر للطيران، لذلك، كان التفتيش روتينيا، فلم يكن يعنى رجال الأمن فى مطار أورلى، أن يصعد أحدهم إلى طائرة مصرية وهو يحمل شحنة ناسفة !!

استمع طاهر رسمى وعزت بلال للشريط مرتين متتاليتين، فتوقفا عند بضع نقاط، وأبدى كل منهما رأيه فى كل واحدة منها... لكن نقطة بعينها جعلتهما يتوقفان ويتساءلان ويحللان و يدققان... ولم تكن هذه النقطة سوى تلك الجملة التى قالتها «سارة جولد شتاين» فى قصر مسيو فرانسوا قبل أن تغادر ليز ونورمان: «انكما ستبقيان فى ضيافة مسيو فرانسوا ليوم أو يومين !!»

كان معنى هذه الجملة، أنه حتى تلك اللحظة التى سبقت إبحار الحفار ببضع ساعات، لم تكن سارة تعرف موعد إقلاع الحفار بالضبط !

هذه هى الحقيقة الأولى التى أمسك بها طاهر رسمى، ثم راح يقرأ بعدها. تلك الرسالة التى وصلته من دكار بخط اليد، وبلا شفرة - لم يكن هناك وقت وكان لابد من المجازفة، ولقد أثار هذا خلافاً شديداً وأزمة حادة، وعوقب مرسل الخطاب عقاباً رادعاً - والتى كانت تحكى بالضبط، ماذا حدث منذ أن غادرت سارة وديفيد قصر مسيو فرانسوا إلى أن اختفيا من دكار بطريقة غامضة وكأنهما تبخرا !

....

....

غادرت سارة جولد شتاين وديفيد لينفجر قصر مسيو فرانسوا فى تمام الساعة العاشرة والدقيقة الثالثة والعشرين من مساء يوم ١٨ فبراير عام ١٩٧٠، كانا

يجلسان فى المقعد الخلفى للسيارة الفاخرة التى كان يقودها واحد من أعوان «على»... فى السيارة كانا صامتين أغلب الوقت، لكنهما تبادلا حديثاً قصيراً بلغة لم يفهمها السائق، ويرجح أنها كانت العبرية !

قبل وصولهما إلى الميناء بحوالى نصف ساعة، لاحظ عمال الميناء الذين طلب منهم منذ أن دخل الحفار إلى دكار، أن يكونوا على أهبة الأستعداد... لاحظوا حركة غريبة فوق ظهر الحفار، ثم وصلت سيارة رمادية اللون يقودها رجل صعد إلى الحفار مباشرة، وكان بصحبته مدير الشركة الهندسية التى تقوم بإصلاح العطب فى القاطرة «چاكوب ڤان هيموكيراك»... تبادل الرجل الحديث مع بعض رجال الحفار، ثم انتقلا إلى القاطرة وأجريا حواراً مع المهندس المشرف على إصلاح العطب، والذى كان يبدو عليه التعب والإرهاق... ثم عاد الرجل مع مدير الشركة إلى الحفار وراحا يتناقشان فى حدة، ولكن فى صوت خافت، وكان واضحاً أنهما ينتظران أحداً، حتى إذا وصلت سارة وديفيد، دخل الجميع إلى إحدى الكبائن التى أغلقت عليهم، وبدءوا اجتماعا لم يحضره القبطان «ڤان كيرك» قائد القاطرة، والذى قيل إنه لم يكن يكف عن الشراب والدمدمة فى غضب... وتهامس البحارة مع بعض عمال الميناء أنه كان يسب ويلعن ويقسم ألا يتعاون مرة أخرى مع هؤلاء القوم !!

بعد ساعة وبضع دقائق غادر الجميع الكابينه، لتبدأ على الفور الحركة استعداداً للإبحار مع أول ضوء للفجر ... أما سارة جولد شتاين وديفيد ليفنجر، فلقد غادرا الحفار مع صاحب السيارة الرمادية، واختفى الجميع داخل السيارة

التى انطلقت مغادرة الميناء إلى حيث لا يدرى أحد وكأنها تبخرت فى الهواء !!

... ...

... ...

لم يتعود طاهر رسمى أن يهون من قيمة خصمه أو من ذكائه، ولقد كان أكثر ما يضنيه - طوال سنوات عمله كضابط فى المخابرات - تلك الاستهانة التى كانت ترسمها الصحف المصرية للإسرائيليين، فى وقت كانت الحرب الخفية بينها محتدمة احتداماً مروعاً، وعلى العكس، كان يرى أن قليلا من المبالغة فى قيمة الخصم، تحرك العقل للإبداع والانتصار ... لذلك، فلقد كان واضحاً أمامه الآن، أن سارة وديفيد اللذين لم يغادرا دكار فوق ظهر الحفار، واللذين - أيضاً - لم يغادراها فى إحدى الطائرات، قد وضعا فى اعتبارهما - برغم كل المظاهر التى كانت تشير إلى عدم وجود المصريين - إنهم هناك بشكل ما، ثم راحا يتصرفان على هذا الأساس ... فاستغلا - ولابد من الاعتراف بهذا - انشغال المصريين برحيل الحفار، واختطاف ليز ونورمان - حتى ولو لم تكن لهم علاقة بها - فى إبعاد الأنظار عن خطتها الخفية لمغادرة السنغال ... ولقد أفلحا !!

كانت الحقيقة التى توصل إليها طاهر رسمى فى تلك الليلة التى خفت فيها موجه البرد فى القاهرة، وارتفعت درجة الحرارة قليلا، فأغلق جهاز التكييف وفتح نوافذ الغرفة التى تطل على تلك الحديقة الصغيرة، كانت الحقيقة التى توصل إليها، هى أن الإسرائيليين أصبحوا موقنين بأن المصريين هناك ... ولو حتى للرصد والمراقبة !!

وإذا كانت التحليلات والمناقشات بينه وبين عزت بلال قد أوصلته، إلى أن أنسب الموانىء لدخول الحفار هى « ابيدجان » فى ساحل العاج ... فماذا لو أنهم حاولوا التفكير من موقع المصريين كما يحاول هو دائماً أن يفكر من موقعهم ؟ ... إنهم لو فعلوا، فلسوف يصلون بالقطع إلى هذا الاستنتاج ... ثم ... ألا يفكرون فى ألا يدخلوا بالحفار إلى أبيدجان واختيار ميناء آخر ؟!

وكان هذا احتمالا، وهو احتمال يجعل الميناء التالى المرشح لدخول الحفار هو « لاجوس » فى نيجيريا !

قال عزت بلال: إن هذا أيضاً وارد .. ولكن، ماذا لو دخلوا أبيدجان ؟!

رد طاهر:

« تبقى لونا بايرن فى خطر ! »

ولابد من الاعتراف أن طاهر رسمى كان على حق فى شكوكه ... فى أبيدجان كانت الصحيفة الهولندية « لونا بايرن » قد حققت الكثير من الانتصارات ... حققت اتصالات وثيقة مع بعض رجال السفارة الأمريكية، وقبلت دعوة للعشاء مع مسئول الإعلام فيها، وكان شاباً رقيقاً ومهذباً لكن ذكاءه بدا لها من نوع خطير ... ولكنه، ما إن انتهى العشاء، حتى كان قد اقتنع أن لونا بايرن صحفية من طراز ممتاز، وأبدى استعداده الكامل لمساعدتها فى اللقاء برواد الفضاء، ووعد ببحث أمر لقاء أحدهم برجل من رجال القبائل !

كما حققت لونا صداقة متينة مع واحد من المسئولين فى ساحل العاج، و يوم أن قبلت دعوة قائد الميناء على الشاى، أرسلت برقية تقول فيها: إن القاطرة البلجيكية « آلبى » ستدخل إلى أبيدجان فى ضحى اليوم التالى، وأنهم أفردوا

لها رصيفاً كاملا ... وأن هناك - من الآن - حراسة مشددة - وإن كانت خفية - قد فرضت على هذا الرصيف!

فهل كان هذا استعداداً لاستقبال الحفار، أو أنه نوع من الخداع يراد به لفت أنظار المصريين عن الميناء التالى؟!!

وإذا كانت سارة جولد شتاين قد راودها الشك فى فرناندو بالديرا بجزر الأزورس، وإذا كان شك ديفيد ليفنجر قد تصاعد مع ليز ونورمان إلى درجة الاختطاف ... فما الذى يمكن أن يفعلاه مع لونا بايرن التى كانت تقطع أبيدجان بالطول والعرض؟!

وهكذا، تقرر - على الفور - أن توضع لونا تحت الحماية الكاملة ... ولم يكن هناك سوى «زاكرى» - أو زكريا - الذى كان لايزال فى القاهرة، وسرعان ما اتصل به طاهر رسمى، وطلب منه أن يوافيه على الفور، وبأسرع ما يمكن!

....

....

كان الليل قد انتصف، وهبت من النافذة نسمة باردة أنعشت طاهر الذى كان يقف محملقاً فى «حديقته الصغيرة» كما أسماها، عندما سأل عزت بلال فجأة:

« إيه أخبار دلال شوقى؟!»

نهض عزت إلى مائدة القهوة وهو يقول: إن العمل فى الفيلم يجرى فى انتظام.

« وإيه أخبار الصواريخ؟!»

« طلعت على المركب نجمة يوليو من يوم ما دخلت لاجوس!»

« والزوارق؟!»

« اتشحنت بعد وصول المركب بثلاثين ساعة!»

« هى نجمة يوليو بقى لها قد إيه فى لاجوس؟!»

« أربعة أيام!»

وصمت طاهر، والتفت عزت نحوه، كان يعلم أن صديقه على علم بكل ما سأل عنه، وأن لا شىء من هذا كله كان خافياً عليه، لكنه - فى لحظات بعينها - عندما يكون فى حالة «ولادة» خطة جديدة، يحاول التفكير بصوت عال ... ولقد كان عزت على حق، فلقد التفت طاهر نحوه قائلا:

« إحنا دلوقت قدامنا سكتين!»

لم يرد عزت، فقط، استدار نحو صديقه ... فأستطرد طاهر:

« السكة الأولانية انهم يدخلوا ابيدجان!»

« والسكة الثانية؟!»

« إنهم يفكروا بأسلوبنا، فيأخذوا قرار انهم ما يدخلوش أبيدجان!»

« طب إحنا عاوزين إيه؟!»

« هو ده السؤال»

« أبيدجان تحولت إلى قلعة!»

« بس تقارير المعاينة الأولانية بتقول: إن التنفيذ فيها احتمالاته ممتازة!»

هم عزت بالنطق فأردف طاهر:

« أحسن من دكار! »

لزم عزت الصمت فغمغم طاهر:

« وأحسن من خطة لاجوس! »

ثم ساد الصمت الآن تماماً، بدا واضحاً أن طاهر فى حالة اتخاذ قرار، وأن عواصف الفكر فى رأسه بدأت تهدأ لتكون جسداً متكاملا اسمه « خطة » ... ذلك أنه مالبث أن قال:

« أحنا نبعت للاجوس نقول لهم يجهزوا نفسهم للخطة الثالثة! »

كان المنطق غريباً ... وإذا كانت أبيدجان بالنسبة للمصريين هى أفضل الأماكن للتنفيذ، كما أنها - أيضاً - أفضل الأماكن لرسو الحفار بالنسبة للإسرائيليين ... فإن معنى هذا أن المباراة سوف تشهد نوعاً فريداً من اللعب ... هذا النوع الذى يعشقه طاهر، وفى بعض الأحيان يسعى إليه ... فلماذا إذن يستعد للخطة الثالثه فى لاجوس ؟!

ترى ... ماذا وراءه ؟!

ربما جال هذا بذهن عزت بلال، لكنه - فى مثل هذه الأحوال - لم يتعود أن يناقش صديقه، إن « الأمن » - فى مثل هذه الحالة - يسرى حتى عليه!!!

• • •

فى ذلك الوقت بالضبط، كانت الساعة فى دكار قد جاوزت التاسعة مساء بقليل، وكان نديم هاشم قد ألقى بنفسه فوق أحد الأسرة فى بدروم تلك الڤيللا الكائنة فى إحدى الضواحى، وكان يشعر بالألم يسرى فى كل أعضاء جسدة ... كان متعباً منهكاً، مضت ساعات اليوم - منذ إبحار الحفار مع خيوط الفجر

الأولى، وحتى ساعته هذه - فى عمل متواصل، وجهد دفعه إلى الرقاد مفتوح العينين.

كانت مهمته الأولى - بعد رحيل الحفار - أن يعيد الرجال كلهم إلى القاهرة، وفى نفس اليوم ... ولقد حدث هذا برغم خطورته الشديدة، فلم تكن ملاحظة وزير الداخلية السنغالى لرجل الأعمال السورى الأصل « سليم أبو فودة » عن كثرة عدد المصريين الذين دخلوا دكار بعد وصول الحفار بيوم، قد غابت عن ذهنه بالقطع ... وكان خروج المصريين أنفسهم بعد رحيل الحفار، يجعل أى طفل محدود الذكاء يفهم ... وليلة أن أخبره سليم أبو فودة بما قاله وزير الداخلية، طلب من أحدهم تجهيز خمس جوازات سفر جديدة لخليفة ورجاله ... ولقد أعدت الجوازات فى وقت قياسى، وسافر بها الرجال بالفعل ... لكن الغريب فى الأمر، أن واحداً من هذه الجوازات، لم يكن مصرياً!

كان أول من غادر دكار هو « العريف »، الذى استقل الطائرة المتجهة إلى المغرب فى الساعة السابعة وخمسين دقيقة من نفس الصباح الذى رحل فيه الحفار ... وكان آخرهم هو خليفة جودت الذى غادر العاصمة السنغالية فى طائرة « إيرفرانس » المتجهة إلى باريس، وكان عليه أن يغير الطائرة فى مطار شارل ديجول، ليستقل طائرة نفس الشركة إلى جنيف!

أما المواطن إبراهيم سيد فرج الله، الذى جاء إلى دكار بحثاً عن وظيفة مدرس للغة العربية، فلقد قرر السفر فى اليوم التالى، بعد اجتماع عقده مع نديم هاشم ومحمود شوكت، وبعد أن وصله عرض للعمل فى « ليبيريا »، التى تفصلها عن السنغال ثلاث دول هى: غينيا، وغينيابيساو، وسيراليون ... لكنها

٢

مشتركة فى الحدود مع ساحل العاج ... كان ثمة رسالة قد وصلته من «منروڤيا» عاصمة ليبيريا تقول: إن قبيلتى ال «فاى» وال «ماند» المسلمتين، قد افتتحتا مدرسة فى مدينة «جرينڤيل» فى أقصى جنوب الساحل الليبيرى، والشديدة القرب من شواطئ ساحل العاج، وأنهم فى حاجة ماسة إلى مدرس للغة العربية ... وكان الأجر مجزياً، مما دفعة إلى الموافقة على الفور، وإرسال برقية بموعد وصوله إلى منروڤيا عاصمة ليبيريا وميناءها الكبير!

....

....

وها هو كل شىء قد عاد كما كان، أصبحت «دكار» نظيفة تماماً كما طلب طاهر رسمى فى برقيته، وخلا البيت الآمن إلا من نديم ومحمود شوكت... وكان على نديم - حسبما جاء فى البرقية - أن يعود إلى القاهرة، فأجرى اتصالا تليفونيا مع سليم أبو فودة لم يستغرق أكثر من دقيقة ... ولكن، ماذا بالنسبة للباشا ؟!

لم يكن «الباشا» فقط هو الذى يشغل بال نديم، فمنذ يومين أرسل متعهد السفن «كيوبيدو بارتينى» برقية إلى أبيدجان، يطلب فيها من متعهد السفن الألمانى «مانفريد جايجر» أن يحجز جناحا لرجل الأعمال التركى، السيد عصمت كارجى، فى فندق «لافوار» الذى بنته إسرائيل هدية منها إلى ساحل العاج، والذى كان مقرراً أن ينزل فيه رواد الفضاء الأمريكان فى أثناء زيارتهم للعاصمة أبيدجان.

قال نديم محذراً محمود شوكت:

« المخاطرة فى أبيدجان صعب يا محمود! »

قال الباشا متهكماً:

« ولا يهمك! »

« اللوكاندة حاتبقى ملغمة! »

« وأنا بأحب الألغام!! »

قالها ضاحكاً لكن نديم لم يضحك، كان بالفعل مشغولا على زميله وصديقه الذى كان يبدو شديد المرح وكأنه مقبل على نزهة... لكن انشغاله الأكبر كان - فى حقيقة الأمر - على المتفجرات!

هتف محمود شوكت:

« مالها المتفجرات ؟ ! »

قال نديم:

« إلا مالها ... لازم أرجع بيها مصر! »

« وماله، ترجع بيها مصر وكل حاجة، إنما ليه ؟!! »

برغم حياته الغربية المتقلبة والباريسية، فإن الباشا - أبداً - لم يفقد لهجته الريفية التى كان يتقن الحديث بها ... لكنه ما إن قال ما قال، وبرغم التعب، حتى قفز نديم هاشم من رقدته وراح يخطو فى البدروم بين الأسرة وهو يتحدث بلا توقف، قال: إن بقاء المتفجرات فى دكار - مهما كان سياج الأمن من حولها قوياً - أمر لا يبعث على الارتياح، لقد جاءت هذه المتفجرات لغرض لم يعد قائما الآن، فلابد إذن من عودتها إلى مصر!

« وليه مصر يا أخينا ؟ ! »

التفت إليه نديم فى حدة :

« أنت عاوز تقول إيه ؟ ! »

« هو إحنا مش حانحتاج للمتفجرات دى فى أبيدجان ؟! »

« قصدك إيه ؟! »

« أنا أطلع لك بيها من هنا على هناك بدل من اللف والدوران ووجع القلب ! »

«على رقبتى ! »

هكذا هتف نديم، وهكذا احتدم الجدل بين الرجلين ... كان نديم يرى أن الإسرائيليين والأمريكيين سوف يملئون، أبيدجان إن لم يكونوا قد ملئوها بالفعل، فموعد زيارة رواد الفضاء يقترب، ودخول الحفار أصبح مسألة أيام ... وإن أية مخاطرة سوف تدمر كل شيء، وقد تضيع كل فرصة لو أنها ضبطت أو اكتشف أمرها.

استمع الباشا فى هدوء وهو يبتسم ، أشعل فى أثناء حديث نديم سيجاراً فاخراً راح يتلذذ به، وعندما انتهى نديم من حديثه راح يحملق فى السيجار الطويل الذى كان الباشا الآن ينفث دخانه فى حلقات، وانتبه محمود شوكت لنظرة نديم، فنهض من مقعده ملوحاً بالسيجار فى وجه زميله :

« ما تبصليش قوى كده ... السيجار ده بالذات من حر مالى ! »

ضحك نديم مداعباً:

« والسيجار اللى بتدخنه فى اللوكاندة ؟! »

صاح الباشا :

«من حرمال الشعب ... ده شغل يا سيد ! »

وضحك الرجلان، واكتفيا بهذه الضحكة المرحة استراحة من عناء التفكير، ذلك أن الباشا بدأ يتحدث فى هدوء من فكر فى الموضوع طويلا وقتله بحثاً ... وإذا كان لابد من عودة المتفجرات إلى القاهرة، فإن المرور بها من دكار إلى باريس أوروما أوجنيف أوإلى أى مطارأوربى، لا يقل مخاطرة عن مخاطرة دخوله بها إلى ساحل العاج ... بل إن مخاطرة دخوله أبيدجان بالمتفجرات تقل كثيراً ... ذلك أن حقائب مليونير تركى جاء بمشروعات لتنشيط أحوال البلاد الاقتصادية، لابد أن تعامل معاملة تختلف عن معاملة مصرى جاء يبحث عن عمل !

قال الباشا هذا ثم أردف :

« وإذا سمعت كلامى، سيب لى كمان الملابس والمعدات بتوع الضفادع البشرية ! »

وتأثر نديم لعرض زميله، بدا له الباشا بقامته الفارهة وصوته العريض، يوحى بشقة بلا حدود، اقترب منه نديم باسما، كان ممتناً، وكان معجباً، وكان يريد أن يقول شيئاً فلم يستطع ... كل ما فعله أنه ربت على ذراع صديقه فى ود، وعاد إلى فراشه دون كلمة، فصاح الباشا :

« هيه ... قلت إيه يا أخينا ؟!! »

تمتم نديم وقد سرى الخدر فى جسده :

« كفايه عليك أنت المتفجرات ... أنا حارجع مصر بالمعدات ! »

وهكذا ودع الرجلان كل منهما الآخر. وغادر رجل الأعمال التركى عصمت كارجى البيت الآمن من الباب الخلفى، ثم اختفى فى شوارع العاصمه السنغالية ... وكان نديم هاشم الآن، يغط فى نوم عميق!

• • •

كل الذين شاهدوا دلال شوقى فى تلك الأيام التى كانت تصور فيها المشاهد الخارجية لفيلم «امرأة فى الأحراش» بغابات نيجيريا، أجمعوا على شىء واحد ... هو أن دلال لم تكن هى دلال التى عرفوها أو سمعوا عنها ... ويحكى عزوز جابر أن أحداً لم يعرف متى بدأ هذا التغيير الغريب فى تصرفات النجمة المصرية الشهيرة ... ففى الأيام الأولى لاحظ الجميع، لا على دلال وحدها، بل على كل بعثة هذا الفيلم الغريب، علامات صحة وحيوية كان سببها بالقطع ذلك الجو المنطلق فى الغابة برغم الحرارة والرطوبة ... وذلك الإحساس الدافىء الذى جمع الكل فى بوتقة واحدة من الألفة والمحبة.

كان مدحت صبرى دمثاً صبوراً مهذباً إلى درجة تخجل الجميع، أما «سعاد الحكيم» مساعدة المخرج الغامضة والتى لم يسمع عنها أحد، فكانت كالدينامو الذى لا يكف عن الحركة ... ولطالما تحملت مشاق الطريق بالسيارة الجيب مع عزوز جابر من موقع التصوير إلى مدينة «أويو» القريبة حتى لاجوس لشراء بعض مايحتاج إليه الفيلم أو العاملون فيه برغم وجود مدير إنتاج، فلقد كان مدحت صبرى يثق فيها ثقة بلا حدود، وكانت هي تفهم تماما ما الذى يريد بالضبط... لكن المنتج عزوز جابر عندما يحكي عن تلك الأيام، لا يستطيع أن يغفل بعض الملاحظات الغريبة وبعض التصرفات التى لم يفهمها والتى كانت

تصدر عن «سعاد الحكيم»... فلقد كانت تبدو وكأنها تعرف كل شبر فى لاجوس، تعرف من أين تشترى هذا الشىء أو ذاك، تعرف الطرق والمسالك، وعندما سألها ذات يوم إن كانت قد جاءت لاجوس من قبل، ابتسمت متسائلة فى دهشة:

«امتى كنت هاجى لاجوس... وليه؟!»

أما دلال، فمع التورد والحيوية وذلك البريق الذى كان يشع من عينيها، فلقد بدا أنها راحت تجنح إلى الانطواء... لم تعد عصبية كما كانت دائماً، وأمام الكاميرا بدت مطيعة لينة العريكة سريعة التفاهم والفهم لكل ما يجرى وكل ما يريده المخرج، وفي الليالى التى كان الجميع يقضونها فى سمر ومرح بعد يوم شاق، كانت تبدو خير رفيق، عذبة الحديث حلوة اللسان... وإذا ما تجمعوا لمناقشة مشهد أو موقف كانت تستمع فى اهتمام وتناقش فى جديه... ودفعت هذه المناقشات المخرج مدحت صبرى إلى اقتراح بإدخال بعض التعديلات على السيناريو... وكان إعجاب دلال صارخاً عندما طلبت منه أن يدخل التعديلات بنفسه فرفض، وأرسل برقية إلى كاتب السيناريو فى القاهرة يطلب منه رأيه فى التعديلات، وإدخالها لو أنه اقتنع بها!!.

قالت دلال ذاهلة:

«للدرجة دى انت بتحترم شغلك يامدحت؟!»

التفت نحوها وقال:

«طب أحترم نفسى ازاى؟!»

ومضت أيام كان العمل يجرى فيها بانتظام، وعندما كان عزوز يبدى قلقه لتأخر وصول التعديلات، كان مدحت يبتسم قائلا: إن التأخير معناه أن الكاتب قد اقتنع بالتعديل، وعلينا أن ندفع ثمن ما طلبناه منه، فهو ليس آلة كاتبة، إنه فنان يبدع!

كان الكلام حلواً، ولكن عزوز صاح منبهاً:
« انت عارف يا أستاذ لو التعديلات ماوصلتش فى ميعادها، اليوم هنا بيكلفنا كام ؟! »

رد مدحت:
« وأنت عارف لو عملنا تعديلات وطلعت وحشه، حانخسر قد إيه ؟! »

وهكذا شعر جميع العاملين فى الفيلم، أنهم لم ينتقلوا من مصر إلى نيجيريا لتصوير المشاهد الخارجية لفيلم مصرى، لكنهم كانوا يشعرون أنهم انتقلوا من عالم إلى عالم آخر... وكان أكثر الناس تأثراً بهذا الجو الشديد الاحترام الذى أشاعه مدحت صبرى، هى دلال شوقى على وجه التحديد!

....

....

لا أحد يعرف ما الذى كان يدور فى ذهن دلال شوقى فى تلك الأيام، أيقن البعض أنها وقعت فى الحب، ولاحظ عزوز جابر أنها كانت تسرح فى أحيان كثيرة وقد تعلقت عيناها بمدحت صبرى فى أثناء عمل أو حديث أو سمر أو اجتماع دون أن يشعر هو بها... لكن أحداً لم يرها مرة وقد اختلت به، أو

اختفت معه أو جلست إليه منفردة... كانت دائماً هناك، وكان مدحت صبرى دائماً هنا... وتساءل الجميع بلا استثناء. تساءلوا همساً وفيما بينهم وبين أنفسهم: ما الأمر إذن ؟!

لا أحد كان يعرف أن دلال شوقى برغم حيويتها ونضارتها، وعقارب السن التى عادت بها إلى أيام الشباب الأولى، أيام أن ظهرت كبطلة فى إحدى القصص التى اشتهرت فى مصر فى الخمسينات وأثارت جدلا بين النقاد... وكانت تبدو وقتها مثل ثمرة طازجة لم تقطفها يد الأضواء من فوق غصنها الأخضر بعد... لا أحد كان يعرف أنها برغم كل هذه المظاهر، كانت تمر بأزمة نفسية حادة!

كانوا على حق عندما ظنوا أنها وقعت فى حب المخرج مدحت صبرى، لكنها كانت كالمجنونة... تتساءل بينها وبين نفسها: ما هذا الذى يحدث فى داخلها ؟!

كان الذى تشعر به ليس حباً كالحب الذى عرفته من قبل، كان نوعاً من الضياع الهاجع إن صح التعبير، كان نوعاً من الصلاه فى محراب لم تطأه قدمها من قبل!

وهي عندما تزوجت لأول مرة كانت صغيرة، بل كانت طفلة... عقد قرانها فى بيت والدها المهندس يوم أن بلغت الثامنة عشرة من عمرها، وفى سنوات زواجها الأولى كانت تحتفل بعيد ميلادها وعيد زواجها فى يوم واحد...

... وكان زوجها الأول شاباً يكبرها بثلاث سنوات فقط، يعمل مهندساً في أحد المشروعات الكبرى التي أقامتها الثورة، عاشت معه قصة حب كتلك التي كانت تمثلها في أفلامها الأولى، قصة رومانسية ساذجة على حد تعبيرها، وعندما أرادت العمل في السينما، لم يكن هذا جديداً على الزوج الشاب، فلقد كان التمثيل هوايتها وحبها وحلمها منذ أن شبت عن الطوق ... لكنه أبداً ـ كما

قال لها في اللحظات الحاسمة من حياتها ـ لم يأخذ الأمر مأخذ الجد، ولم يفكر فيه ولم يخطر بباله ... لذلك، فلقد حدث الخلاف بينهما واحتدم يوم أن عرض عليها أحد المخرجين العمل في السينما ... كان نوعاً من المخرجين الذين عاشوا في الخارج سنوات، دليلهم الوحيد على ذلك، تلك الكلمات الأجنبية التي ينطقونها بفجاجة، وذلك اللسان الملتوي بلا سبب إلا أن يكونوا خواجات ... وبقدر ما بهرت هي بهذا المخرج، بقدر ما اشمأز منه زوجها، كان العرض جاداً، فطارت هي من الفرح، ووافقت، وتشبثت ... ورفض الزوج، وأصر على الرفض ... فانفصلا !!!

واندفعت دلال تعيش حياتها الجديدة وهي لم تتعد الرابعة والعشرين، كان والدها قد توفي منذ عامين، وانتقل زوجها للعمل في السد العالي، ومارست ـ لأول مرة في حياتها ـ هذا الإحساس الغامر بالحرية ... في تلك الأيام عرض عليها الحب ألواناً، وارتمى تحت قدميها نجوم ورجال أعمال وكتاب وشعراء وصحفيون وأدباء وفنانون من كل لون ... لكنها أبداً لم تحس بهذا الإحساس الذي كانت تتوق إليه وتنتظره، ذلك الإحساس الذي يحرك كوامنها ... وكم من ليال باتت فيها مسهدة متعبة تفكر في « حازم » ـ زوجها الأول ـ وأيامها معه،

هل كان حباً رومانسياً كما كانت تدعي « مكابرة »، أو أنه كان قدراً متربصاً ؟! ... واكتشفت بعد عامين من الوحدة أن « حازم » مازال يعيش في قلبها، وعندما ذهبت ذات رحلة مع مجموعة من الفنانين لزيارة السد العالي، كانت تتوق فعلا لرؤية هذا الصرح العظيم الذي كانت مصر قد دخلت من أجله أعنف المعارك ... لكنها أيضاً، كانت تعلم أنها سوف تلتقي بحازم ... وكم انتظرت هذا اللقاء على أحر من الجمر ... وكم تخيلت كيف سيكون، والحوار كيف سيدور ... موقنة هي أن حازم يحبها، إنه لا يمكن إلا أن يحبها، وإنه لايزال يحبها ... كأن الأيام لم تمض، وإلا، فما معنى هذا الذي كانت قد اعتزمته ووطنت نفسها عليه ... كانت قد اعتزمت أن تعود إليه، وأن تهجر الحلم.

في السد العالي سألت وسألت، حتى التقت بحازم، لكنه لم يكن وحده، كانت زوجته الجديدة معه، فتاة شقراء رائعة الحسن، كانت تعمل مهندسة جيولوجية تبحث عن الكنوز في تراب مصر!

وعادت دلال من رحلة السد العالي كسيرة القلب، وكان زوجها الثاني هو أول من تقدم إليها، فقبلته ... لا لأنها تحبه، ولا لأنها تريد الهرب من ذكريات تحطمت على صخور السد العالي ... ولكن لأنها كانت قد يئست من الحياة بلا رجل !

ولم يدم زواجها سوى بضعة أشهر ـ وإن كان قد دام أمام الناس لعامين متصلين ـ بذلت فيها كل ما تملك من جهد كي تعيش ... ذات ليلة بكت بين

يديه عذاباً وهي تشكو له قلبها المغلق ... هي لم تعد تشعر بشيء ، كرهت السينما ، وكرهت الفن ، وكرهت الحياة ، وكادت تكره الناس ... ولقد أرادت أن تعطيه حقوق الزوج فيها فأبى ... كان يسعى منذ البداية إلى قلبها !

ولم تكذب دلال ، صارحته بالحقيقة ... وتقبل الحقيقة فى صمت ، وهكذا فتحت عينيها ذات صباح لتجد أن كل شيء لم يعد له معنى ، كانت متزوجة ، تعيش مع رجل وقلبها تعصف به أنواع الشوق إلى رجل مجهول ... وكان هو كريماً ، عرض عليها الطلاق فقالت إنها فى حاجة إليه ... ورجته أن يظل إلى جوارها ... فوافق !

فى تلك الأيام ظهر ضابط المخابرات فريد ذهنى فى حياتها ، التقت به فى بيت إحدى صديقاتها الفنانات والتى قدمته لها على أنه رجل أعمال ، ولا تدرى كيف اختلط الحابل بالنابل فى تلك الحفلة لتجد نفسها تقف فى الشرفة المطلة على ذلك الميدان الجديد المضىء ، وكانت مع فريد وحدها .

« بلبل قالت لى إنك رجل أعمال »
« أيوه »
« بتشتغل فى إيه ؟ ! »
« فى المخابرات »

وصعقت . وظنته يهزل ، ظنته يداعبها ، لكن وجهه كان جاداً هادئاً باسماً ... راحت تحملق فى وجهه لثوان فسألها :

« إيه الغريب فى اللى أنا قلته ؟! »
« أصلي باكرهكم !! »
« ليه ؟! »
« وباخاف منكم ! »
« للدرجه دى ؟! »
« وما أحبش أقف معاك لوحدى ! »

وتركته ومضت ، غادرت البيت متعللة بأنها أصيبت بصداع مفاجىء ، لكنها لم تنم طوال الليل ، أحست بالخوف يعصف بها ... ثم أحست أنها إنسانة بشعة ، فظيعة ، جلياطة ، قليلة الذوق ... وفى نفس الوقت كان هو مهذبا صامتاً ... غادرت فراشها على أطراف أصابعها حتى لا توقظ زوجها ، هبطت إلى البهو وطلبت صديقتها التى كانت لا تزال مستيقظة :

« بلبل ... هو الراجل اللى اسمه ... اسمه ... ... »
اكتشفت أنها نسيت اسمه ، وجاءها صوت صديقتها ساخراً :
« فريد ذهنى ! »
« نمرة تليفونه كام ؟! »
« ما تتعبيش نفسك ! »
« انتى مش فاهمه ! »
« لأ فاهمه ! »
« يا بلبل أنا أصلى ... ... »

قاطعتها صديقتها ضاحكة :

« ما تحاوليش تشرحى لى حاجه ... المشكلة أنى ما اعرفلوش نمرة تليفون ولا عنوان ولا حاجة ! »

« أمال بتتصلى بيه إزاى ؟! »

« هو اللى بيتصل بى ! »

وقضت دلال ساعات قلقة ... فى الصباح ، دق جرس التليفون ، رفعت السماعة وكانت نصف نائمة ، وجاءها صوت فريد ذهنى :

« سمعت إنك بتسألى علىّ ! »

« عاوزة أعتذر لك ! »

« وأنا عاوز أشرح لك ! »

وعلى مدى خمس ساعات بعد ظهر ذلك اليوم ، واجهت دلال فريد ذهنى بكل ما قرأته عنهم ، وبكل ما سمعته ... وكان يستمع فى هدوء حتى إذا انتهت ، لم يدافع ، إنما راح يحلل ويشرح ويقارن ويدقق ، إن لكل عمل عظيم أخطاء لابد عظيمة مثله ، المشكلة التى كان يعانى منها أن :

« الناس مش فاهمه يا دلال هانم إحنا شغلتنا إيه ؟! »

« بلاش حكاية هانم دى وفهمنى ! »

ولقد فهمت .. ودهشت .. وأبدت إعجابها ، وصاحت :

« طب ما انتوا كويسين أهه ! »

قال :

« علشان كده أنا قلت لك إمبارح أنا مين ... محدش من اللى كانوا فى الحفلة — ولا حتى بلبل — تعرف أنا مين ! »

« واشمعنى أنا اللى قلت لى ؟! »

« لأن البلد محتاجة لك ! »

« البلـد ؟! »

وهكذا بدأت دلال شوقى علاقتها بجهاز المخابرات المصرى ، ووجدت نفسها غارقة فى حب مصر ، بل كلما اشتركت فى عمل ما ازداد حبها لهذا البلد الذى كانت ملامحه تتضح لها يوما بعد يوم ، وكانت دائما ما تقول :

« إحنا بنقول إن الشعب المصرى شعب عظيم ، بنقول ، ده لأننا منه ، بنمجد فى نفسنا ... لكن لو أننا عرفنا الحقائق ، وعرفنا الشعب ده كله بيعمل إيه ؟ ... حاتعرف هو عظيم إزاى ... وده الأهم ؟ »

رأت دلال أناسا يعيشون ويموتون فى حب مصر دون أن يشعر بهم أحد ، رأت رجالاً تهون أرواحهم فى لحظات تشيب لهولها الولدان بالفعل ... واقتنعت ، عندما قارنت ما عرفته بما سمعته قبل أن تعرف فريد ذهنى ، إنهم ، برغم بطولتهم ونكرانهم لذواتهم ، بشر أولاً وأخيراً ... وإنهم قد يقعون فى الخطأ ... لكن الأهم ، هو: أنهم يمنعون عنا جرم الخطيئة !

أحست دلال أنها أصبحت تنتمى إلى كيان هائل كبير .. لدولة عظمى حاولت الأحداث سحقها لكنها أبت إلا أن تظل مرفوعة الرأس ... وفوجئ وجها ذات صباح ، وكانا على مائدة الإفطار ، فوجئ بها ساهمة :

« مالك يا دلال ؟ »

« عاوزة اتطلق ! »

قالت ما قالته وهى تنتظر كل شىء وأى شىء غير هذا الذى حدث.. فى صمت شديد مد الرجل يده إلى جهاز التليفون القريب، رفع السماعة، أخرج من جيبه رقماً، أدار القرص، واكتشفت أنه كان يتحدث فى مثل هذه الساعة المبكرة من اليوم، إلى المأذون !!

طلب منه الحضور لإتمام الطلاق، ثم أعاد السماعة وراح يكمل إفطاره !

أحست دلال أن الإهانة تنغرس فى لحمها وتسحق عظامها، ظلت صامتة لدقائق كانت تنظر فيها إليه ذاهلة، كل ما استطاعت أن تقوله :

« أنت كنت شايل نمرة المأذون فى جيبك ؟! »

فغمغم وهو ينهى إفطاره :

« كنت عارف إن اليوم ده جاى ! »

....

....

وها هى تقع فى الحب !

ها هو الكنز الذى ظلت العمر تبحث عنه بين يديها، لكنها لا تملك حتى أن تهمس له بما يعتلج فى ثناياها... لا... لم يكن حباً كالذى عرفته من قبل، كان ما تشعر به الآن، وبعد أيام لم تتعد الأسبوعين، نحو مدحت صبرى شيئاً خاصاً، نسيج وحده.. كان إحساساً جارفاً كفيضان يكتسح كل ما فى

طريقه، هو نوع من الضياع الهاجع إن صح التعبير، هو نوع من ... محراب لم تطأه قدمها من قبل !

وليس هذا ما كان يضنيها فى الأمر.

ليس هذا وإلا هان الأمر وتقدمت وعبرت الجسور وحطمت الأسوار وأ... حبها حتى ولو قوبل إعلانها بالرفض، فليس الحب عيباً وليس جريمة ... عاراً... ولو عرف الناس قيمة الحب لما كفوا عن الصلاة ليل نهار شكراً لله لأنه منحهم القدرة على الحب... كان الذى يضنيها ويعذبها، أنها تحب ... لا تعرف من هو!!

كان عمل مدحت صبرى خلف الكاميرا، ومناقشاته مع الفنانين والفنيين، يصرخ بأنه مخرج.. وكانت تصرفاته تؤكد أنه رجل مخابرات !

ذات يوم اكتشفت شيئاً... اكتشفت أن أحداً لا يعرف شيئاً عن مدحت صبرى، فهو أبدا.. لم يتحدث عن نفسه، لا أحد يعرف أين يسكن، من أبوه، من عائلته، أعزب هو أم متزوج، ما رقم تليفونه... اكتشفت دلال شوقى أنها تحب شيئاً فى صورة رجل !

هكذا كانت أيامها فى أحراش نيجيريا، تنام وتصحو على فكر يدور فى حلقة مفرغة... حتى حدث ما قلب الدنيا رأساً على عقب، وجذبها، وجذب الآخرين، بعيداً بعيداً عن ذواتهم !

....

....

ذات يوم كان على سعاد الحكيم، مساعدة المخرج، أو «الدينامو» كما أطلق عليها الجميع، أن تسافر إلى لاجوس مع عزوز جابر ومدير الإنتاج لشراء بعض مستلزمات البعثة من العاصمة... غادر الثلاثة الموقع في السيارة الجيب في السادسة صباحاً، وعادوا بعد غروب الشمس يحملون نبأ هاما... لقد وصلت التعديلات المطلوبة من القاهرة، كتبها المؤلف، وأرسلها في الحقيبة الدبلوماسية إلى السفارة المصرية في نيجيريا!

وإذا كان الأمر قد مر مرور الكرام على الجميع، فهو لن يمر على دلال بطبيعة الحال وهي تعرف ما لا يعرفه الآخرون... كانت سعاد الحكيم قد اختلت بمدحت صبرى كى تعطيه تقريراً عما فعلوه، ثم أخذا يراجعان التعديلات التى أرسلت... على كل، فلقد شعرت برغم ما كانت فيه، أنه قد آن الأوان للقيام بالعمل الذى من أجله جاءت إلى هذه البقعة النائية من الدنيا.

كانت التعديلات تستلزم تصوير بعض المشاهد فى شوارع لاجوس، وفى أحد أقسام البوليس فيها، وفى الميناء، وفى أحد الفنادق الكبرى، ثم فوق سطح السفينة التى كان المفروض -فى الفيلم- أن تصل عليها سيدة الأحراش مع زوجها.

باختصار... أعلن مدحت صبرى، بعد مناقشات دامت بينه وبين سعاد الحكيم لوقت ليس بالقصير، أن عليهم أن يشدوا الرحال -منذ الغد- إلى لاجوس!

وصرخ عزوز جابر:

« والمشاهد اللى فاضله لنا هنا يا أستاذ! »

فى هدوء رد مدحت:

« المسئولين فى السفارة أخذوا الإذن بالتصوير لمدة أسبوع ...

« يعني نروح لاجوس ونرجع هنا تانى! »

« لاحظ أننا فى دولة أجنبية يا أستاذ عزوز! »

« وليه ما نكملش هنا، ليه المصاريف، ليه المرواح والمجى، دول ... تلاته ونخلص اللوكيشن ده ونروح! »

و... ولم تكن هناك جدوى من المناقشة، حاول عزوز أن يك... لصفه، لكنها كانت مشغولة عن هذا بمراقبة مدحت صبرى، وتصرفاته، و... مناقشته فى هذا الموقف بالذات... وبرغم أن كل أعضاء البعثة أيدوا ... جابر فيما ذهب إليه، فإن مدحت أصر على موقفه... ليلتها... أوت دلال إ... خيمتها ولم تنم، فلقد أيقنت أن الحلم تبدد قبل أن يبدأ، وأن مدحت صبر... هذا المخرج الذى حلمت بأن يصنع للبلد أفلاماً عظيمة... ليس سوى ضابط مخابرات!

● ● ●

من الصعب أن نعرف على وجه اليقين كيف دخل الباشا بثمانين كيلو جراماً من المتفجرات إلى تلك العاصمة الجميلة من عواصم غرب أفريقيا، والتى يعتبرها البعض -بالرغم من جوها الأفريقى- جزءاً من أوربا... فالفرق بين أبيدجان وبين العواصم الأخرى المتناثرة على هذا الساحل، يبدو شاسعاً... كانت المدينة قد تحولت فى الوقت الذى وصل فيه الباشا، إلى قلعه تحرسها

ذئاب بشرية انتشرت فى كل مكان تتشمم رائحة أى شىء... وبالقطع، فلقد كان للأمريكيين عذرهم فى حماية رواد فضائهم، وهذا حقهم المشروع الذى لا يجادل فيه أحد... أما الإسرائيليون، فلقد كانوا هناك علناً، ودون مواربة، وفى استفزاز بفقد أشد الناس حلما حلمه... كانوا بالتأكيد فى انتظار حدث متوقع، أو... كانوا ــ بأسلوبهم هذا ــ يسدلون ستاراً على ما كان يجرى بعيداً عن هذا المكان!!

وحتى اليوم، وبرغم مضى السنوات، فإن الباشا لم يبح بعد بالطريقة التى أدخل بها المتفجرات إلى هذه القلعة، بتلك السهولة المذهلة!

غير أنه فيما بعد، عندما مضت سنوات عشر أو يزيد قليلا، تحدث محمود شوكت عن أسلوب اتبعه ذات يوم فى أحد مطارات أوربا... ونحن لا نملك إلا أن نصدقه، أو نستنتج، أو نقارن... ثم نجتهد بعد ذلك فى الاقتراب من هذا الأسلوب الفذ الذى يصبح من المستحيل أن يبوح به ضابط مخابرات ــ أو جهاز مخابرات ــ فمثل هذه الأساليب التى تدرس لضباط المخابرات فى تلك المعاهد والأكاديميات ذات الشهرة العالمية ــ دون أن يعرف أحد ما الذى يدور خلف جدرانها ــ على أنها تاريخ عليهم أن يعوه ويتعلموا كيف يطورونه ــ كل بملكاته الخاصة ــ إلى ما يلائم العصر!

وعندما صعد رجل الأعمال التركى عصمت كارجى إلى الطائرة المتجهة إلى أبيدجان فى مطار دكار... كان قد شاهد نديم هاشم، قبل هذا بنصف ساعة فى نفس المطار وهو يصعد إلى طائرة الخطوط الجوية الفرنسية، وفى توديعه رجل الأعمال السورى الأصل «سليم أبو فودة» وبعد أن شحنت حقائبه بسهولة،

وعرف الجميع أن الحقائب مليئة بقطع غيار للطاحونة والمعصرة، والتى كان المهندس «سليمان عبد البر محمود» أن يغيرها أو يصنع غيزها فى باريس
وكما كان صعود نديم هاشم سهلاً ميسوراً، كذلك كان صعود الباشا الذى فى وداعه ذلك المسئول الكبير فى الميناء، ومعه متعهد السفن الإيطالى «كيوبيدو بارتينى» الذى لم يكف عن ترديد أن الهر «مانفريد جايجر» سيكون فى انتظاره فى مطار أبيدجان، وأنه أبرق إليه بأنه حجز جناحاً بالفعل فى فندق لافوار له وللآنسة «ليليان»!

كان مع عصمت كارجى وليليان أربع حقائب وضعت على الميزان أمامهما فى دكار، ولصقت على تذكرة السيد عصمت أربع قطع من الورق تحمل أرقام الحقائب الأربع، واختفت الحقائب، وكان الوداع حاراً

وفى أبيدجان، كان الهر «مانفريد جايجر» فى انتظاره بالفعل... وكان سعيداً باستقبال عميل كهذا، لكنه كان فى ضيق من ذلك السياج المخيف من الأمن الذى ضرب حول كل شىء فى أبيدجان منذ أن اقتربت زيارة رواد الفضاء... ومن وجهة نظر «مانفريد جايجر» كان هذا منطقيا، لولا أنه كان يعلم بقرب وصول الحفار «كينتنج» والقاطرة «چاكوب ڤان هيموكيراك» القادمين من حيث لا يعلم المبحران فيما بعد إلى حيث لا يدرى...

وبالأمس، وصلت قاطرة بلچيكية تدعى «آلبى» رست على رصيف خصص لها، ووضعت عليها حراسة خفية وصارمة لسبب لا يدريه، ولقد قام مكتبه بتزويدها بكل ما تريد برغم السياج الكثيف الذى أحاطوها به... فلماذا؟!... وما الذى يحدث؟!.. وما هذا الذى يفعله هؤلاء القوم فى كل أنحاء

الدنيا ؟! ... وبينه وبين نفسه، كان «مانفريد جايجر» يلعن هؤلاء القوم ليل نهار، انه مضطر للرضوخ لكل ما يطلبون، ومنذ سنوات هددوه بإفشاء سره، وبإنه كان نازيا متعصباً... وهو لم يكن كذلك فى أى يوم من أيام حياته، ولكن: كيف يستطيع أن يثبت هذا ؟! ... بينما هم قادرون على إثبات أنه كان «هتلر» نفسه ... لذلك، فم يطل الأمر بينه وبين نفسه، كان قد قرأ عن إيخمان ومافعلوه به، وسمع عن عشرات القصص التى كانت تصله عبر السنين من أوربا وأمريكا اللاتينية والولايات المتحدة ... ولم يطل الأمر بينه وبينهم أيضاً فلقد رضخ وأطاع!

ولكن، بالنسبة لرجل أوروبى مثل «مانفريد جايجر» يعيش فى أبيدجان منذ سنوات طويلة، ويعزف حركة السفن والمال فيها جيدا، فإن عميلا مثل عصمت كارجى من الصعب التفريط فيه، ولو كان قد وصل فى وقت آخر لفعل من أجله الكثير!

وفى مطار أبيدجان لم تلحظ «ليليان» أن أوراق الحقائب الأربع التى كانت ملتصقة بتذكرة صديقها عصمت كارجى، كانت قد أصبحت ورقتين فقط ... لم تلحظ هذا، ولكنها لاحظت أن الحقائب الأربع التى وضعت على الميزان أمام عينيها فى دكار، أصبحت حقيبتين فقط ... أشار اليهما عصمت كارجى فأسرع الحمال الذى كان الهر مانفريد قد خصصه له، برفعهما!

لم تكن «ليليان هيجو» - وهذا هو اسمها فى جواز السفر - تعرف عن صديقها الثرى شيئاً، ولم يكن هذا ليعنيها فى كثير أو قليل ... كل ما تعرفه أنها جميلة جمالاً صارخاً، وأنها غبية غباء بلا حدود ... عرفت هذا فى وقت

مبكر من حياتها، فتعودت عليه، بل أحبته واطمأنت إليه ... [illegible]
فى أثناء حياتها الممزقة فى باريس، أن الذكاء يجر على [illegible] المتاعب، وهى لم تكن تأنس إلى المتاعب وتنفر منها نفوراً [illegible] فعندما رأت عصمت كارجى يشير إلى حقيبتين فقط ... ر[illegible] وأقنعت نفسها بأن تأثير شراب الليلة الماضية جعلها ترى الحقيبتين [illegible]!!

تعلقت ليليان بذراع صديقها التركى وهى تقول:

« ألن نغادر المطار يا عزيزى ؟! »

وتمتم عصمت بكلمات بلا معنى وهو يخطو نحو المنطقة الجمركية فى [illegible] ليس على عجلة من أمره ... وفى حقيقة الأمر، فلقد كان هو مشغولاً، [illegible] الدقائق التى مضت، بمراقبة مواطن سنغالى وصل إلى أبيدجان على [illegible] الطائرة، كان هذا المواطن قد أصيب بارتباك شديد عندما سقطت منه واحدة [illegible] حقيبتيه الثقيلتين فانفتحت أقفالها وتبعثر ما كان على السطح فيها من ملابس أفريقية وبعض مستلزمات منزله الجديد فى أبيدجان وبعض الهدايا للأصدقاء ... حاول فى ارتباك بالغ أغلاق الحقيبة ففشل، ولم يجد أمامه سوى أن يخرج حبلا وربط به الحقيبة ــ وكان الغريب أن الحقيبتان تشبهان حقيبتى السيد كارجى الناقصتين لولا بعض البقع والأوساخ التى علقت بهما ــ ثم هرول الرجل وقد تدلت من الحقيبة التى فتحت، أطراف ملابسه وأشيائه، وكان منظره مثيراً للرثاء حقاً وهو يتقدم من المنطقة الجمركية والعرق يتصبب من وجهة خجلا ... وعندما وقف أمام ضابط المطار كان هذا مشغولاً عنه بمراقبة القادم الجديد إليه، الذى تتعلق بذراعه غادة فرنسية شديدة الحسن، بين أسنانه سيجار فاخر، وخلفه حمال

يحمل حقيبتين... وقبل أن ينطق الضابط بكلمة، بدأ المواطن السنغالى فى فك الحبل من حول حقيبته، لكن هذا لوح له فى لا مبالاة بأن يمضى، فأسرع هذا شاكراً يعيد ربط الحقيبة، ويغادر المطار لا يلوى على شىء.

وهكذا خرجت المتفجرات!!

أما حقيبتا السيد عصمت كارجى، فلقد فتشتا تفتيشاً دقيقاً لم يخف على عين الباشا الذى كان يرقب الأصابع المدربة وهى تتحسس جدران الحقيبة وقاعها وغطاءها... وازدادت ابتسامته اتساعاً عندما سمح له الضابط بالمرور، فشكره بأدب بالغ وفرنسية رفيعة جعلت ليليان تنظر إليه فى دهشة من تعود أن يحدثها بفرنسية دارجة.

خارج المنطقة الجمركية، كان الهر «مانفريد جايجر» فى انتظاره، معتذرا عن عدم قدرته على دخول المنطقة الجمركية... وراح يحدثه فى إسهاب عن الأمن الذى يزداد صرامة فى العاصمة كلما اقترب موعد وصول رواد الفضاء الأمريكيين، لكنه بالطبع، لم يتحدث إليه بكلمة عن الحفار «كينتنج»!

• • •

التأم الشمل وتجمع الفرسان الثلاثة مرة أخرى وكان اللقاء حاراً... عادت درجة الحرارة إلى الانخفاض فى الخارج، لكن دفء اللقاء أنسى الرجال تشغيل جهاز التكييف، كان السكون شاملاً إلا من صوت نديم وهو يحكى لطاهر وعزت بدقة بالغة تفاصيل كل الذى حدث فى دكار.. عندما وصل إلى مطار القاهرة الدولى منذ يومين. وجد رسالة من طاهر رسمى تطلب منه أن يتوجه

إلى البيت فوراً، وأن يأخذ إجازة ليومين كاملين يقضيهما مع الأولاد... ظن نديم فى البداية أن شيئاً حدث لأحد ولديه فسأل فى فزع:

« العيال بيهم حاجة ؟! »

جاءه الرد مشفوعاً بابتسامة مطمئنة بأن كل شىء على ما يرام... فقط، عليه أن يرتاح تماماً، وأن ينام ملء جفنيه. فثمة أيام قادمة لن يعرف للنوم فيها طعماً!

لم يكن هذا هو الأسلوب المتبع فى مثل هذه الأحوال، ولقد كان الأمر أخطر من الركون إلى الراحة لمدة يومين... لكن طاهر رسمى كان له رأى آخر: أن الحفار الآن فى المحيط وأمامه على الأقل ستة أيام كى يدخل أبيدجان - إن دخلها أصلا - وأن الإجازة سوف تفيد نديماً أكثر مما لو واصل العمل وهو مرهق بعد رحلة صعبة!

وقضى نديم ثمان وأربعين ساعة فى الفراش، كان سعيداً لشفاء ولديه، وكان سعيدا أنه عاد إلى أسرته، لم يغادر الفراش إلا لتناول الطعام أو الجلوس - بالبيچاما - أمام التليفزيون... وكم كان إحساسه بالامتنان عميقا لكل ما كانت تقدمه زوجته، أراد أن يقول لها شيئاً فمسحت على رأسه فى حنان وهمست:

« لو شفت نفسك وأنت داخل علينا، حاتعرف أنا بعمل كده ليه! »

وعندما انتهى اليومان، دق جرس التليفون فى الصباح الباكر لليوم الثالث، وجاءه صوت طاهر رسمى وهو يصيح بأن الإجازة انتهت... تبادل الرجلان

الضحكات، وأسرع نديم يقطع الطريق بسرعة أوصلته -برغم بعدالمسافة- إلى مبنى جهاز المخابرات المصرى فى عشرين دقيقة!

....

....

التأم الشمل وتجمع الفرسان الثلاثة مرة أخرى وكان اللقاء حاراً، بعد ثلاث دقائق بالضبط كان نديم قد بدأ يحكى ويضع بين يدى طاهر وعزت، تقريره!

كان حديثه مرتباً واضح المعانى سلساً وكأنه تحول إلى فنان يرسم لوحة لا ضابط مخابرات يقدم تقريراً، هذا شأن نديم قلب الأسد عندما يندمج فى العمل فلا يرى فى حياته سواه... ختم حديثه بأن قال: إنه لم يغضب بالقدر الكافى لرحيل الحفار، بل انتابته راحة عميقة عندما رآه يمضى مبتعداً..! لقد اعتبر كل ماحدث ليس سوى «بروفه» لما لابد أن يحدث فى المرة القادمة!

« فين ؟! »

هكذا سأله طاهر رسمى فرد على الفور:

« فى أبيدجان بالتأكيد! »

« وايش عرفك إنهم حايدخلوا أبيدجان ؟! »

« ده أنسب وقت، وأنسب مكان ليهم ؟ »

سأله طاهر وهو يميل نحوه:

« واحنا عارفين كده ؟ »

« طبعا! »

« منين تضمن انهم ما عرفوش اننا عارفين ؟! »

وساد الصمت عميقا لثوان مضت كدهور، أضاءت الصورة فى ... هاشم مرة واحدة.. وقفز عزت بلال من مكانه مقترباً من طاهر رسمى ... كان الآن يجلس إلى مكتبه هادئاً تماماً... كان طاهر -بعودة نديم- ... كل أسلحته، فبدأ فى جلسته تلك كالثعلب يتربص بفريسته... قال نديم ... ينتقل إلى مقعد قريب:

« ونويت على إيه! »

« إنت إللى تقول يا نديم! »

وهكذا انكب الثلاثة، بحثا عن الخطوط الرئيسية، للخطة الجديدة!

١١ ـ الفصل الحادى عشر

بدلا من القرصنـــه .

« صمتت لأنها أدركت أن فريد لن يقول إلا ما ينبغى عليه أن يقول ... وصمت فريد لأنه وجد فى الصمت مخرجاً من المأزق الذى خاض فيه بالرغم عنه ! »

□ من الحمق أن نحاول معرفة الأسلوب الذى فكر به طاهر رسمى وز... وضع الخطة النهائية لتدميرهذا الحفار المنكوب ... لكننا نستطيع ــ بما توفر لد... معلومات ــ أن نحاول الاقتراب ــ ولكن فى حذر بالغ ! ــ من هذا الأسلو... الفذ فى التفكير، والذى نتجت عنه تلك الخطة التى أريد بها ، لا أن تحكم الحصار حول الحفار فقط ، بل وتطارده فى نفس الوقت !

كانت فكرة « المطاردة » هى العنصر الجديد الذى دخل حرب العقول هذه التى تأججت فى تلك الأيام الأخيرة من شهر فبراير عام ١٩٧٠ ، وهى فكرة كانت تعتمد ، لا على انتظار أو تحين الفرصة لضرب الحفار، ولكن على تحديد المكان وربما الزمان أيضاً !

لكن الغريب فى الأمر، أن الرأى استقر على أن أنسب الأماكن لتدمير الحفار هى أبيدجان ، التى كانت قد تحولت فى نفس الوقت ، إلى قلعة أمريكية إسرائيلية حصينة ، والتى تقول كل الحسابات : إن تدمير الحفار بها أمر يكاد يكون مستحيلا !

كانت الخطة الثالثة ــ الخاصة بلاجوس ــ والتى وضعها طاهر رسمى فى البداية ، والتى أوحى له بها ذلك الفيلم من أفلام القرصنة الذى عرضه التلفزيون المصرى ذات ليلة ... تعتمد بالفعل على القرصنة ! ... كانت تعتمد على

اصطياد الحفار فى عرض المحيط فى أثناء سيره، والانقضاض عليه وإغراقه بعيداً عن كل عين، وكل شاطىء!

قبل ذلك بشهور كان طاهر رسمى قد سمع عن نوع جديد من الصواريخ الصغيرة التى ابتكرتها العقول المصرية بعد هزيمة يونيو عام ١٩٦٧، والاستعداد لعبور القناة... فى البداية كانت هناك خطط ــ أو تصورات ــ عديدة لعبور القناة، منها خطط تعتمد على النزول فى أماكن متفرقة من شبه الجزيرة المصرية ــ شرم الشيخ مثلا ــ عن طريق البحر... وكان الأمر يحتاج إلى نوع من الصواريخ التى يمكن إطلاقها من زوارق مطاطية ذات تصميم خاص، لتطلق منها هذه الصواريخ على أهداف بحرية أو برية لتدميرها... ودخلت الصواريخ والزوارق العديد من التجارب، حتى أثبتت فى نهاية عام ١٩٦٩ نجاحها وإمكانية استعمالها بكفاءة عالية.

وما إن رأى طاهر هذا الفيلم فى تلك الليلة الشديدة البرودة، حتى واتته الفكرة!

فماذا لو استخدمنا سفينة تجارية مصرية، تزود بعدد من الصواريخ والزوارق، لتصطاد الحفار فى عرض المحيط، كما كان يفعل القراصنة تماما، لتدمره وتبعثه إلى الأعماق؟!

لذلك، كان الاتصال فى البداية بالمصانع الحربية والاتفاق معها دون الإفصاح بالطبع عن المهمة المطلوب لها هذا النوع من الصواريخ، ولذلك كان الاتصال بالقوات البحرية ــ دون الربط بين هذا الاتصال وبين الاتصال الخاص بالضفادع البشرية، أو حتى هذا الاجتماع الذى تم فى مبنى المخابرات

لمعرفة كل شىء عن الحفار وإمكانية تدميره ــ ولذلك أ[illegible] السفينة التجارية المصرية «نجمة يوليو» لتقطع رحلتها إلى هامبور[illegible] لتدخل ميناء لاجوس.

واكتملت الخطة الثالثة بوصول البعثة السينمائية المصرية [illegible] الصندوقان اللذان قيل إنهما يحويان معدات خاصة بالتصوير استوردها [illegible] مدحت صبرى، وفى كل منهما صاروخان على درجة عالية من كفاءة [illegible] وصعد الصندوقان إلى السفينة نجمة يوليو فى نفس ليلة وصول البعثة إلى لاجوس، ووضعا فى مكان آمن ذى درجة حرارة معينة، وتحت حراسة خفية لكنها مشددة... وبعد ذلك وصلت الزوارق وبقية المعدات اللازمة يوما بعد يوم ... وكانت تشحن تباعاً على ظهر السفينة وسط بضائع عديدة ومتنوعة كانت تشحن فى وضح النهار وأمام الجميع... أما البعثة، فلقد كان مطلوباً فى البداية، أن يلفت وجودها النظر فى حدود معينة، واختير لها مكان يبعد عن لاجوس كثيرا لتصوير المناظر الخارجية للفيلم... ولقد رصدت المخابرات المصرية عددا من العيون التى كانت تتلصص على أعضاء البعثة فى الغابة. وتتتبع حركاتهم وتحركاتهم يوما بيوم، بل ربما ساعة بساعة، بل، لقد نما إلى علم المخابرات المصرية، أن أحد الأجانب الذين كانت البعثة تستأجرهم لأداء خدمات فنية، كان يرسل تقريراً يوميا عما تفعله البعثة إلى إحدى السفارات الإسرائيلية فى دولة مجاورة... وإمعانا فى التحدى، فلقد كان هذا الشخص بالذات، يطلب منه أن يصحب عزوز جابر وسعاد الحكيم فى أى مشوار لهما إلى العاصمة كى يرصد كل ما يفعلان بأى أسلوب يشاء! وعلى كل... فلقد كان

المفروض إذا ما أفلت الحفار فى دكار وأبيدجان، أن تصعد البعثة السينمائية المصرية إلى السفينة «نجمة يوليو» على أن يصعد معها ـ دون أن يشعر حتى أعضاء البعثة أنفسهم ـ أربعة من أفراد القوات المسلحة الذين دربوا تدريبا كافيا على استخدام هذه الزوارق والصواريخ... حتى إذا ابتعدت السفينة بقدر كاف عن الشواطئ انطلقت إلى نقطة بعينها وسط المحيط، نقطة بعيدة عن مسارات السفن، لتغير لونها بالكامل فى مدة قدر الخبراء أنه من الممكن اختصارها إلى ستة عشر ساعة، ثم ترفع علما مجهولا لدولة لا وجود لها على خريطة الكرة الأرضية، ثم تنطلق بعد ذلك فى أثر الحفار، حتى إذا التقت به، أنزلت الزوارق المطاطية بالصواريخ الأربعة التى كانت كافية تماما لإغراق الحفار وإرساله إلى عمق المحيط!

كانت خطة جهنمية بالفعل كما أطلق عليها عزت بلال!

وكان مستوى الأمن فيها من الكفاءة بحيث ثبت فيما بعد أن الإسرائيليين لم يرصدوا شيئاً يخص الحفار على الإطلاق فى لاجوس قبل تلك الأيام الأخيرة من فبراير...

والآن... أصبح مطلوباً أن تظل هذه الخطة تحت التنفيذ، حتى إذا فشلت الخطة الجديدة التى وضعها طاهر مع زميليه، نفذت بالكامل... ولذلك، وصل إلى لاجوس فى اليوم التالى لوصول البعثة السينمائية من الأحراش المحيطة بمدينة «أو يو» الرجال الأربعة المدربون على قيادة الزوارق المطاطية وإطلاق

الصواريخ... ولكن، بعد تعديل طفيف حتمته الظروف، فى أ [illegible] على المسرح!

....

....

وجد عزت ونديم نفسيهما أمام قرار نهائى وضعه طاهر رسمى أ [illegible] القرار هو: لابد من ضرب الحفار فى أبيدجان، وأبيدجان بالذات!!

بدا القرار لأول وهلة غريبا كل الغرابة... ذلك أن العناصر ال[illegible] تجمعت فى الميناء الأفريقى، تبدو كلها عناصر «طرد» وليس [illegible] «جذب»... بل، إن الأمر بدا مستحيلا برغم أن المعاينة المبدأية التى قام [illegible] محمود شوكت، أو الباشا، أو رجل الأعمال التركى عصمت كارجى، أكد [illegible] القيام بالعملية فى هذا الميناء بالذات، مناسب تماما، وإن كان يبدو من [illegible] الأمن المضروب حول الميناء، وفى الفنادق والشوارع وكل مكان من الممكن أن يوجد به مصرى واحد، مستحيلا!

امتلأت المدينة برجال المخابرات المركزية الأمريكية ـ الذين ليس بالضرورة أن يكونوا أمريكيين ـ ثم إنها امتلأت ـ وعلنا ـ برجال الموساد... ثم كانت هناك تلك العناصر السياسية الشديدة الأهمية التى تمثلت فى تلك الصداقة الوطيدة التى استطاعت إسرائيل أن تبنيها مع حكومة ساحل العاج، وهى صداقة اتخذت فى ذلك الوقت أشكالا متنوعة، تبدأ بالتسليح، وتنتهى بالسياحة وبناء الفنادق...

وكان معنى هذا، أن الجو العام كله كان مشحونا «ضد» الوجود المصرى أيا ما كان!

«علشان كده، لازم نضرب الحفار هنا!!»

قالها طاهر وهو يدق بأصبعة فوق كلمة «أبيدجان» المكتوبة على شاطىء الساحل العاجى فوق الخريطة المعلقة أمام الرجال الثلاثة... فسأل عزت:

«وإذا ما دخلش أبيدجان؟!»

«إحنا نخليه يدخلها غصب عنه!»

كان سؤال عزت مبنياً على حقائق معلومة، وكان رد طاهر مبنياً على خطة لا تزال تختمر فى ذهنه!!

كان سؤال عزت مبنياً على حقائق. تقول إن الأيام تمضى دون أن يدخل الحفار إلى أبيدجان أو أى ميناء من الموانىء المنتشرة بطول الساحل الأفريقى... وإذا كان الحفار قد غادر دكار فى فجر يوم ١٩ فبراير (شباط) عام ١٩٧٠، فإن سفينة دانيماركية قد غادرت لاجوس فى نفس اليوم، ولقد بُثت رسالة من فوق ظهر هذه السفينة، إلى إحدى موانىء غرب أفريقيا فيما بين لاجوس ودكار، تقول: إن الحفار شوهد ــ بعد ثلاثة أيام ــ وهو مبحر نحو الجنوب... وإذا كانت أبيدجان تقع فى هذا المنعطف الحاد لساحل القارة الغربى، فإن مساره بدا وكأن وجهته ليست أبيدجان بأى شكل من الأشكال!

كانت هذه هى أولى الحقائق التى لفتت أنظار الرجال الثلاثة... أما الحقيقة الثانية فلقد كانت أغرب بكثير، فرغم اختفاء سارة جولدشتاين وديفيد ليفنجر فى نفس يوم رحيل الحفار، فهما لم يظهرا فى أبيدجان، ولا فى لاجوس... ليس هذا فقط، بل إنهما لم يظهر فى كوناكرى ولافرى تاون

ولامنروفيا ولاحتى رأس بالماس الموجودة على الحدود ما [illegible] وليبيريا... فأين ذهب إذن؟!

ثم كانت هناك حقيقة ثالثة أغرب من سابقتيها... فلقد أرسل [illegible] الهولندية لونابايرن برقية تقول أن القاطرة «آلبى» الراسية فى أبيدجان [illegible] كان المفروض أن تحل محل القاطرة «چاكوب ڤان هيموكيراك» [illegible] الحفار، تستعد بشكل سرى للغاية لمغادرة أبيدجان، وأن المعلومات التى [illegible] عليها لونا تقول إن القاطرة ستبحر فى وقت يجعل الإحساس برحيلها صعباً، [illegible] أن سلطات الميناء بالتعاون مع آخرين لا تعرفهم لونا ــ وإن كانت ترجح أ[illegible] إسرائيليون ــ يحاولون العثور على قاطرة أخرى فى أى ميناء قريب كى تحل [illegible] «آلبى» بحيث إذا أبحرت هذه فى جوف الليل حلت القاطرة الجديدة محلها ورفعت علما بلجيكيا، فلن يشعر أحد بفارق كبير، بل قد لا يشعر أحد على الإطلاق!

هذه الحقائق الثلاثة ــ مع حقائق أخرى لا نملك الإفصاح عنها ــ كانت توحى بأن الحفار لن يدخل أبيدجان، وإن كل ما يحدث فى الميناء العاجى من تحركات ليس وراءه سوى هدف واحد، هو إبعاد الأنظار عن الميناء الحقيقى الذى سيدخله الحفار!

قال نديم هاشم وهو يحملق فى الخريطة:

«على العموم لو ما دخلش أبيدجان، حايبقى قدامه أكرا ولومى وبورتو نوفو ولاجوس!»

صاح طاهر رسمى:

«إحنا ليه بنفكر فى الموانى الكبيرة بس؟!»

قال طاهر هذا، فهوى الصمت فى الغرفة كقنبلة بلا صوت!

وفى الحقيقة، أن صيحة طاهر رسمى لم تأت من فراغ، فلقد كانت هناك «ملاحظة» فى رسالة لونابايرن، بدت وكأنها إضافة نشطة من الصحيفة الهولندية... كانت الملاحظة تقول إنها سمعت — فى أثناء تناول العشاء مع مسئول الإعلام الأمريكى — كلمة عابرة فى أثناء لقائه بأحد أصدقائه فى المطعم، وإنها لم تعرف مدلولها... هذه الكلمة هى: «بورت هاركوت ؟!»

«إيه بورت هاركوت دى ؟!»

«آهيه !!»

كان السؤال من نديم، وكان الرد من عزت الذى وضع يده عند نقطة فى أقصى الجنوب الشرقى للساحل النيجيرى... ولم تكن «بورت هاركوت»، سوى ميناء صغير لا يصلح لرسو السفن الكبيرة يقع عند مصب أحد فروع دلتا نهر النيجر!... وإن كان ما يرسو فيه، ليس سوى بعض سفن الصيد، أو السفن الصغيرة!

«الحفار والقاطرة مش مراكب كبيرة، ومش محتاجين لغاطس كبير، وبالتالى، مش مهم إنهم يدخلوا ميناء كبير!»

هذا ما قاله طاهر فساد الصمت بين الرجال لثوان لكن نديم عاد يسأل عزت:

«برضه إيه بورت هاركوت دى ياعزت ؟!»

قال عزت:

«ميناء صغير، والمكان كله مستنقعات، وأى حركة فيه مهما [illegible] وتلفت النظر!»

كان الأمر يبدو مثل مأزق... وإذا كانت هذه الملاحظة [illegible] بايرن هى السبب المباشر الذى دفع طاهر رسمى إلى خلط الأوراق والتعديل [illegible] والتبديل والتحدى، ثم خلق هذه الخطة الجديدة التى كانت تعتمد [illegible] يكون الاعتماد، على دفع الحفار دفعاً إلى دخول أبيدجان... فإن الأمر [illegible] الآن، وكأن الخطوة الأولى، هى «تطفيش» الحفار بعيداً عن بورت هاركو[illegible] ولن يتأتى هذا إلا بإشعار الإسرائيلين بتواجد مصرى كثيف فى نيجيريا... ليس فى لاجوس وحدها، بل فى بورت هاركوت بالذات!.

• • •

كان وصول البعثة السينمائية المصرية إلى لاجوس عاصمة نيجيريا، بمثابة مهرجان فنى اهتزت له المدينة... فلقد أقام السفير المصرى، ليلة وصول البعثة من مدينة «أويو»، حفل عشاء دعا إليه عدداً كبيراً من الصحفيين والإعلاميين وأعضاء السفارات والمسئولين فى نيجيريا... وكانت دلال شوقى هى نجم هذا العشاء الذى بهر الأنظار، كانت فى تصرفاتها وبشاشتها — التى بذلت جهداً هائلا حتى تبدو طبيعية تماما — نموذجاً للفنانة التى تشرف أى دولة تنتمى إليها... وخرجت صحف اليوم التالى تحمل صور دلال شوقى والمخرج مدحت صبرى الذى بدا فى الصور كنجوم السينما، وحفلت الصفحات بمقالات وتعليقات عن الفن المصرى والسينما المصرية، كما حفلت بالعديد من مشاهد الفيلم التى

صورت فى الأحراش، والتى التقطتها مساعدة المخرج سعاد الحكيم بكاميرا لم تكن تغادرها طوال فترة عملها فى الفيلم!

وفى يوم وليلة أصبحت البعثة السينمائية المصرية حديث الناس فى لاجوس، وزاد من ذيوع الأمر، تلك المشاهد التى حشدت لها وزارة الداخلية النيجيرية عدداً هائلا من رجال البوليس الذين كانوا يضربون حول البعثة نطاقا يمنع عنها الجمهور الذى تقاطر كى يشاهد التصوير الذى كان يتم فى الشوارع والفنادق وفى الميناء وما حولها وفى أماكن كثيرة كان يتم اختيارها بأسلوب بدا للعاملين فى الفيلم ــ خاصة عزوز جابر ــ غامضاً كل الغموض.

كانت التعديلات التى وضعها كاتب السيناريو فى القاهرة، تستلزم وجود عدد من الممثلين الثانويين ــ أو الكومبارس ــ وبالتحديد أربعة منهم... أربعة من هؤلاء الفنانين الذين تجدهم دائماً وبكثرة، فى قهوة «بعرة» الكائنة فى شارع توفيق القريب من ميدان التوفيقية فى وسط مدينة القاهرة، وعندما قرأت دلال التعديلات، أثارت مع مدحت مشكلة عدم وجود فنانين فى نيجيريا يصلحون لتلك الأدوار... لكن مدحت رد عليها بأسلوبه الواثق الهادئ إنه قد طلب من سعاد أن تقرأ التعديلات فى لاجوس، وأن ترسل برقية تطلب فيها من القاهرة إرسال الفنانين الأربعة على وجه السرعة!

ورغم أن رد مدحت بدا مقنعا، فلابد من الاعتراف أن هذه كانت نقطة ضعف فى الخطة التى وضعها طاهر رسمى على وجه السرعة... فإن وصول الفنانين الأربعة فى اليوم التالى مباشرة لوصول البعثة، كان أمراً مثيراً للشك،

ثم... كان تصرف سعاد الحكيم، بطلب الأربعة وبمواصفات معينة دون الرجوع إلى المخرج تصرفا ــ بالتأكيد ــ غير مألوف، وفوق هذا وذاك، كان السؤال المطروح: لمن أرسلت البرقية والمنتج المسئول ــ المفروض أنه عزوز جابر ــ موجود مع أفراد البعثة فى نيجيريا، ومكتبه فى القاهرة لم يتلق طلبا من أى نوع؟!...

أضف إلى هذا كله، أن الرجال الأربعة الذين وصلوا، كانوا من رجال القوات المسلحة المكلفين بإطلاق الصواريخ على الحفار فى عرض المحيط، والذين تلقوا تدريباً سريعاً على يد أحد أساتذة التمثيل فى المعهد العالى للفنون المسرحية، الذى رحب بالمهمة عندما قيل له إنهم سيلعبون هذه الأدوار فى فيلم يكتبه ويخرجه ويمثله أفراد من القوات المسلحة... إذا كان الأمر كذلك، فلقد فات طاهر رسمى أن هذا النوع من «الكومبارس» معروف لا للفنانين والمنتجين فقط، ولكن لعامة الناس من أفراد الشعب، نتيجة لظهورهم فى عدد هائل من الأفلام، حتى أصبحت وجوههم معروفة، بل مألوفة أيضاً!

ولقد دهش عزوز جابر عندما رأى الممثلين الأربعة الذين وصلوا، وفى الحقيقة فإنه لم يهتم كثيراً أن الأمر تم دون استشارته، بل كانت دهشته لسرعة وصولهم من ناحية، ولعدم معرفته بأحد منهم من ناحية أخرى... لذلك، فلقد راح يسأل كلا منهم عن الأفلام التى ظهر فيها، والمخرجين الذين عمل معهم، وكان سهلاً أن يرد عليه هؤلاء بما لقنوا به فى القاهرة تلقينا حفظوه عن ظهر قلب!

أما دلال شوقى، فرغم الأزمة النفسية الحادة التى كانت تمر بها، فلقد ابتسمت بينها وبين نفسها، وأدركت أن القادمين الجدد ليسوا ممثلين من بعيد أو

قريب، وأنهم رجال سيلعبون دوراً فى المهمة التى من أجلها جاءت إلى هذه البلاد... ومن ثم، فلقد قررت أن تساعدهم على أداء أدوارهم بقدر ما تستطيع.

وقال الذين شاهدوا الفيلم بعد ذلك، إنها أفلحت، وأكملت ما بدأه أستاذ الأداء التمثيلى فى القاهرة!

....

....

وكان اليوم التالى لوصول البعثة السينمائية إلى لاجوس، يوما شاقا بكل المعانى... فلقد أصر المخرج مدحت صبرى، أن ينتهى من تصوير مشاهد بعينها قبل سفر البعثة إلى مدينة اسمها «بورت هاركوت» فى أقصى جنوب الساحل النيجيرى... وراح أعضاء البعثة يتساءلون عن «بورت هاركوت» هذه، وطلبوا من بعض المعجبين من المواطنين خريطة لنيجيريا، وأخذ المواطنون يتسابقون فى شرح مكان «بورت هاركوت» وما يحيط بها من مستنقعات، ويتحدثون عن دلتا نهر النيجر، وعن التماسيح وحيوانات البحر التى تكثر بشدة فى هذه البقعة... ومع تنقل الكاميرا من مكان إلى مكان، من أحد الشوارع الرئيسية وسط المدينة، إلى مدخل الميناء، إلى بهو فندق من فنادق الدرجة الأولى، إلى مطاردة فى شوارع إحدى الضواحى... ثم ــ وقبل الغروب بساعة ــ إلى أحد الأسواق الشعبية، حيث صورت دلال شوقى مشهداً رائعاً بينها وبين أحد هؤلاء الممثلين المزيفين، الذين عوملوا من الشعب النيجيرى معاملة النجوم... حتى إذا

إنتهى عمل اليوم، كان خبر وجود المصريين فى لاجوس قد أصبح فى كل بيت. بل، وفى كل كوخ!

عند الغروب عاد الجميع إلى الفندق، ما عدا مدحت صبرى الذى كان على موعد، بصحبة أحد رجال السفارة المصرية فى لاجوس، مع أحد المسئولين فى إحدى الإدارات الحكومية!

كان المخرج المصرى يريد إذاناً بالتصوير فى ميناء «بورت هاركوت» لتصوير بعض المشاهد فى قرى الصيادين المنتشرة وسط مستنقعات دلتا نهر النيجر... ولقد دهش المسئول النيجيرى لاختيار بورت هاركوت بالذات، فهناك العديد من قرى الصيادين القريبة من لاجوس، والمنتشرة بطول الساحل... فلماذا هذا الميناء البعيد عن لاجوس؟!

لكن مدحت كان مقنعاً تماماً عندما قال للمسئول النيجيرى: إن قصة الفيلم مأخوذه عن رواية فرنسية بعنوان «سيدة الأدغال»، وإن أحداث الرواية تدور فى أحراش نيجيريا، كما تدور فى لاجوس، وفى منطقة المستنقعات حيث تكثر التماسيح... وعندما ذكر له مدحت أسماء بعض القرى والأماكن هناك، والتى قرأها فى الكتاب، اقتنع الرجل، بل تحمس. وأعطى الإذن للبعثة بالسفر إلى الميناء الصغير... وعندما أضاف الدبلوماسى المصرى الذى صحب مدحت رجاء نقله عن السفير شخصياً، بالإبراق إلى السلطات فى بورت هاركوت، خاصة سلطات الميناء، بتسهيل مهمة البعثة ومساعدتها طوال مدة إقامتها التى تستغرق أسبوعا أو أسبوعين.. أبدى الرجل حماسه البالغ، وأجرى اتصالا تليفونياً خرجت على أثره برقية من لاجوس مع توصيات جهات عليا فى الحكومة. إلى كل

السلطات فى الميناء الصغير، بتوفير كل مساعدة ممكنة للبعثة التى قدر لها أن تغادر لاجوس فى غضون يومين أو ثلاثة!

ولما كان الطريق من لاجوس إلى بورت هاركوت بالقطار يستغرق وقتاً طويلا فوق مشقته، إذ كان الخط الحديدى الذى يصل المدينتين، يأخذ مساراً يتجه نحو أقصى شمال البلاد عند مدينة «كادونا» على مشارف هضبة «بوتشى» ثم يعود جنوبا إلى بورت هاركوت ... فلقد تم استئجار أتوبيس من إحدى شركات تأجير السيارات، كما تم استئجار سيارتين ليموزين، خصصت إحداهما لدلال شوقى والمخرج مدحت صبرى، وتقرر أن تسافر السيارة الثانية فى صباح اليوم التالى مباشرة، تحمل ثلاثة من العاملين فى الفيلم ـ لم يعرف أحد عنهم شيئاً على الإطلاق ـ وكانوا يحملون خطاب توصية إلى حاكم المدينة، للسماح لهم بمعاينة أماكن التصوير!

....

....

وصلت البرقية إلى «بورت هاركوت» فأحدثت ـ برغم تأخر الوقت ـ موجات متلاحقة من الأنباء والاستعدادات لاستقبال المصريين القادمين... وتحدث بعض الذين عرفوا بأمر البرقية من المواطنين فى دهشة... عن الأهمية التى ظهرت فجأة لمدينتهم بالنسبة للأجانب!

وفى الساعة السابعة وعشر دقائق هبطت فى مطار لاجوس إحدى طائرات شركة «إيرفرانس» وعليها ثلاثة من الدبلوماسيين المصريين المكلفين ببعض المهام فى السفارة.. والغريب فى الأمر، أن اثنين من الثلاثة كانا دبلوماسيين فعلا،

بل ومعروفين فى لاجوس، ولقد توجهوا جميعاً من المطار مباشرة إلى مبنى السفارة المصرية التى ظلت نوافذها مضاءة طوال الليل!

وباتت لاجوس، كما باتت بورت هاركوت، ولا حديث فيهما إلا عن المصريين.

و ....

وكان هذا هو كل ما يريده طاهر رسمى... ثم جلس ينتظر النتائج!

....

....

فى هذا اليوم عادت دلال شوقى إلى الفندق منهكة، ما إن هبطت من السيارة التى خصصت لها حتى استقبلتها مظاهرة صغيرة من المعجبين والمعجبات الذين التفوا حولها طالبين توقيعها فى أوتوجرافاتهم، واستجابت دلال لمطالبهم فالتقطت لها عشرات الصور معهم... كانت تفعل هذا وهى تبتسم وتضحك وتحدثهم بفرنسية سليمة زادت من إعجابهم وانبهارهم بشخصيتها، وبينما كانت هى تطلق ضحكاتها المرحة وتوزع ابتساماتها التى بدت خلابة، كان قلبها يتمزق ألماً، وكانت تهفو إلى لحظة تختلى فيها بنفسها علها تستطيع أن تنفس عما بها، لعلها تستطيع أن تبكى!

أخيراً دخلت دلال غرفتها، أغلقت الباب وألقت بنفسها فوق أحد المقاعد وراحت تفكر فيما حدث... كانت تتساءل عما ألم بها، هل برح بها الحب إلى الحد الذى كانت تهفو فيه إلى كلمة من مدحت، هل نسيت نفسها فراحت

تطارده أينما ذهب وحل، بينما كان هو مستغرقاً تمام الاستغراق فى عمله هذا المضنى ؟!... كل ما تعرفه أنها أرادت أن تتبادل معه حديثا، أى حديث... أن يقول لها أى شىء أوتقول له أى كلام... وحاولت دون جدوى... حتى إذا كانت مرة فيما بين مشهدين، أعادت المحاولة فالتفت نحوها بأدبه الشديد، ومال عليها هامساً:

« ممكن نأجل الكلام لبعد التصوير يا مدام ؟! »

لم يخطئ مدحت، لا لم يخطئ... ولم يقل شيئاً مهيناً أو خارجاً، لا لا.... لم يفعل ذلك، لكنها أحست بالإهانة تلسعها كصفعة دوت فسمعها الكون كله، ارتجفت، انسحبت متعثرة، اقترب منها عزوز وتحدث إليها فلم تسمعه، من أعماقها تصاعد هذا الإحساس المروع بالمهانة لسبب لا تدريه... قاومت وعملت وصورت ومثلت وكانت تهفو إلى لحظة تختلى فيها بنفسها، عادت إلى الفندق تحدوها رغبة جارفة فى البكاء، وهاهى تجلس فى غرفتها وحيدة تبحث عن الدمع فلا تجد سوى حريق يلهب جفونها... خلعت ملابسها استعداداً لحمام بارد أرادت أن تطفئ به ناراً راحت تتأجج فى جوانحها، خطت نحو الحمام خطوة ثم تسمرت بلا سبب، أحست أنها تحترق فضغطت زر المروحة الهائلة المدلاة من السقف فصنعت المروحة مع جهاز التكييف موجات من الهواء رطبت جسدها... ثم انداح كل شىء ليأتى فيض من الحزن فيغمرها... حزينة هي لا لأنها تحب مدحت صبرى، ولا لأنها تعلم أن لا أمل فى هذا الحب، لكنها حزينة لذلك الإحساس المميت بالعجز الذى احتواها منذ التقت بهذا الرجل فراحت تمضغ

عجزها فى صمت المستسلم... تذكرت جملة مدحت فانسحب الحزن ليحل محله غضب هائل، فصرخت فى الجدران الأربعة فيما حولها:

« إنت فاكر نفسك مين... دانا دلال شوقى ! »

كانت تقف الآن وسط الغرفة تنتفض، اختلطت الأفكار فى رأسها فراحت تتساءل عمن تكون دلال شوقى الآن ؟! ... وعادت تصرخ ملتاعة:

« طظ ... طظ ! »

جلست على حافة الفراش وقد تداخل جسدها وأرادت لنفسها أن تهدأ... دق جرس التليفون فانتفضت، مدت يدها إلى السماعة ورفعتها فى محاولة للسيطرة على نفسها، قالت بفرنسية سليمة:

« وى ألو ! »

« ازيك ؟! »

جمدت ذاهلة وقد فجر الصوت فى صدرها شيئاً.

« باقول ازيك يا دلال ! »

جاشت نفسها بكل ما فيها من عذاب فهمست غير مصدقة:

« فريد ؟ »

« أيوه ! »

« بتتكلم منين ؟ »

« من السفارة ! »

ياللحنين عندما يتفجر من القلب كالطوفان، اندفعت الدموع كالشلال من قلبها إلى عينيها وكأنها كانت فى انتظار إشارة بدء غامضة، حاولت أن تنطق

فخافت أن يفضحها صوتها أمام الصديق الذى أرسله القدر... طال الصمت فعاد صوت فريد ذهنى ينادى عبر السماعة :

« دلال »

أين هى ممن يمسح الآن على رأسها فى حنان ، كان لابد أن تنطق فخرجت كلمة « فريد » من بين شفتيها مبللة بالدمع ممزقة بهوان بلا حد... سمعت صوت فريد وكان قلقا :

« مالك يا دلال ؟! »

فليعلم كل الناس الآن أنها مهزومة فما عادت تحتمل ، انفجرت فى نشيج حاد ، وراحت كلماتها تتبعثر بلا رابط :

« تعال يا فريد... تعال لى من فضلك ! »

• • •

حتى عصر يوم ٢٦ فبراير (شباط) لم يكن الحفار قد ظهر بعد... وبالرغم من ذلك ، فلقد شهد هذا اليوم ، أجمل اللحظات التى مرت بطاهر رسمى منذ أن احتل غرفته تلك قبل ما يزيد على الستة أسابيع !

ففى عصر هذا اليوم ، وبالتحديد فى الساعة الرابعة بعد الظهر بتوقيت القاهرة ، وصلت إلى وزارة الخارجية المصرية رسالة من سفارتنا فى لاجوس عن طريق التلكس الدولى الذى يستطيع أى إنسان فى العالم أن يلتقط رسائله ... كانت الرسالة فيما يبدو تخص أحد أفراد السفارة ، وتتحدث عن أمور شخصية ، ومرسلة إلى أحد زملائه فى القاهرة ، وكان الحديث يدور حول البيت والعائلة

والانتقال والسفر وما إلى ذلك ... وفى الرابعة وخمس عشرة دقيقة ، غادرت إحدى السيارات فناء وزارة الخارجية لتصل إلى مبنى المخابرات العامة ، حاملة تلك الرسالة الغريبة !

عندما تسلم طاهر الرسالة كان يجلس وحده ، راحت عيناه تجريان على السطور بسرعة ، لكنه عندما وصل إلى منتصفها اعتدل فى جلسته كمن لا يصدق عينيه ، وسرعان ما فتح درج مكتبه وأخرج النسخة الوحيدة من دفتر الشفرة التى كان يحفظها عن ظهر قلب ، لكنه إمعانا فى التأكد ، راح يحل رموز الكلمات كلمة كلمة ... حتى إذا انتهى ، كانت الابتسامة قد اجتاحت كل ملامحه !

كانت الرسالة تقول : إن سارة جولدشتاين وديفيد ليفنجر وصلا إلى ميناء بورت هاركوت فى مساء يوم ٢٠ فبراير (شباط) -أى اليوم التالى لرحيل الحفار من دكار- تحت اسمى « باربرا هوفان » و« ايزاك ديستان » - وقدما نفسيهما للسلطات هناك على أنها صحفيان أمريكيان جاءا لعمل تحقيق صحفى عن الصيادين فى المستنقعات ! ... وكانا يحملان جوازى سفر أمريكيين ، وخطاب توصية من العاصمة ... وفى صباح يوم ٢١ فبراير استأجرا زورقاً طافا به فى الميناء لساعات والتقطا عدداً هائلاً من الصور... وفى الأيام التالية ، قاما بجولات مكثفة فى المدينة وصورا الصيادين فى أكواخهم وقواربهم ومعداتهم... لكنها فجأة ، وقبل منتصف ليلة ٢٤-٢٥ فبراير (شباط) - أى فى نفس الوقت الذى أرسلت فيه البرقية من لاجوس إلى سلطات بورت هاركوت بخصوص البعثة

السينمائية المصرية - تلقيا برقية بدت شديدة الأهمية، فلقد حزما أمتعتهما وحاولا مغادرة المدينة فى جوف الليل لولا تعذر الأمر لرداءة الطريق ولعدم وجود قطارات فى مثل هذا الوقت... فانتظرا حتى الصباح، وغادراها مع أول أضواء الفجر، وكانا يبدوان فى عجلة من أمرهما!

كانت سعادة طاهر رسمى حقيقية وغامرة، لا لأن الكلمة التى أرسلتها الصحفية الهولندية «لونابايرن» عفواً، كانت مفتاح لغز محير، ولكن لأن تقديراته كلها أثبتت دقتها إلى حد يبعث على الإعجاب... وأكثر من هذا، كان معنى ما حدث، أن خطته فى «تطفيش» الحفار من نيجيريا، ودفعة دفعاً إلى ساحل العاج، قد أفلحت!

فى سرعة من أصبح واثقاً من موقع قدميه راح طاهر يكتب برقية بثت فى الحال إلى أزمير فى تركيا، ثم خرجت من أزمير عن طريق التلكس الدولى إلى رجل الأعمال التركى عصمت كارجى الذى ينزل فى فندق «لافوار» الإسرائيلى بأبيدجان عاصمة ساحل العاج... وكانت البرقية تطلب منه أن يجرى اتصالاً بالصحفية الهولندية لونابايرن التى تنزل معه فى نفس الفندق، وأن يخبرها بأسرع ما يمكن أن «زاكرى» سوف يصل فى خلال الأيام القادمة... ثم طلب منه البحث عن سارة جولدشتاين وديفيد ليفنجر وأن يضعها بمجرد عثوره عليها تحت رقابة شديدة الصرامة!

أرسل طاهر البرقية ثم رفع سماعة التليفون وطلب رقماً:

« زكريا ... تعال لى من فضلك! »

كان زكريا، أو «زاكرى» كما تسميه لونابايرن من الرواد الأول الذين سكنوا مدينة نصر، ولذلك ... فبعد أقل من نصف ساعة، كان يجلس أمام طاهر الذى بادره بالقول:

« انت ممكن تسافر امتى؟! »

« دلوقت إذا حبيت! »

قال عزت بلال الذى كان قد عاد من مهمة خارج الغرفة وعلم بأمر البرقية فانتابته حماسة بالغة:

« فيه طياره حاتقوم الليله على باريس! »

« آخدها! »

« حاتفضل فى مطار شارل ديجول لحد الساعة اتنين بعد نص الليل، وبعدها حتاخد طيارة ثانية من نفس المطار، توصلك أبيدجان وش الصبح! »

« وهو كذلك! »

« آدى الباسبور، وآدى الفلوس! »

هتف طاهر وهو يلوح بسبابته فى وجه زكريا:

« زكريا! »

التفت نحوه زكريا فاستطرد طاهر منذراً:

« إذا كانت سارة جولدشتاين وصلت أبيدجان، لونابايرن حاتبقى معرضة لخطر أكيد! »

• • •

فى ذلك الوقت كانت لونابايرن تمر بلحظات عصيبة بالفعل، داهمها إحساس

مفزع بقلق غامض لم تدر له سبباً، تحولت أبيدجان فى الأيام الأخيرة التى سبقت وصول رواد الفضاء إلى مسرح محموم لحركة مجنونة، غصت شوارع المدينة الجميلة بسيارات أمريكية وأخرى ألمانية وشخصيات ووجوه لم تألفها العاصمة العاجية من قبل... وكان أكثر الفنادق ازدحاما هو فندق «لافوار» الإسرائيلى الذى لم يكن قد افتتح بعد، وتقرر أن يكون حفل افتتاحه هو حفل استقبال رواد الفضاء الأمريكيين، بدا هواء الفندق وكأنه يحمل شحنات توتر مرعب، امتلأت ردهاته وقاعاته وممراته برجال أمن كانت ستراتهم تنتفخ بما تحتها من أسلحة جاهزة دائماً للإطلاق... أرادت مغادرة الفندق فأجرت مكالمة تليفونية مع مسئول الإعلام فى السفارة الأمريكية، وطلبت مقابلته لوضع الخطوط النهائية للتحقيق الذى ستجريه مع أحد رواد الفضاء، رحب بها الرجل فخرجت لا تلوى على شىء وكانت كمن يستجير من الرمضاء بالنار...

عند الباب اصطدمت بذلك الرجل التركى الفظ الذى يملأ الفندق بالضجيج، ابتسم الرجل محاولاً الاعتذار، لكنها رمته بنظرة احتقار هائل، ومضت، فمضى هو إلى الداخل وكانت خطواته متعثرة لكثرة ما شربه من كحول... كانت البرقية التى أرسلت إليه من أزمير قد وصلت منذ ساعات وقبل أن يغادر الفندق، لكنها لم تسلم إليه فى وقتها لسبب مجهول، وجد البرقية فى انتظاره فراح يقرؤها فى لامبالاة من لايعنيه الأمر، كانت البرقية تتحدث عن صفقات ومواعيد وشركاء ووصول وسفر و... و... ويبدو أن السيدعصمت كارجى لم يعجبه فى البرقية شىء فلقدكورها فى قبضته بغضب والقى بها إلى الأرض ومضى إلىّ البار!

ولقد بقى عصمت كارجى فى بار الفندق فترة طويلة، وعندما لحقت به صديقته ليليان، انتقلا إلى بهو الفندق، وكان الرجل يبدو سكران تماماً!

....

....

فى مكتب مسئول الإعلام بالسفارة الأمريكية راحت لونا تراجع مع الرجل الخطوط الأخيرة لذلك التحقيق الغريب الذى كانت تزمع القيام به... فجأة، اقتحمت الغرفة فتاة ذات مظهر غريب، خطت خطوة، وهمت بالحديث عندما رأت لونا، فتراجعت، لكن رجل الإعلام الأمريكى رحب بها فى سعادة، فقدمها للونا على أنها صحفية مغربية إسمها «ليلى بومسعود»، وأنها جاءت إلى أبيدجان لتغطية أخبار رواد الفضاء... وبالنسبة للونا كان اقتحام الفتاة للغرفة ـمع وجود سكرتيرةـ مثيراً، وكان تراجعها أكثر إثارة...

كان اقتحامها للغرفة اقتحام زميل أو صديق أو صاحب بيت، وكان تراجعها تراجع غريب وفد كى يأخذ إذنا أو يحصل على خبر... فما الخبر؟!

تبادلت معها كلمات ود بلا طعم، عرفت أنها تنزل فى نفس الفندق فانغرست مخالب القلق أكثر فى عقلها، مضت الدقائق ثقيلة وكان واضحاً أن الفتاة لن تغادر المكان قبلها، استأذنت وانصرفت، قبل أن تصل إلى الباب حانت منها نظرة نحو الفتاة المغربية، فأحست برغبة شديدة فى التقيؤ.

فى الطريق إلى الفندق تساءلت لونا بينها وبين نفسها: كيف تقتحم صحفية عربية مكتباً فى السفارة الأمريكية بمثل هذا الأسلوب... ثم، وبفرض

أن المغرب على علاقة وطيدة بالولايات المتحدة، فكيف تنزل صحفية عربية فى فندق إسرائيلى حتى ولو كانت بلادها تغص باليهود!

توقفت عند أحد التليفونات العمومية وكانت تشعر بخوف غامض، أرادت أن تتصل برجل طاهر رسمى الذى تعودت اللقاء به، فقيل لها إنه سافر، اجتاحها رعب بالغ فسألت متى يعود، وفى برود جاءها الرد بأن صديقاً له سوف يتصل بها قريباً!

تلك لحظات لن تنساها لونابايرن ما عاشت، أحست وهى تعيد سماعة التليفون أنها تقف فى الشارع عارية تماماً... منذ جاءت أبيدجان واتصلت برجل طاهر رسمى هذا وهى تشعر أنها فى أمان، إن هناك من يحميها ويقف خلفها، لذلك راحت تعمل بجرأة وحماس... لكنها الآن... الآن...

دلفت إلى بهو الفندق فكأن أثقالاً تمنع قدميها من الحركة، ألقت بنفسها فوق مقعد فأحست وكأن هناك من ينظر إليها فتلسعها نظراته، رفعت رأسها فوجدت ذلك التركى الفظ يجلس قبالتها وهو يحملق فيها بنهم... منذ وصوله إلى الفندق، عرفت أن اسمه عصمت كارجى، وأن اسم صديقته هو ليليان... عرفت هذا لا لأنه قدم نفسه إليها ولكن لأن سيرته كانت على كل لسان، وفضائحه تزكم الأنوف، هربت من نظراته إلى المطعم، راحت تهرول بحثاً عن مهرب، طلبت عشاءً خفيفاً ولم تكن لها رغبة فى الطعام، طلبت كأساً من النبيذ لعلها تطفئ بها نار القلق المتقدة فى صدرها، فى انتظار الطعام تشاغلت

عن مخاوفها ببعض الأوراق التى راحت تقلب فيها، عادت النظرات الوقحة تلسعها فرفعت عينيها فإذا عصمت كارجى فى المائدة المقابلة، وعلى وجهه ابتسامة ذئب جائع، ارتبكت، تمنت لو أنها استطاعت أن تصرخ، تمنت أكثر أن تنهض إلى هذا التركى الفظ لتضع كل قلقها فى صفعة تهديها إلى صدغه!

عادت إلى الهرب من جديد قبل أن يأتيها العشاء، ما كادت تخطو إلى غرفتها حتى أدركت أن هناك من اقتحمها وفتشها تفتيشا دقيقاً... لم تدرك هذا لأن شيئاً انتقل من مكانه، أو لفوضى حلت بالغرفة، لكنها أدركته عندما وقعت عيناها على أدوات زينتها فأحست أن يد امرأة أخرى قد عبثت بها!

ولا تدرى لونابايرن لم تذكرت فى تلك اللحظة بالذات «ليلى بومسعود»!

لم يعد الخوف شكاً، وقفت وسط الغرفة كالحبيسة، لو أن صديق زاكرى -رجل طاهر رسمى- كان هناك للجأت إليه، فلمن تذهب إذن؟... كان الصمت فى الغرفة مخيفاً والوحدة جنوناً، اندفعت عائدة من حيث جاءت، وقفت أمام المصعد تتعجله فى قلق، فتح الباب فدلفت إليه وعندما هبط بها المصعد كانت تتنفس بصعوبة... توقف المصعد فخطت إلى الخارج لكنها اصطدمت مرة أخرى بهذا التركى الفظ... رفعت إليه عينين تنفثان غضباً بلا حدود، همت بالحديث فجاءها صوته شديد الخفوت وكأنه الهمس:

«مدموازيل بايرن!»

همت بأن تصرخ فيه بأن يتحضر ويكف عن ملاحقتها.

«استمعى إلى جيدا!»

لم لا تصفعه وتنهى الموقف بفضيحة يتحدث بها نزلاء الفندق.

« ثم نفذى ما سأقوله بالحرف الواحد! »

تخطى هذا الجلف كل الحدود، فلتلقنه درساً لا ينساه.

« إنى صديق زاكرى ! »

اهتزت حتى الأعماق وتلاشى الغضب فى لمح البصر فجاءها صوته مؤنباً:

« اغضبى أيتها الآنسة ولا تفرحى! »

استجابت الآن دون إرادة.

« زاكرى سيصل قريباً فلا تقلقى !! »

كادت دموع الفرح تطفر من عينيها.

« والآن اصفعينى.. اصفعينى بعنف! »

كانت تتمنى أن تفعل هذا منذ دقائق.

« اصفعينى أيتها الآنسة وبغضب شديد! »

كانت كلمته أمراً فأطاعت!

ودوى صوت الصفعة فى الردهة المزدحمة فالتفت كل من فيها، وهوى السكون على الجميع.

« والآن... انصرفى وأنت تسبين وتلعنين! »

وانصرفت لونابايرن وهى تسب وتلعن، لكن فرحتها كانت تزغرد فى صدرها، وبدأت نار الشوق تتقد فى صدرها، فى انتظار ملهوف للغد!

• • •

فى مساء ذلك اليوم بثت رسالة من أبيدجان إلى القاهر مباشرة بطريقة

ما- ووصلت إلى يد طاهر رسمى فى الثالثة صباحاً، كان الباشا يقول فى رسالته إن سارة جولدشتاين ظهرت فى فندق لافوار كصحفية مغربية اسمها «ليلى بومسعود»، لكن ديفيد ليفنجر لم يظهر بعد، ويرجح أنه مختف فى السفارة الإسرائيلية وليس فى فندق آخر، وإنه أبلغ الرسالة إلى لونابايرن فتلقى منها صفعة عنيفة تعبيراً عن الشكر... أما عن الحفار، فليست هناك أخبار بالمرة!!!

• • •

على بعد آلاف الأميال، كانت دلال شوقى تغادر باب الفندق فى لاجوس إلى سيارة السفير المصرى فى نيجيريا، والتى كانت تقف فى انتظارها، وقد علم الجميع أن السيدة حرم السفير قد وجهت لها دعوة للعشاء!... كانت دلال ترتدى فستاناً ذا لون هادئ، وقد بدت وهى تدلف إلى سيارة السفير مشرقة سعيدة، وعندما صفق لها بعض المارة فى الطريق هزت رأسها فى تحية مقتضبة!

وصلت السيارة إلى مبنى السفارة وكان ثمة من ينتظرها هناك ليقودها إلى الجناح الذى يقيم فيه السفير... تبعت الموظف إلى بهو واسع عبراه معاً إلى باب فى الصدر، ما إن اختفت خلفه دلال، حتى انثنى الموظف إلى ممر ضيق يقود إلى سلم صغير معدود الدرجات صعدته دلال، فإذا بها أمام باب مغلق، دق عليه الموظف دقتين، ثم فتحه وتنحى عن الطريق، لتدلف دلال... وكان فريد فى انتظاها هناك!

تسمرت دلال فى مكانها فور رؤيتها لفريد... سمعت صوت الباب يغلق من

خلفها فقاومت تلك الرغبة الجارفة فى البكاء، مد لها فريد يده مصافحاً، فارتمت فوق صدره وجسدها يهتز ببكاء طال إلى دقائق!

....

....

بكت دلال، بكت كما لم تبك من قبل، وصمت فريد، تركها تنفس عما فى صدرها، كان واحداً من الدبلوماسيين الثلاثة الذين وصلوا إلى لاجوس، وكان، قبل أن يلتقى بدلال، يعرف كل شىء منذ وصول البعثة السينمائية إلى نيجيريا حتى اللحظة التى التقى فيها بدلال شوقى الآن!

وبرغم أن فريد ذهنى ضابط مخابرات محنك، وبرغم صداقته الوطيدة بدلال وإعجابه البالغ بشخصيتها ومعرفته الوثيقة بها، فإنه لم يستطع حتى أن يكتم دهشته البالغة وهو يستمع إلى مساعدة المخرج «سعاد الحكيم».

كانت سعاد قد وصلت إلى السفارة فى السيارة الجيب التى تستعملها البعثة... دخلت السفارة بملابسها البسيطة تلك، والمكونة من بلوزة وبنطلون چينز وحذاء خفيف... وكانت تحمل -كعادتها- مجموعة من الأوراق الخاصة بالفيلم أو احتياجات البعثة... لكنها ما إن دخلت إلى مكتب الموظف المختص الذى نهض مرحباً بها، حتى أغلق الباب خلفها، وقادها الموظف إلى باب جانبى فى طرف الغرفة كان يؤدى إلى غرفة جانبية، وهناك التقت بفريد ذهنى الذى كان قد وصل إلى لاجوس منذ ساعة وبعض الساعة!

اندفع فريد نحو سعاد مرحباً بحرارة:

«إيه الأخبار يا ثريا؟!»

وكانت «ثريا جمعة» التى رافقت البعثة السينمائية تحت اسم «سعاد الحكيم»، ضابط مخابرات ذا مواصفات خاصة، فهى تجيد الملاحظة إلى الحد الذى يصبح من المستحيل أن يخفى عليها شىء مما يجرى حولها... وكانت منذ بضعة أعوام، ولظروف خاصة، قد التحقت بمعهد السينما قسم الإخراج تحت اسم «سعاد الحكيم»، وعرفت سعاد -أو ثريا- فى المعهد، على أنها طالبة من ذلك النوع الذى ليس له فى الفن من بعيد أو قريب، كانت تنجح بتقديرات جيدة، لكنها ما إن تخرجت حتى اختفت، وقيل يومئذ إنها قنعت بوظيف زوجة سعيدة!

استمع فريد إلى ثريا فى اهتمام ودهشة، حتى إذا انتهت، قال وهو يشعر بالمأزق الذى وضعته فيه الظروف:

«انتى متأكدة يا ثريا؟!».

ابتسمت ثريا فى غضب وهى تتمتم:

«وبعدين معاك يا فريد!»

نهض فريد فى قلق متسائلا:

«مش دى حاجة غريبة؟!»

هتفت فى انفعال:

«ايه هو اللى غريب ده؟!»

«دلال شوقى تحب؟!...»

«هى مش إنسان؟!»

«أيوه... بس... ...»

توقف فريد عن الحديث أمام نظرات زميلته التى بدا أنها متحمسة لجسدها اللطيف، وكانت تنظر فى ساعتها قائلة:

« أنا لازم أمشى! »

كان فريد يعى أن وراء ثريا مهام أخرى أكثر خطورة وأهمية، ودعها شاكراً وبقى فى الغرفة وحده يقلب الأمر على كل وجوهه، كان مطلوبا منه ألا يتصل بدلال شوقى إلا إذا رأى أهمية لذلك الاتصال، وجد نفسه أمام طريق واحد لا بديل له، تقدم من التليفون وطلب دلال!

....

....

فى حنان حقيقى قال فريد:

« مالك يادلال، إيه اللى حصل؟! »

كانت دلال تمسح الدمع الآن، وكان هو يتحسس الطريق وسط أشواك بلا نهاية... تمتمت دلال وهى تهز رأسا عجباً:

« مش عارفه يا فريد... مش عارفه! »

كان يعلم مدى اعتزازها بكبريائها فاعتمد تماماً على هذه الكبرياء، احتاج الأمر إلى فنجانين من القهوة المصرية الخالية من السكر... وحديث مصطنع المرح عن الأحراش والوحوش، حتى قالت دلال فجأة وهى تطرق الموضوع فى حذر من يبغى أن تظل رأسه مرفوعة:

« فريد ... أنا حاسألك سؤال وعاوزاك تجاوبنى عليه! »

« اسألى يادلال! »

« مين هو مدحت صبرى؟! »

قال فريد فى ثبات من يعلم أن لا بديل لرده:

« مدحت صبرى هو مدحت صبرى! »

أنذرته دلال فى تحفز:

« فريد!! »

فى صدق من يوصد فى وجهها كل الأبواب قال:

« ده كل اللى أقدر أقوله! »

وكان فى هذا الكفاية، هذه هى دلال شوقى... صمتت، فصمت!

صمتت لأنها أدركت أن فريد لن يقول لها إلا ماينبغى عليه أن يقول، وأن لا سبيل غير ذلك، وصمت فريد لأنه وجد فى الصمت مخرجاً من المأزق الذى خاض فيه بالرغم عنه!

نهضت دلال فى تثاقل من جثم اليأس على صدره، سارت حتى النافذة التى كانت تطل على أحد شوارع لاجوس... كانت الآن قد أدركت أن فريد لا يريد الخوض فى الموضوع وإن كان يعرف تماماً كل شىء... قررت أن تحمل همها وحدها وهى تلتفت إليه فى محاولة لاستعادة ذاتها:

« إنت جاى ليه؟! »

« عندى شغل! »

« طلبتنى ليه؟! »

« علشان أطمئن عليكى! »

نفثت عيناها نظرة غضبى فاستطرد كمن يعتذر:

« وعلشان أطلب منك طلب ! »

« إيه هو ؟ ! »

« فيه احتمال إنكم تطلعوا على مركب مصرى موجود فى الميناء هنا اسمه « نجمة يوليو » ... المركب ده حايسافر، وحاتحصل عليه حاجات، مش مطلوب أكثر من أنك تنسيها بعدما تسيبى المركب !

مدت دلال يدها إلى حقيبة يدها استعدادا للانصراف، فاقترب منها فريد فى ود :

« ماسألتيش عن الحفار ؟! »

رفعت إليه رأسها ساخرة :

« وإذا سألتك حاتقول لى ؟! »

فى عتاب هتف :

« دلال ! »

أرادت اختصار الموقف :

« إيه أخبار الحفار ؟! »

« هرب مننا فى دكار !! »

وكأنها تلقت صفعة فوق صدغها فلقد رفعت إليه رأسها محملقة فيه بغضب، فاجتاحت فريد فرحة طاغية ... فهذه هى دلال شوقى أخيراً تعود إليه :

« هرب إزاى ؟! »

فى بساطة قال فريد :

« مش المهم هرب ازاى، المهم إنه مايهربش تانى ! »

« إزاى ! »

« بأنك ترجعى دلال شوقى اللى أنا أعرفها، تعملى اللى عليكى و[illegible] ! »

ولقد كانت دلال شوقى عند حسن ظنه ... فرغم ما كانت تعانيه، فلما [illegible] فيما تلا هذا من أيام. متألقة إلى الحد الذى جعلها حديث الناس ... بلغ [illegible] وتألقها حداً جعل الناس -حتى أعضاء البعثة- يتهامسون بأنها وقعت فى الحـ[illegible] وأنها ستتزوج فى القريب من المخرج مدحت صبرى !!!

لكن أحدا لم يعرف، كم كان الحزن يعتصر تلافيف القلب فيها !

● ● ●

انقضى شهر فبراير (شباط)، ومضى اليومان الأول والثانى من مارس (اذار) دون أن يظهر أى أثر للحفار ... وشعر طاهر رسمى أن فى الأمر شيئاً لايزال خافيا ... كانت عشرة أيام قد انقضت منذ رحيل الحفار من دكار دون أن يدخل واحداً من الموانئ التى امتلأت بالعيون ترصد كل كبيرة وصغيرة فيها .

لم يكن معقولا أن يستمر الحفار مبحراً فى المحيط لأبعد من ميناء بورت هاركوت فى جنوب نيجيريا، فسعة القاطرة « چاكوب ڤان هيموكيراك »، وحمولتها من الوقود، لا تكفى إلا لهذه المسافة ... ولقد وردت الأنباء من أبيدجان تقول إن سارة جولدشتاين تتصرف بعصبية فائقة، وأن ديڤيد ليڤنجر لايزال مختفيا ... وأرسل الباشا يقول : إنه عاين الميناء معاينة كاملة، وإن هناك ثلاثة نقط فقط تصلح للوثوب على الحفار لو أنه دخل إلى الميناء بالرغم من كل ما يحيط به من حراسة ... وإن هناك نقطة بعينها، خارج الميناء، وتعتبر مثالية للقيام بالعملية ... وإن المتفجرات فى أمان !

وجاءت برقية أخرى تقول: إن زكريا أجرى اتصالا مثمراً للغاية مع لونابايرن، وإن القاطرة آلبى لم تبحر كما كان مقدرا لها... قال طاهر لزميليه:

« يبقى الحفار حايدخل أبيدجان ميه فى الميه ».

كانت المدة الكافية لوصوله قد انقضت منذ ما يقرب من أربعة أيام فلم يناقشه زميلاه، أوحى إليه صمتهما بأنهما يتركان الحلبة بالكامل لتقديره، فهو وحده الآن صاحب القرار... ولقد طال الصمت كثيراً وبدا على طاهر أنه يفكر بعمق بالغ... ولقد كان بالفعل فى تلك اللحظة، فى سبيله لاتخاذ قرارا خطير.

« تقدر تسافر امتى يا نديم ؟! »

« دلوقت ... بس أسافر فين ؟! »

« أبيدجان ! »

وقبل أن يتلقى جواباً التفت نحو عزت:

« الرجالة يجهزوا للسفر بعد بكره »

ثم التفت إلى نديم:

« وأنت حاتسافر بكره ! »

لم يرد نديم، فاستطرد طاهر وهو يعود إلى مقعده خلف المكتب:

« بس المرة دى حاتاخد معاك ديناميت ! »

هتف عزت:

« الديناميت وصل أبيدجان من زمان ! »

« المرة دى حايسافر ست رجالة مش أربعة بس ! »

قالها طاهر من بين أسنانه، كان يعلم أن لعبة الذكاء أوحرب العقول تصل فى تلك اللحظة إلى ذروة تحتاج إلى الحسم... وهكذا بدأت العجلة تدور فى عنف !

....

....

فى الساعة الواحد من صباح يوم ٣ مارس عام ١٩٧٠، وصلت إلى مكتب طاهر رسمى رسالة مطولة من رجل الأعمال التركى عصمت كارجى، جاء فى الرسالة:

« خرجت فى رحلة بحرية بصحبة ليليان فى أحد الزوارق عصر اليوم، أغدقت على صاحب الزورق فغادرنا الميناء إلى عرض البحر بعد أن شرب كمية لا بأس بها من الروم القوى... على بعد عشرين ميلا رأيت الحفار يرسو مع القاطرة فى عرض المحيط، علمت من القبطان أن الحفار يرسو فى هذا المكان منذ يوم ٢٨ فبراير، فى انتظار تعليمات جديدة ! »

....

....

اجتاحت الرجال فرحة عارمة جعلت الدماء تزغرد فى عروقهم، لكن أكثرهم فرحة كان طاهر رسمى بالطبع، كان يشعر بزهو شديد، فلقد دفع الحفار دفعا إلى إبيدجان، ولن يفلت منه هذه المرة !

١٢ ـ الفصل الثانى عشر

تدمير الحفار .

« لا توجد كلمة مستحيل إلا فى قاموس الضعفاء ! »

« نابليون »

□ راحت الأحداث تتلاحق بسرعة شديدة، ولم تكن هناك قوة على الأرض تستطيع الآن إيقافها. تدحرجت كرة النار من فوق الجبل وهى تندفع نحو الهدف آكلة فى طريقها كل عقبة... ترك إفلات الحفار من دكار فى نفوس الرجال رغبة جارفة فى التنفيذ مهما كانت العقبات... وكان رجال الضفادع البشرية قد عادوا إلى مأواهم السرى فوق جبل المقطم منذ عودتهم من دكار، لزموا تلك الفيللا المهجورة لا يبرحونها، ينتظرون نديم قلب الأسد فى كل ليلة ليتحدثوا معه فى كل أمور الدنيا لساعة وبعض الساعة دون أن يذكر أحدهم الحفار أو يسأل عنه.. كانوا قد عرفوا مهمتهم، لكنهم لم يعرفوا بعد أين سيقفزون على الحفار ليدمروه... شىء واحد أضيف إلى حياتهم التى كانت تمضى رتيبة إلا من بعض التمرينات الرياضية التى كانوا يمارسونها كل يوم، هذا الشىء هو أنهم كانوا يتبادلون الحديث بأسمائهم الكودية التى لقنوا إياها قبل سفرهم إلى دكار، كانوا ينادون بعضهم البعض بتلك الأسماء الجديدة، ويتحدثون عن حيواتهم الجديدة، بل إن البعض أتقن تلك اللهجة، التى يتميز بها موطنه الجديد... حتى كان مساء اليوم الثالث من مارس (آذار) لم يزرهم نديم كعادته، فأيقن كل منهم

أن الأمر يقترب... ليلتها ظل المتدين يصلى ويقرأ القرآن حتى ساعة متأخرة من الليل، فإذا حان وقت صلاة الفجر، وقف فى صالة الڤيلا الخاوية وراح يؤذن للصلاة بصوت خافت رخيم، وعندما نادى أن الصلاة خير من النوم، كان الجميع قد استيقظوا على ترنيماته الخافتة وراحوا يتوضئون الواحد تلو الآخر، وما لبثوا أن اصطفوا خلفه، فأقام الصلاة وصلى بهم، وكانت قلوبهم خاشعة!

....

....

فى ذلك الوقت كان نديم يودع زميليه... كان الوداع هذه المرة يختلف، وكان الأسلوب أيضاً يختلف... فمع الحقيبتين التين تحويان ملابس الضفادع البشرية ومعداتهم، كانت هناك حقيبتان أخريان -هاندباج- يحملهما نديم هاشم فى يده أو يعلقهما على كتفه، وكل حقيبة منها تحوى عبوة ناسفة شديدة الانفجار، وقد أحيطت بمجموعة من الكتب التى تخفيها!

حملت الحقائب إلى التاكسى الذى كان ينتظر فى الفناء الخلفى لجهاز المخابرات المصرى، وعندما شارفت الساعة على الخامسة صباحاً، انتهى نديم من فنجان قهوته الفرنسية التى صنعها له عزت بلال، فنهض ليصافح زميليه... ولقد صافح عزت أولا وعندما استدار نحو طاهر كان هذا يتفحصه جيداً للمرة الأخيرة، كان يتفحص البذلة والقميص ورباط العنق والحذاء، ضحك نديم وهو يكشف لطاهر عن جوربه، فنظر طاهر إلى الجورب واطمأن تماماً... وما لبث أن فتح ذراعيه لصديقه وزميله هذا الذى كان يعرف أية مخاطر كان فى طريقه

إليها الآن، ضم الرجلان كل منهما الآخر دون كلمة، وغادر [illegible] على شىء!

كان طاهر رسمى قد تلقى منذ ساعة واحدة برقية تقول: [illegible] المياه العميقه خارج ميناء أبيدجان. وأنه دخل إلى الميناء [illegible] الرصيف الذى ترسو عليه القاطرة «آلبى» بعد أن انفصا [illegible] «چاكوب ڤان هيمو كيراك»!

ومنذ عرف نديم بأمر البرقية، وناقش مع طاهر كل الاحتمالا [illegible] عكف على دراسة خريطة صغيرة كانت هى كل ما أتيح فى ذلك الو [illegible] المخابرات المصرى عن ميناء أبيدجان عاصمة ساحل العاج!

• • •

بدا واضحاً أشد ما يكون الوضوح فى تلك الأيام التى سبقت [illegible] الفضاء الأمريكيين لأبيدجان، إن العاصمة العاجية خالية تماما من أى [illegible] مصرى... لم يكن هناك مصريون على الإطلاق سوى أعضاء البعثة [illegible] وبعض العاملين فى الشركات المصرية هناك وهم معروفون بالشكل والا [illegible] وكانت الظاهرة الشديدة الوضوح، أنهم يمارسون حياتهم العملية والا [illegible] بشكل عادى للغاية لم يدخل فيه جديد بالمرة!

ومنذ أن التقى رجل الأعمال التركى عصمت كارجى بالصحفية [illegible] «لونابايرن» ذلك اللقاء العاصف الذى انتهى بصفعة دوت فى البهو [illegible] لفندق «لافوار» الإسرائيلى، والذى كان الآن يستعد لحفل الافتتاح و [illegible]

رواد الفضاء... منذ ذلك اليوم ولونابايرن تعيش حياتها فى نشاط صحفى خالص... كانت قد تلقت فى نفس الليلة، وبطريقة ما، رسالة مقتضبة تطلب منها أن تنسى الحفار تماماً، وأن تتفرغ تفرغا كاملاً لمهمتها الصحفية التى جاءت إلى ساحل العاج من أجلها... وأحست لونا أنها تخففت من حمل ثقيل، وتضاعفت سعادتها بانتظار زاكرى الذى لم يظهر على المسرح فى ذلك اليوم ولا اليوم الذى تلاه والذى قضت لونا نهاره في الانتظار بشوق دون جدوى... ولم تغفل عيناها تلك الحركة الغريبة التى كانت تتحركها الصحيفة المغربية «ليلى بومسعود»، والتى تقربت منها وكانت تلقى عليها كلما التقت بها وابلا من الأسئلة البريئة المظهر والتى أحست لونا أن وراءها خبثاً مسموما.

حتى إذا كانت الليلة التالية أصاب المدينة نشاط محموم، كان اليوم التالى هو موعد وصول رواد الفضاء الأمريكيين، وكان عليها أن تتناول عشاء خفيفا وأن تأوى إلى فراشها مبكراً استعداداً لغد مشحون بالعمل... صعدت لونا فى تلك الليلة إلى غرفتها، فتحت الباب وخطت إلى الداخل وهى تضىء نور الغرفة فإذا يد - من خلف الباب - تنقض عليها لتكتم أنفاسها بعنف، همت بالمقاومة فسمعت صوت الباب وهو يغلق وأحست أنها تعرف الذراع وتأنس إلى صاحبها، التفتت فإذا بها وجها لوجه مع «زاكرى»، همت بالصياح وقد انتابتها فرحة طاغية، فاشتدت قبضة زاكرى على فمها حتى كاد يكتم أنفاسها، وأمام عينيها رفع يده الأخرى بورقة قرأت فيها بوضوح:.«لا تنطقى حرفاً... ففى الغرفة إجهزة للتصنت!»

وقتها فقط أدركت لونا لم كف صديق زاكرى - رجل طاهر رسمى فى أبيدجان - عن الاتصال بها... فى هدوء رفع زاكرى يده عن فمها فارتمت فى أحضانه وكانت ترتجف بالشوق إليه!... وكوفئت لونا بايرن فى تلك الليلة مكافأة مجزية، عن كل الخدمات التى أدتها!!!

• • •

فى التاسعة صباحاً كان نديم يقف فى مطار روما وهو يحمل الحقيبتين الصغيرتين اللتين تحويان المتفجرات، كان أمامه الآن - حسب الخطة الموضوعة - ست ساعات كاملة حتى يحين موعد إقلاع طائرته الثانية إلى باريس.. وإذا كان مطار روما ذا طبيعة خاصة فى تصميمه، إذ يبدو للمسافر مستطيلا بشكل ما، فإن نديم كان يعرف إلى أين يخطو فخطا... عند نقطة بعينها توقف وأنزل الحقيبتين ثم ألقى بنظره إلى الناحية الأخرى فاطمأن قلبه... راح يتلفت حوله فأحس أن ثمة شيئاً فى الجو لا يرتاح إليه، أراد الاطمئنان أكثر، لا على ما يمكن أن يحدث فى الساعات الست القادمة، ولكن على ما يمكن أن يحدث فى باريس... واتته الفكرة عفو الخاطر فبدت له جنونية، لكنه لم يتردد فى التنفيذ، كان مسموحا له أن يغادر المطار فى هذه الساعات الست للتجوال فى روما، تقدم من مكتب الشرطة فى المطار وكان هناك اثنان من رجال الشرطة الإيطالية، فى فرنسية سليمة تماماً ألقى عليهما التحية ثم عرض عليهما أمراً فلم يفهما... ابتسم فى خجل وهو يسألهما فى إيطالية ركيكة إن كان أحدهما يتحدث بالإنجليزية، فقال واحد منهما:

«ماذا نستطيع أن نقدم لك؟!»

قال نديم :

« إن على أن أقضى ست ساعات فى المطار حتى يحين موعد طائرتى المقلعة إلى باريس ! »

قال هذا وصمت ، فسأله الشرطى الإيطالى مرة أخرى عما يستطيع أن يقدم له ؟

« إنى لم أر روما من قبل ، وكم أتمنى أن أشاهد الكوليزيوم ! »

« وما الذى يمنعك ، هناك ما يكفى من الوقت ! »

فى أدب بالغ أومأ نديم نحو حقيبتيه الناسفتين قائلاً :

« هاتان الحقيبتان مليئتان بالكتب ، وهما ثقيلتان ، فهل أستطيع أن أتركهما هنا لساعتين أو ثلاث ريثما أقوم بجولتى الأولى فى روما وأعود ؟! »

نظر الشرطى إلى الحقيبتين فأسرع نديم ليجذب سوسته إحداهما هاتفا :

« إنها مجموعة من الكتب ! »

برزت الكتب من الفتحة ، فأشار رجل البوليس نحو أحد الأركان فى لا مبالاة قائلا :

« ضعها هناك ! »

وشكره نديم وهو يحمل حقيبتيه الشديدتى الانفجار، ليضعها أمانة لدى البوليس الإيطالى !

وقضى قلب الأسد ساعات ممتعة مع أحد أصدقائه فى روما ، وكان حريصاً على تناول ذلك الصنف من الشوربة الإيطالية التى كانت تمتلئ بلحم السمك الطازج ، والتى اشتهرت فى « ميلانو » باسم « سوبو دى بيتشى » ، وعاد إلى المطار

قبل موعد إقلاع الطائرة بساعة ونصف ، لكنه قبل أن يسترد حقيبتيه ، تفحص المكان جيداً ، وقضى حوالى ثمانى دقائق كانت كافية لأن يعلم أن كل شىء على ما يرام ، فتقدم من رجلى البوليس ، وشكرهما بحرارة ، واسترد أمانته ، وصعد إلى الطائرة .

....

....

وصل نديم إلى مطار شارل ديجول فى باريس وكانت درجة الحرارة فى عاصمة النور قد انخفضت عدة درجات تحت الصفر ، كان عليه الانتظار - أيضاً - حتى قيام الطائرة المتجهة إلى أكرا فى غانا عن طريق دكار فى السنغال ، ثم أبيدجان فى ساحل العاج ! ... وكان موعد إقلاع الطائرة فى العاشرة والنصف مساء ! .

ورغم أن كل شىء بدا طبيعيا تماما طوال تلك الساعات ، فقد بدت لنديم مثل دهور بلا نهاية ، كان التوتر لايزال قائما وإن كانت حدته قد خفت بعض الشىء ... فى التاسعة مساء بدأ تساقط الثلج فى غزارة ، وأعلن المطار عن تأخر قيام الطائرة بسبب الثلوج المتراكمة ، فبدأ القلق يستبد بنديم !

ياهذه اللحظات المروعة التى تسحق أعصاب الرجال سحقاً ، لا خوفاً على أنفسهم ، ولكن خوفاً من ألا يتمكنوا من خدمة وطنهم على الوجه الأكمل ... مضت به الساعات كالواقف على أطراف أظافره ، بعد منتصف الليل أعلن عن موعد قيام الطائرة فى الواحدة ، لم يجد هذه المرة من يطلب من الركاب التقاط حقائبهم كى تفتش قبل الصعود إلى الطائرة ... كان الجو فى المطار مكفراً والتوتر شديداً ، لكن الأمور سارت ــ على غير ما كان ينتظر ــ على يرام !

في الطائرة حاول أن ينام دون جدوى، كان يحمل جواز سفر باسم «زكى متولى داكر»، وكانت مهنته مديراً عاماً بإحدى شركات القطاع العام، أما تذكرته فكانت من القاهرة حتى أكرا عن طريق روما، باريس، دكار، أبيدجان... ولقد هبطت الطائرة فى دكار قبل الفجر بقليل فلم يغادر مقعده... غادرها ركاب وصعد آخرون، وكان ضمن الصاعدين من دكار رجل الأعمال السورى الأصل «سليم أبو فودة» يصحبه المهندس «سليمان عبد البر محمود» الذى كان قد عاد إلى دكار من باريس منذ بضعة أيام فلم يهتم أحد بوصوله ولا لماذا أو كيف... فلقد كان الحفار قد رحل وعادت الأمور إلى سيرتها الطبيعية، وكان المهندس سليمان عبد البر محمود يصحب مخدومه السورى الأصل إلى أبيدجان فى رحلة عمل للالتقاء بمندوب أحد التوكيلات الفرنسية، وليبرم مخدومه عدة صفقات كانت مصانعه فى حاجة إليها... كان المهندس سليمان عبد البر محمود يرتدى نفس الملابس التى يرتديها نديم، وفى ذلك الوقت من الليل، ولأن نديم ظل قابعاً فى مكانه، فإن أحدا على الإطلاق لم يلحظ ذلك التشابه الشديد بين الرجلين، ولا ذلك التطابق الذى لا يمكن أن يكون مصادفة بين ملابس الرجلين حتى فى لون الجورب وماركته، ولقد أقلعت الطائرة من دكار دون أن يغادر نديم مقعده... ولكن، قبل أن تصل الطائرة إلى أبيدجان بنصف ساعة، وكانت الشمس قد أشرقت ونفذت أشعتها من نوافذ الطائرة، نهض نديم إلى الحمام، دخله وغاب فيه خمس دقائق، ويبدو أن رجل الأعمال السورى الأصل السنغالى الجنسية قد شعر برغبة هو الآخر فى دخول الحمام فنهض ووقف ينتظر عند الباب، حتى إذا فتح، لم يوسع لنديم الطريق بقدر كاف كى يعبر ممر الطائرة الضيق، وتلامس جسدا الرجلين لحظة كانت كافية لأن يسلم كل

منهما إلى الآخر جواز سفر يضم تذكرة بين صفحاته... بسرعة كان نديم يضع فى جيبه جواز سفر باسم المهندس سليمان عبد البر محمود، وتذكرة من دكار إلى أبيدجان... وعندما عاد «سليم أبو فودة» إلى مقعده، دس فى جيب المهندس سليمان الذى كان يجلس بجواره، جواز سفر يحمل اسم «زكى متولى داكر» وتذكرة من القاهرة إلى أكرا!

وعندما كانت الطائرة تحلق فوق أبيدجان، كانت الساعة تقترب من الثامنة صباحا، وكان على الطيار أن يدور فوق المدينة دورة، ولقد حانت من نديم نظرة خلال النافذة، فإذا قلبه يخفق بعنف، كانت الخريطة الصغيرة التى أمضى ساعات فى دراستها بمكتب طاهر رسمى بالقاهرة، منذ ما يزيد على الأربع والعشرون ساعة، حية أمامه... كانت الطائرة تدور فوق الميناء الذى بدا شديد الوضوح، وكان الحفار هناك، تحت عينيه، يقف إلى جوار القاطرة «آلبى» على الرصيف الذى كان نديم يعلم علم اليقين أنه وضع تحت حراسة مشددة... راح يمتص المشهد الذى يراه حتى حفر فى ذهنه حفراً... أهداه القدر أول «معاينة» لمكان الحفار، بدت له الميناء كخريطة حية شديدة الوضوح تحت شمس أفريقيا الساطعة!

فى مطار أبيدجان، لم يكن هناك راكب واحد قادم من القاهرة، وكان مندوب التوكيل الفرنسى فى انتظار السيد سليم أبو فودة وكبير مهندسيه الذى لم يكن سوى نديم قلب الأسد... لكن الغريب فى الأمر، أن نديم غادر المطار دون حقيبتيه الناسفتين، واللتين كانتا قد غادرتا المطار قبل دقائق، بصحبة راكبين آخرين من ركاب الطائرة، وكان أحدهما فرنسى الجنسية!

أما الحقيبتان الكبيرتان اللتان تحويان ملابس الضفادع البشرية ومعداتهم، فلقد واصلتا الرحلة حتى أكرا، وهناك تسلمهما المهندس سليمان، ثم عادتا إلى أبيدجان فى نفس اليوم على طائرة أخرى، وكانتا بصحبة مندوب إحدى شركات السيارات الألمانية، والذى كان كثير التردد على مطارات غرب أفريقيا، وكان معروفاً، بشكل خاص، فى مطار أبيدجان!

وهكذا... لم يحل مساء هذا اليوم، حتى كان نديم قلب الأسد مع حقائبة الأربعة كاملة، فى بيت آمن «Safe house» أختير هذه المرة فى قلب الحى التجارى فى المدينة التى كانت ترتدى ثوباً قشيبا. «وتشغى» بالحركة، استعداد لاستقبال رواد الفضاء!

• • •

فى نيجيريا سافرت البعثة السينمائية المصرية إلى ميناء «بورت هاركوت»، وراحت تصور بعض المشاهد فى قرى الصيادين بالفعل، لكنه لوحظ، أن أفراد البعثة، كانوا كثيرى التردد على الميناء، والحديث إلى الموظفين والعمال فيها، وأنهم أقاموا علاقات حميمة مع أفراد من الشعب النيجيرى الذى رحب بالمصريين ترحيباً حاراً!

لكنه لوحظ — بشكل ما — أن الفنانه دلال شوقى، كانت تميل إلى الأنطواء، وقيل فيما قيل بعد ذلك، إن السبب فى انطوائها هو الإرهاق الشديد فى العمل، خاصة فى تلك الأيام التى قضتها البعثة فى لاجوس العاصمة!

• • •

بعد ساعات من وصول نديم هاشم إلى أبيدجان، التقى بالباشا فى «البيت الآمن»... كان اللقاء بين الزميلين حاراً، وقال الباشا بأسلوبه الساخر هذا إن

المدينة تحولت فى الأيام الأخيرة إلى ترسانة مسلحة، وإنه قد عاين الحفار عدة مرات، كما أتيحت له معاينة الميناء، وكان رأيه أن التنفيذ فى أبيدجان يعتبر مثالياً برغم التواجد الكثيف لرجال المخابرات الإسرائيلية والأمريكية، وإن المصريين بالرغم من هذا- أوربما لهذا السبب- يستطعون الحركة فى اطمئنان...

وعلى خريطة لميناء أبيدجان جلس الرجلان يدرسان إمكانية التنفيذ من مواقع ثلاثة حددها الباشا.. كانت الساعة تشير إلى الثانية ظهراً، وفى الثالثة انتهى الرجلان مما كانا فيه وأصبح على الباشا أن يعود إلى الفندق حتى لا يثير غيابه أى نوع من أنواع التساؤل، وقبل أن ينصرف الباشا، اتفق الرجلان على اللقاء فى المساء!

بعد ذلك بعشر دقائق، غادر نديم هاشم البيت الآمن وكان يرتدى قميصا أبيض اللون ليس نظيفا بقدر كاف، مفتوحا حتى منتصف الصدر العارى، وبنطلونا أزرق، وعلى رأسه كان ثمة قبعة من تلك التى يرتديها البحارة، ثم أضاف إلى ملامحه شارباً كثا غليظا.. كان المبنى الذى اختير فيه البيت الآمن يحتوى على عدد من مكاتب توكيلات السفن، ولذلك لم يستعمل نديم المصعد، إنما هبط دورين على السلم ثم نفذ إلى ممر، وهناك كان باب لأحد هذه التوكيلات حيث تجمع عدد من بحارة السفن من جنسيات مختلفة، كان المكتب مزدحماً بالبحارة الذين غادروا سفنهم أو يبحثون عن عمل على سفينة أخرى، وكان المكان مختنقا بدخان كثيف برغم المروحة الهائلة التى تدور فى السقف، وبرغم التكييف المركزى فى المبنى كله... اندس نديم فوراً وسط البحارة، أشعل سيجارة، ووقف ينتظر!

كان هناك حوار بين ثلاثة من البحاره— اثنان منها أوربيان والثالث مكسيكى—

وبين أحد موظفى المكتب، وانتهى الحوار بموعد فى اليوم التالى... وما إن تحرك الثلاثة مغادرين المكان حتى انضم إليهم نديم... وكان الغرض مما فعله نديم هو اختبار زيه الجديد وسط أصحاب الشأن فيه، ثم مغادرة المبنى إلى الطريق العام دون أن يتساءل أحد عمن يكون هذا الغريب... ولقد كانت حركة المرور فى ذلك الوقت ضعيفة بعد أن ارتفعت درجة الحرارة... وبعد أقل من نصف ساعة، كان نديم داخل أسوار الميناء، يسعى حثيثاً، كمن يعرف وجهته تماما، نحو الرصيف الذى يرسو عليه الحفار!

تلكأ نديم بجوار أحد مخازن الميناء... كان الآن يتوسط موقعين حددهما له الباشا، وكان الموقعان يؤديان إلى الحفار الذى بدت له أبراجه واضحة كل الوضوح... كان الموقع الأول مثاليا للانقضاض على الحفار، فهو لا يبعد عنه بأكثر من مائة وخمسين مترا، أما الموقع الثانى، فكان يواجه بوابة الخروج من الميناء حيث تكثر الحركة ليلا، وكان يبعد عن الحفار بحوالى مائتين وخمسين مترا.

لم يستغرق الأمر من نديم أكثر من خمس دقائق.. فهذان الموقعان هما أنسب الأماكن لعمليات تخريب الحفار، وبالتأكيد، فالإسرائيليون لم يغفلوا عن هذا، ولم تغفل عين نديم بالقطع عن تلك الحراسة الخفية، التى بدت فى مجموعة من البحارة تناثروا فى المكان بحساب، وبحيث إذا فكر أحد فى الاقتراب من الرصيف، من ناحية المياه أواليابسة، وقع تحت نيرانهم بسهولة... وسرعان ما غادر نديم الميناء، وكانت الساعة الآن قد تجاوزت الرابعة ببضع دقائق!

....

....

عبر نديم الطريق وهو ينظر فى ساعة يده الضخمة [illegible] خمسين متراً، وانحرف إلى اليسار، فى طريق جانبى يؤدى [illegible] جانبيه مجموعة من تلك البارات التى تكثر عادة حول [illegible] خلع قبعته وراح يحك رأسه ناظراً إلى البارات حتى [illegible] بعينه. توقف أمام البار وما لبث أن خطا إلى الداخل [illegible] حوله فإذا المكان شبه خال، لم يكن هناك سوى عدد [illegible] كانوا يحتسون البيرة فى صمت... وفى أنحاء متفرقة من [illegible] جنسيات مختلفة يجلسن فى كسل وانتظار وتراخ من [illegible] العمل... نظرت إليه فتاة زنجية ذات قوام ممشوق [illegible] ما لبثت أن نهضت إليه هاتفة:

«هالو جاك»

التفت نحوها نديم، مال برأسه يمنة ويسرة كمن [illegible] تقدم منها واضعا يده تحت ذقنها متمتما:

«ان اسمى جيمى!»

ابتسمت الفتاة عن أسنان شديدة البياض. تأبطت [illegible] الجرسون الزنجى أن يأتيها بزجاجة كاملة... قادت نديم [illegible] تتمايل، دفع نديم الباب بقدمه ودلف مع الفتاة إلى ممر [illegible] من الغرف التى كان بعضها مغلقا والبعض مفتوحاً.. [illegible] الممر تجاور باباً خلفياً للبار، ما إن دلفا إلى هذه [illegible] بسرعة وهى تهمس:

«تستطيع الآن أن تستبدل ملابسك!»

كانت الجملة التى استقبلته بها الفتاة والجملة التى رد بها عليها، هما كلمتى السر التى اتفق عليها مشفوعة بحركة يده تحت ذقنها ... راح نديم فى سرعة يستبدل ملابسه، وعندما جاء الساقى بالزجاجة كان يقف خلف الباب وقد تغيرت هيئته، فلقد أصبح يرتدى الأن قميصاً أنيقاً وربطة عنق غالية وبنطلوناً بنى اللون، خلع القبعة وصفف شعره بسرعة ووضع على عينيه نظارة طبية من ماركة شهيرة، امتدت يده إلى حقيبة أوراق كانت موضوعة تحت الفراش، انصرف الساقى بعد أن تناولت منه الفتاة الزجاجة من فتحة الباب الضيقة، ران السكون على الممر بعد أن تلاشت خطوات الساقى فأومأ نديم للفتاة برأسه، فتحت الباب وأطلت على الممر وسرعات ما أشارت إليه وهى تجذب الباب الخلفى للبار فى رفق وبلا صوت، نفذ نديم من باب الغرفة إلى الخارج مباشرة، وكانت سيارة زرقاء اللون فى انتظاره، دلف إلى السيارة التى انطلقت به، وكان آخر ما سمعه من الفتاة قولها:

«لا تتأخر عن ساعة وإلا تضاعف السعر!»

وهكذا راحت السيارة الثالثة تنهب به الأرض نهباً نحو الموقع الثالث الذى يبعد عن الميناء بحوالى اثنين وعشرين كيلو متراً... وإذا كانت الميناء تتكون من مجموعة من البحيرات التى تفصل بينها أرصفة تمتد كالأصابع، فإن السيارة كان عليها، فى منطقة معينة من الطريق الرئيسى، أن تنحرف إلى طريق جانبى غير ممهد، يمتد إلى حوالى سبعة كيلو مترات، ويمر بمناطق ريفية وسط غابة كثيفة الأشجار يخترقها نهر صغير... وكان هذا النهر، يصب عند المنطقة التى وقع عليها الاختيار للوثوب على الحفار!

عندما مرت السيارة بإحدى القرى، قال السائق إن اسمها «لوكودوجو» وإن أهلها يعملون، بخلاف الزراعة، فى نقل خشب الأشجار عبر النهر الصغير إلى الميناء حيث يشحن فى السفن... وعندما مرت السيارة بالقرية الثانية سأل نديم:

«متى ينام سكان القرى ؟!»

رد السائق:

«من العاشرة مساء حتى السادسة صباحاً، عندما يدق جرس الكنيسة القريبة!»

وكان برج الكنيسة الآن قد بدا لعين نديم الذى راح يتفحص المكان بعينين نهمتين... توقفت السيارة وسط الغابة وانحرفت عن الطريق حتى اختفت بين الأشجار، غادرها نديم وراح يخترق طريقه على مهل وهو يتفحص كل ما حوله بعناية شديدة، حتى إذا شارف أطراف الغابة، بدا الحفار أمامه مباشرة!

هناك، على بعد يتراوح مابين خمسمائة وستمائة متر راح نديم يتأمل الحفار.

كان السكون مخيماً تماماً. من خلفه سمع صوت أتوبيس يمر بالطريق المترب، وكان قد عرف أن أتوبيسا يمر بين القرى كل ساعة تقريباً... وكانت مساحة المياه التى تفصل الموقع عن الحفار مليئة بسيقان الأشجار التى قطعت ودفعت فى النهر فتراكمت عند مصبه فى انتظار الشحن فى سفن تحملها إلى الخارج... رغم بعد المسافة كان الموقع مثاليا تماما، خفق قلب نديم وهو ينظر فى ساعته الأنيقة التى استبدل بها ساعة البحارة الرخيصة، وكان عليه أن يعود إلى السيارة حتى يبلغ البار فى موعد مناسب!

• • •

في الساعة العاشرة من مساء يوم ٥ مارس عام ١٩٧٠، وصلت إلى طاهر رسمى برقية من نديم قلب الأسد، يطلب فيها إرسال الرجال إلى أبيدجان، بأسرع ما يمكن !!

• • •

هتف الباشا:

«طب مش تستنى لما تعمل استطلاع كمان ؟!»

رد نديم:

«اسمع ياشوكت، أنا عاوز أحط نفسى قدام الأمر الواقع!»

«ونويت امتى إن شاء الله!»

ولم يرد نديم على الفور، كان ما يدور فى عقله الآن نوعا من الجنون أوالخيال، دار هذا الحديث بين الرجلين فى صباح الجمعة ٦ مارس، وكان نديم قد زار المكان فى المساء مرة أخرى، وهو يعلم أن التنفيذ سوف يتم فى الظلام وقبل طلوع الشمس، صحبه فى المساء شاب أبيدجانى اسمه «مامادو» ــ أى محمد ــ وكان سعيداً كل السعادة لأنه يؤدى خدمة لمسلم مثله، فى المرة الثانية كان نديم متحرراً من كل شيء حتى معرفة أصدقائه بمكانه، راح يعاين كل شبر فى الموقع وينظر فى شغف إلى الحفار الذى بدا فى الليل أشد وضوحاً منه فى النهار، فلقد كان ــ على البعد ــ غارقاً فى الضوء الذى غمره من كل ناحية... كان شوكت يرقب صمت زميله فى قلق، هاهو قلب الأسد يخرج من مكمنه فما الذى ينتويه هذا الرجل... سار نديم إلى النافذة المطلة على الطريق التجارى المزدحم، كان معجباً أشد الإعجاب لاختيار الباشا لهذا «البيت الآمن» الذى يقع حيث لايمكن أن يتصور أحد... تذكر قولا لمحمود شوكت أن اللقاء فى

السر أكثر عرضة للكشف من اللقاء تحت أنف العدو، أخيراً قال نديم لشوكت:

«الرائد خليفة جودت حايوصل الليلة فى نص الليل!»

«بس أنت قلت إن طاهر هايبعت المرة دى ست رجاله!»

ابتسم نديم وهو يرد:

«يبقى هايبعتهم على فوجين!»

كان هذا أمراً طبيعياً فما الذى يدفع نديم إلى ترديده، هتف الباشا:

«إيه حكايتك يانديم ؟!»

«الفوج الأول مش ممكن يوصل قبل أربعة وعشرين ساعة ؟!»

كمن أمسك بما غمض عليه سأله الباشا:

«ناوى تضرب امتى ؟!»

كان اليوم التالى هو يوم السبت ٧ مارس، وهو يوم الاحتفال برواد الفضاء، ولسوف يمتد الاحتفال حتى ساعات الصباح الأولى دون شك، ولسوف يتركز أمن السلطات المحلية، مع رجال المخابرات الأمريكية حول الرواد بالقطع، وهكذا سيفقد الإسرائيليون ثلثى الحراسة التى يحمون الحفار وراءها، فإذا أضفنا إلى ذلك أن يوم الأحد ــ وهو اليوم التالى للاحتفال ــ هو يوم إجازة.. فهل ينوى نديم أن يضرب ضربته بنصف الرجال فقط ؟!

كانت المشكلة التى يعانى منها نديم الآن هى خروج الرجال من أبيدجان بعد إتمام العملية... وإذا كان تنظيف الموقع بأقصى سرعة، كفيل بإيقاع الإسرائيليين فى ارتباك شديد، فإن الدرسات التى أجراها نديم قالت: إن خروج الرجال عن طريق البر يكاد يكون مستحيلا، كان هناك طريق برى واحد يصل

مابين أبيدجان وأكرا عاصمة غانا، وهو طريق طوله ثمانمائة كيلو متر منها ثلاثمائة كيلو متر داخل الحدود العاجية نصفها غير ممهد، وكان معنى هذا أن خروج الرجال يستلزم مابين ثلاث وست ساعات، وهو وقت كاف للعثور عليهم، ثم هناك طريق السكة الحديدية الذى يصل أبيدجان بعاصمة فولتا العليا واجادوجو، وهو طريق يخترق فيه القطار ساحل العاج من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، وهى وسيلة تضع الرجال تحت أيدى الشرطة العاجية بسهولة بالغة... لم يكن أمامه إذن سوى الطيران، وهكذا، ودون أن يفصح عما ينتويه، راح الرجلان يدرسان حركة الطيران ابتداء من مساء السبت، حتى ظهر الأحد ٨ مارس عام ١٩٧٠.

....

....

كانت الخطة التى وضعها طاهر رسمى لوصول الرجال السبعة إلى أبيدجان، خطة شديدة التركيب، ولقد صح توقع نديم هاشم، ففى ظهر يوم الجمعة وصلت برقية من طاهر يقول فيها إن الرائد خليفة جودت قائد الضفادع البشرية سوف يصل فى منتصف ليلة ٦/٧ مارس، وإن ثلاثة من الرجال هم: العريف والملازم والقرش سوف يصلون قبل انتصاف ليلة ٧/٨ مارس تباعاً وعلى خطين مختلفين للطيران، وإن المتدين سوف يصل فى صباح الأحد ٨ مارس... أما الرجلان الباقيان، فسوف يصلان على إحدى طائرات الخطوط الجوية الفرنسية فى تمام التاسعة والنصف من نفس اليوم.

ولقد غاد خليفة جودت المطار فى موعده، وتوجه إلى أحد الفنادق مباشرة، لكنه ما كاد يستقر فى الفندق حتى غادره ــ بطريقة ما ــ ليلتقى بنديم على بعد عشرة كيلو مترات خارج أبيدجان... ومالبث الرجلان أن استقلا سيارة أخرى الى حيث وقع اختيار نديم على منطقة الوثوب تلك الواقعة داخل الغابة وبين القرى العاجية!

وما إن التقى خليفة بنديم حتى أخرج ورقة صغيرة قدمها إليه.. على ضوء مصباح صغير فى السيارة التى كانت الآن تقطع المسافة الباقية حتى الموقع، قرأ نديم الرسالة التى كانت تطلب منه عدم التصرف أو الحركة قبل أن يبلغ القاهرة بخطوته القادمة، ومهما كانت الظروف... قرأ نديم الرسالة وراح يمزق الورقة إلى قطع شديدة الصغر، كان يلقى قطعة وراء قطعة من السيارة المسرعة!

فى تلك البقعة الغارقة فى الصمت، على آخر حدود ميناء أبيدجان، وقف الرجلان ينظران معاً إلى الحفار، وكان المشهد بديعا... الظلام والسكون والوحشة وصوت المياه تدغدغ الشاطىء فى رفق، وضوء القمر الذى كان يكتمل الآن بدأ يغمر مساحة المياه الممتدة، والمليئة بسيقان الأشجار المقطوعة والعائمة فى انتظار التصدير، وها هو الحفار يقف غارقاً فى هالة شديدة من ضوء باهر أحاطة من كل مكان... جلس الرجلان على الأرض وراحا يتأملان المشهد الفريد، دار الحوار بينهما خافتاً كالهمس أو أشد خفوتاً.. قال خليفة: إن الموقع ممتاز برغم بعد المسافة، فقال نديم إن الملازم والعريف والقرش سيصلون قبل منتصف الليلة القادمة بقليل، فرد خليفة إن المهم أن تكتمل المجموعة، فالتفت إليه نديم متسائلا:

« وليه ما ننفذش بتلاتة بس »
التفت إليه خليفة فى دهشة :
« الثلاث عبوات ممكن يدمروا ثلاث قواعد بس ... ستة أضمن ! »
« وإذا قدرنا نحط شحنة تحت البريمة نبقى خلصنا على الحفار وده المطلوب ! »
بدا خليفة ساهما وهو يغمغم :
« وليه ما نحطش تحتها شحنتين ؟ ! »
لم يفهم نديم بالضبط ماذا يريد خليفة أن يقول ، غير أنه قبل أن يسأل جاءه صوت خليفة :
« انت شايف ان التنفيذ بكره أفضل ؟ »
« من كل الوجوه ! »
« على بركة الله »

• • •

..... ولم تشهد أبيدجان ليلة كتلك الليلة التالية ، كان استقبال رواد الفضاء رائعاً ، وكان افتتاح فندق «لافوار» ــ احتفالا بوصول الرواد ــ مثل أسطورة ، رقصت لونا بايرن فى تلك الليلة كما لم ترقص من قبل . وشربت كما لم تشرب فى حياتها ... ولقد قالت فيما بعد إن وصول «زاكرى» وإعفاءها من جمع المعلومات عن الحفار بل نسيانه تماما قد رفع عن كاهلها عبئاً رهيباً كما أنه اعطاها هذا الأحساس الغامر بالأمان والسعادة معاً ... لكن الغريب ، الذى لفت نظر لونا وغيرها من الصحفيين الذين حضروا الحفل ، هو اختفاء الصحفية المغربية «ليلى بو مسعود» فى تلك الليلة وفى هذا الاحتفال الذى جاءت من بلادها خصيصا لتحضره وتكتب عنه ... أما الباشا فلقد قيل إنه شعر بوعكة منذ بداية

اليوم ألزمته الفندق وإن لم تلزمه الفراش ، وفى المساء [illegible] وجهت له إدارة الفندق دعوة مع صديقته مدموازيل [illegible] رقص وشرب وضحك ، لكنه عندما انتصف الليل [illegible] أصابته موجة من الوقار ألزمته مقعده فراح يدخن السيجار [illegible] تراقص من تشاء ، وظل هكذا حتى عاد ، مع خيوط الفجر الأولى [illegible]

كانت ليلة هائلة ، أريقت فيها زجاجات الخمر بلا [illegible] من المسئولين والضيوف أنخابا بلا حصر ... لكنه لوحظ أن [illegible] مداخل الميناء بعنف لم تشهده المدينة من قبل ، وفوق الماء [illegible] الأنباء تقول إن ثمة دوريات من رجال مسلحين لم يغمض لهم [illegible] النهار ، ظلت تجوب الرصيف جيئة وذهاباً !

وهكذا قضت المدينة ليلة هادئة سعيدة ..

ولكن قلبها كان يغلى بما فيه من أحداث ، ففى تمام [illegible] من فجر يوم الأحد ٨ مارس ، كان الرائد خليفة جودت [illegible] البيت الآمن ، ملابس الضفادع ، العبوات الناسفة ، أعلام [illegible] من النوع الذى يحدد وقت التفجير بعد ثلاثة ساعات [illegible] يتحاوران إن اليوم التالى سيكون يوم أحد ، وأنه [illegible] أبيدجان تتمتع بأقصى درجات اللياقة والانضباط ، [illegible] التفجير ، من ثلاث إلى خمس ساعات حتى تبدأ الحركة [illegible] الذين سيكونون ، فى تلك الساعات ، قد غادروا [illegible] بعضهم سيكون فى عواصم افريقية آخرى ، والبعض الآخر [illegible] إلى القاهرة !

التفت إليه خليفة فى إعجاب لم يخفه لكنه تساءل :

« والفوج الثانى »

« مش حايدخل أبيدجان أصلا ! »

وقبل أن يسأل خليفة ، عاجله نديم قائلا فى ثقة :

« حايفضل فى المطار ترانزيت ، ويستمر فى الرحلة لدكار ، وبالشكل ده محدش يقدر يهوب ناحيتهم ولا يشك فيهم ولا يقول لهم كلمة ! »

....

....

فى الساعة الثالثة وأربعين دقيقة غادرت الشحنات الناسفة والمعدات البيت الآمن من باب خلفى للمبنى واستقرت فى الحقيبة الخلفية لإحدى السيارات التى أقلت نديم والرائد خليفة ... وكان الملازم الآن بصحبة القرش والعريف. وكان الثلاثة قد وصلوا فى مواعيدهم بالضبط وذهبوا إلى فندقهم ثم غادروه بحثا عن ليلة صاخبة ـ كانوا فى ذلك الوقت من فجر يوم الأحد المشهود يجوبون الشوارع الخلفية للميناء ، والمليئة بالبارات والفتيات ، وهم يصنعون صخبا وضجيجا لا يصنعه سوى السكارى ...

وفى الثالثة وخمسين دقيقة ، وعند نقطة بعينها ، مرت إحدى سيارات الأجرة فأشاروا لها فتوقفت ، وسألوا سؤالاً وجاءهم الرد فصعدوا إلى السيارة التى انطلقت بهم نحو ذلك الطريق الطويل خارج أبيدجان ... بعد بضعة كيلو مترات ، وعندما اطمأن الركاب الثلاثة إلى أنهم غير متبوعين ، هدأت السيارة من سرعتها ، ثم توقفت عند بداية طريق جانبى ليهبط الرجال الثلاثة ، وتعود

السيارة من حيث جاءت ، حتى إذا اختفت تماماً عن الأنظار كانت سيارة أخرى تخرج من منعطف فى الطريق ، وسرعان ما فتحت الأبواب ، ودلف الرجال إليها ، وانطلقت لا تلوى على شىء . !

....

....

ياهذه اللحظات المروعة التى تحفرها الأحداث فى صفحة العمر فلا تنمحى مهما طال وتكاثفت أحداثه ... وهاهم الرجال وقد جاوزت الساعة الرابعة صباحا قد ارتدوا ملابس الضفادع البشرية فتحولوا فى ذلك الظلام الدامس إلى أشباح تلقى الرعب فى القلوب ... أخذ خليفة يتمم على ملابسهم وأسطوانات الأوكسجين على ظهورهم ويختبر الأقنعة والمصابيح والعبوات والأقلام للمرة الأخيرة، بدت حركة الجميع وسط الغابة كسباحة فى الفضاء لا صوت لها ، حتى عندما راح خليفة يحدد لكل منهم هدفه من الحفار بالضبط كان صوته همساً لا يسمع ... وعندما أصر الملازم على أن يحمل شحنتين ناسفتين كى يضعهما تحت البريمة فيضمن تلف الحفار إلى الأبد ، وعندما دار الحوار بينه وبين خليفة حول المخاطر ، كان رده أنه سوف يتخلص من إحدى الشحنتين لو واجهته أية صعوبة ، فأفحم قائده وأصبح الرجال فى دقائق ، جاهزين !

همس نديم متسائلا :

« تمام ؟ ! »

وقال خليفة :

« ياللا يارجاله ! »

فى هدوء نزل الرجال إلى المياه، واحد تلو الآخر، ومالبثوا أن اختفوا بين سيقان الأشجار العائمة وتحت سطح المياه.. وبقى خليفة ونديم وحدهما فى الانتظار!

....

....

قال نديم قلب الأسد فيما بعد، إنه عندما اجتمع مع الرجال بعد وصولهم من القاهرة مباشرة، لم يقل كلاماً كثيراً، وعندما أراد أن يتكلم لم يجد ما يقوله.. فسألهم أسئلة تقليدية حول ما إذا كان كل منهم قد عرف بالضبط مهمته وما عليه أن يفعل قبلها وبعدها حتى يغادروا أبيدجان... وعندما أجابوا جميعاً بالإيجاب ساد الصمت طويلا، كان نديم يشعر أنه يجب أن يقول شيئاً، ثمة مايغلى فى وجدانه لكنه لا يعرف كنهه، عندما أعياه التفكير زفر قائلا فى انفعال:

«الحفار هرب مننا فى دكار يارجاله!»

فرد الملازم بحزم من انتوى امراً لا رجعة فيه:

«ومش هايهرب المره دى يافندم!»

أغناه الملازم بجملته عن كل قول، فالتفت إليه باسماً وقد تذكر نفس هذا الموقف فى دكار منذ أيام ليست كثيرة العدد، فقال:

«تحيا مصر!»

فردد الجميع فى صوت خافت، لكنه بدا كهدير قنابل تنفجر فى الأعماق:

«تحيا مصر!»

....

....

كان الوقت المقدر لوصول الرجال إلى الحفار، وتثبيت العبوات فى أماكنها، ثم العودة إلى الشاطئ، قد قدر فيما بين خمسة وخمسين وخمسة وستين دقيقة... ما إن اختفى الرجال عن الأنظار حتى افترق خليفة ونديم... كان كل منهما يحمل مع سلاحه جهازا لاسلكيا صغيرا كانا يتصلان عن طريقه كل عشر دقائق للاطمئنان... كان المكان موحشا والهدوء مخيفا، والسكون عميقا، والقمر بدراً، ونديم يبعد عن خليفة بما يقرب من ستين مترا، كل منهما يرقب الموقع من مخبئه فى حذر الفهود، وكل منهما يحصى دقات قلبه مع كل ثانية تمضى...

ياللدقائق عندما تبدو للبشر وكأنها دهور بطيئة الخطو تسعى فى الزمن بتثاقل بليد، مضت الساعة كقرن من العذاب، كان نديم قد جلس على الشاطىء ووضع قدميه -بالحذاء- فى المياه لعل برودتها تسرى إلى جسده المنهك بلا نوم لأيام فتنعشه... بدأت أضواء النهار تكشف الدنيا دون أن يظهر الرجال فإذا الدقائق البليدة الخطو تسرع نحو الخطر والقلق بجنون، عاد نديم إلى خليفة وقد جاوزت الساعة الخامسة بدقائق، قال خليفة وعيناه مثبتتان على سطح المياه كمسمارين لاينخلعان إنه لا يحق لهما القلق إلا بعد عشر دقائق أخرى... حل موعد عودة السيارة فاندفع نديم إلى المكان المتفق عليه وطلب من السائق أن يعود بعد ربع ساعة، فى طريق عودته إلى خليفة كانت أصوات الفلاحين قد بدأت تتصاعد من القرية القريبة... قيل له إن جرس الكنيسة لا يدق قبل السادسة، ولكن هاهى دقات الجرس تسبح فى فضاء الغابة لتوقظ النيام من أهل القرى، ما إن وصل إلى خليفة حتى وجده جامدا فى مكانه محملقا فى سطح المياه بامعان:

« شايف حاجة يا خليفة ؟! »

« بص كده »

أشار خليفة إلى بقعة بعينها، وعلى بعد عشرين متراً كان ثمة شيء يلمع، اقترب الرجلان كل منهما من الآخر استعداداً لالتقاط الرجال... بعد الشبح الأول ظهر شبح آخر. وعلى بعد امتار منه بين سيقان الاشجار كان الشبح الثالث... هاهم الرجال عائدون فهل قاموا بالمهمة ؟!... نزل خليفة إلى المياه وكان الشبح الأول قد اقترب عندما وصل الى سمعه صوت خطوات تقترب، التفت نحو مصدر الخطوات فإذا ضوء مصباح صغير يتحرك نحوهما حثيثا، همس نديم فى عنف من استشعر الخطر:

« خليفة !! »

مال خليفة إلى الإمام وزعق هامساً نحو المياه:

« ارجع .. ارجع ! »

وسرعان ما اختفت الرءوس الثلاث تحت سطح المياه وقفز خليفة ونديم استعداداً للقادم دون موعد... كان القادم يقترب وضوء مصاحبه يكشف أمامه الطريق، حتى إذا حاذى شجرة بعينها قفز خليفة من خلفها، انقض عليه وكتم انفاسه وغرس نصل خنجر فى رقبته فأصيب الرجل بالشلل وقد سقط المصباح من يده... فى بساطة من يحمل طفلا حمله خليفة بعيدا عن الموقع وقد التقط نديم المصباح وسدده الى وجه الرجل... كان فلاحاً عاجيا أطاع واستسلم دون كلمة... أجلسه خليفة تحت حذع شجرة وسدد نديم ضوء المصباح إلى وجهه، نظر الرجل إلى نصل الخنجر فى رعب، ومن خلال شعاع الضوء برزت له فوهة

مسدس نديم وقد ركب عليها جهاز كاتم للصوت... تركه خليفة لنديم وعاد أدراجة إلى الشاطئ لالتقاط الرجال فلقد بدأت أصوات الفلاحين فى الاقتراب... وضع نديم المصباح فوق الأرض مسدداً شعاعه إلى وجه الرجل، بجوار المصباح وضع مصباحاً آخر فغمر الضوء وجه الرجل فى دائرة لا تخطئها عين مهما بعدت بين الأشجار... مر سنجاب بالقرب من نديم فصوب هذا إليه مسدسه، واطلق طلقة بلا صوت، طار السنجاب فى الهواء ثم هوى إلى الأرض بلا حراك، برزت عينا الرجل فى رعب طاغ وهما تحملقان فى جثة السنجاب الهامدة.. اندفع نديم بعدها يستقبل الرجال مع خليفة، وكان آخر من وصل منهم إلى الشاطئ هو الملازم الذى كانت سعادته تفوق كل شيء... صاح وهو يخلع أنبوبة الأوكسجين بمساعدة خليفة إنه ثبت العبوتين تحت البريمة وأن.. ..

لكن نديم قاطعه ناهراً إياه:

« اسكت ! »

مضى الركب فى الطريق إلى السيارة التى كانت قد عادت لكن خليفة جمد فى مكانه وهو يحملق فى المياه بفزع... كان الرجال يبتعدون ويبتعد معهم حفيف خطواتهم، لكن نديم توقف ملتفتا نحو قائد الضفادع البشرية الجامد فى مكانه كتمثال لا حياة فيه... عاد إليه مهرولا:

« مالك يا خليفة ؟! »

أشار خليفة دون كلمة إلى سطح المياه، وبين سيقان الأشجار السابحة رأى نديم ما جعل الدماء تجمد فى عروقه... أمام عينيه، وفى ضوء النهار الخافت، رأى تمساحين يتحركان فى مقدمه سرب صغير من التماسيح، التفت بسرعة نحو

مصب النهر فإذا التماسيح الساكنة بين الأشجار تبدأ رحلتها مع أول النهار... التفت نحو خليفة ولم يكن هناك ما يقال، فلقد وقعت معجزة فى زمن بلا معجزات !!

....

....

فى الحقيبة الخلفية للسيارة، كانت هناك حقيبة مثقلة بسبائك من الرصاص والحديد، وضعت فيها ملابس الضفادع البشرية، والمعدات وأنابيب الأكسجين، وما تبقى من عبوات ناسفة، ثم أغلقت جيداً... كان الرجال قد بدلوا ملابسهم ودلفوا إلى السيارة التى انطلقت فى الطريق المترب لا تلوى على شىء حتى إذا عبرت ذلك الجسر الصغير فوق النهر الذى يشطر الغابة ويصب فى الميناء، توقفت السيارة وهبط نديم وخليفة، فتحا الحقيبة الخلفية وحملا الحقيبة المثقلة بالمهمات، والقيا بها فى النهر فغاصت حتى الأعماق... عادا إلى السيارة التى راحت الآن تنهب الطريق نهبا... فى كلمات سريعة أدلى كل رجل بتقرير عن مهمته... أجمع الثلاثة أن الوصول إلى قاع الحفار ومغادرته كان صعباً فالإضاءة فوقه ومن حوله قوية بحيث تكشف كل من يقترب منه مما دفعهم إلى الغوص إلى أقصى ما كان يستطيع الواحد منهم، لكن المهمة كللت برغم كل شىء بالنجاح، وثبتت العبوات الأربع فى مكانها، وما هى إلا ساعتان وبعض الساعة حتى تنفجر العبوات تحت بطن الحفار كي تبقره بقراً... ولكن الرجال فوجئوا بالتعليمات الجديدة يلقيها عليهم نديم فى سرعة وترتيب ودقة من درس وحفظ كل خطوة عن ظهر قلب... وإذا كان أحدهم لم ينم منذ أربع وعشرين ساعة، فلا وقت الآن للنوم وعليهم أن يرحلوا

فوراً عن أبيدجان، وقبل أن تمضى على وصولهم اثنتا عشرة ساعة... سيعودون إلى الفندق ويتظاهرون بالسكر الشديد، على كل منهم أن يخطئ فى دفع الحساب وأن يدفع أكثر حتى يسكت كل من تسول له نفسه أن يسأل، عليهم أن يطمئنوا تماماً فثمة سياج شديد من الأمن من حولهم، سيحملون حقائبهم إلى المطار، وهذه هى جوازات سفرهم وتذاكرهم وموعد إقلاع الطائرة الأولى إلى لاجوس فى نيجيريا فى الثامنة والنصف صباحاً، والطائرة الثانية إلى واجا دوجو فى فولتا العليا وموعدها فى التاسعة وخمس وخمسين دقيقة... فى المطار قد يلتقون بزملائهم -المتدين وزميليه- القادمين من القاهرة، فحذار أن تبدو من واحد منهم بادرة توحى أنهم يعرفون بعضهم بعضا مهما حدث... لن يدخل زملاؤهم ساحل العاج ولن يغادروا المطار وستستمر رحلتهم عائدين إلى القاهرة.. فى منتصف الطريق إلى العاصمة سيفترقون، وعليهم أن ينفذوا التعليمات بكل دقة، وسيكون كل شىء على ما يرام !!

• • •

كان على نديم أن ينظف المسرح تماما قبل عودته إلى الفندق، عاد إلى البيت الآمن واطمأن تماماً، ثم غادر المبنى وسار على قدميه حتى بلغ فندقه... قبل أن يصل إليه بحوالى مائتى متر، كانت ثمة سيارة تقف فى أحد الأركان، ما إن حاذى السيارة حتى فتح الباب وهبط من السيارة رجل الأعمال السورى الأصل سليم أبو فودة... سار الرجلان جنباً إلى جنب فى تثاقل من شرب كثيراً.. دار الحوار فيما بينهما خافتا... سأله سليم: «كيف الأحوال»، فرد نديم بأن كل شىء على ما يرام... دلفا إلى الفندق وكانت الساعة تشير إلى السابعة وخمس عشرة دقيقة بالضبط، بدا عليهما السكر فابتسم موظفو الفندق وهم يتبادلون

النظرات... افترقا أمام غرفة نديم وكان سليم يقول إنه فى حاجة إلى أن ينام عاماً بأكمله. فطلب منه نديم أن ينام ملء جفنيه وألا يغادر غرفته، مهما حدث ومهما سمع، قبل أن يأخذ كفايته من النوم والراحة... لكن نديم عندما دخل غرفته أحس برغبة قاتلة فى النوم.. هرول إلى الحمام ووقف تحت الدش وترك المياه الباردة تغسل تعب ليال وأيام مضت بلا لحظة من نوم أو راحة... لف جسده بفوطه كبيرة وخرج من الحمام مترقبا، نظر فى ساعته وكانت قد تجاوزت السابعة بخمس وثلاثين دقيقة، كان الفندق يبعد عن الميناء بسبعة كيلو مترات لكنه كان موقنا أن صوت الانفجارات سوف يصل إليه بوضوح خاصة فى صباح يوم أحد تموت فيه حركة المرور فى الصباح...

عادت الدقائق تسير فى تثاقل يبعث القلق والفكر إلى الرأس المكدود... ماذا لو فسدت العبوات أو فسد بعضها ؟!... ماذا لو اكتشف الإسرائيليون الأمر قبل أن تنفجر الشحنات الناسفة ؟!... ماذا لو أن الرجل الذى تركه جالساًتحت الشجرة يحملق فى السنجاب القتيل أبلغ عما حدث، فخمن البعض ما حدث ؟!... ماذا عن... ماذا عن... وعن... و... ... وانتفض جسد نديم فى مكانه فقفز واقفاً مع صوت انفجار يأتيه من بعيد، نظر فى ساعته فإذا هى السابعة وخمسون دقيقة، خفق قلبه خفقانا شديداً وراح يرقب عقرب الثوانى وهو يدور فى ساعته ببطء مميت، أمام النافذة كان يروح ويجيء مطمئناً أن أحداً لن يراه من خلال النافذة المبطنة بشبكة من السلك الرقيق ليمنع الناموس عن الغرفة.. فى الثامنة وسبع وخمسين دقيقة دوى الانفجار الثانى فاهتز حتى الأعماق... سرى صوت نعيق سيارات الإطفاء فى شوارع أبيدجان، لقد أفلح الرجال، انفجرت عبوتان ولم تبق سوى الثالثة التى ستنفجر معها العبوة الرابعة

تحت البريمة... وهو لا يريد سواهما، تلكما العبوتين اللتين حملهما الملازم ووضعهما تحت البريمة لتفجيرها وإتلافها وإتلاف الحفار معها إلى الأبد... لو أنه... لو أنه فقط استطاع ذات يوم أن يصف هذه الـ ... ...

توقف عقله عن التفكير، توقف الزمن، اهتز فى وقفته مع اهتزاز الجدران والنوافذ والأبواب فى الفندق الذى يبعد عن الحفار بسبعة كيلو مترات كاملة، كانت الساعة تشير إلى الثامنة وخمس دقائق بالضبط، حاول نديم قلب الأسد أن يتحرك، حاول... حاول أن يشعربشىء، أن يفرح، أن يصرخ، أن يضحك، أن يصيح، أن يبكى... حاول، حاول، ولا شىء، لا شىء سوى ذلك الإحساس الهائل بالراحة تفيض على نفسه كطوفان يدفعه إلى المقعد المواجه للنافذة والجلوس عليه، مدد ساقيه فى استرخاء، ثم... ومع تتالى صراخ سيارات الإطفاء والإسعاف التى كانت تقطع شوارع المدينة صارخة توقظ النيام الذين كانوا بالأمس يحتفلون احتفالاً صاخباً، عادت الدنيا إلى عينيه، كما كانت فى الأيام الخوالى، بالألوان الطبيعية !!

... ...

... ...

و... ولم يكن هناك وقت للاسترخاء أو الراحة، كان عليه أن يخطو تلك الخطوة الأخيرة التى كان عليه أن يخطوها، نهض غير متثاقل، عاد إلى الحمام فحلق ذقنه ووقف تحت الدش مرة أخرى وتعطر وارتدى أفخر مامعه من ثياب ثم هبط إلى حديقة الفندق حيث تناثر النزلاء لتناول طعام الإفطار فى الهواء الطلق، سار نديم مخترقاً الحديقة حتى مائدة بعينها، اختطفت عيناه نظرة من باب

جانبى للحديقة يؤدى إلى موقف للسيارات، ألقى بنفسه فوق مقعد وهو يلتقط التوقيت من ساعة يده، طلب إفطاراً دسماً راح يتناوله بشهية فقدها منذ أسابيع، انتهى من إفطاره وراحت عيناه تختطفان نظرة تلو الآخرة من ذلك الباب الجانبى، طلب فنجانا من القهوة وراح يدخن فى استمتاع من حرم من التدخين لأسابيع، كان يعلم أن أمامه دقائق قد تطول فألقى برأسه إلى الوراء وأغمض عينيه لكن اليقظة كانت هى كل ما يشعر به، فتح عينيه فاعتدل فى مكانه وكادت الفرحة تقفز به من مكانه إلى السماء السابعة ... من عند ذلك الباب الجانبى جاءه البشير بأسرع مما تصور، ظل جالساً فى مكانه بعد أن وضع نظارته الشمسية على عينيه حتى لا يفضح أحد اتجاه نظراته، عاد البشير مرة أخرى يؤكد له، بإشارة حاسمة لا تقبل التأويل، إن كل شىء على ما يرام، وإن الحفار قد دمر!!

نهض نديم من مكانه وغادر الحديقة فى لحظة كان موقناً أن أحداً لن يراه فيها، سار فى الشوارع متسكعا وكان يعرف طريقه جيدا، مرت به سيارة إطفاء، يبدو أنها استدعيت من مكان بعيد فإذا قلبه يبتسم، توقف أمام إحدى الفترينات، واطمأن إلى أن أحداً لا يتبعه، عاد إلى السير حتى شارف المدخل الرئيسى للميناء، كان ثمة محل لبيع الملابس الفاخرة، وقف أمام فترينة عرض ونظر فى ساعته وكانت تشير الآن إلى العاشرة... اخترقت عيناه الزجاج فإذا الباشا هناك عند النافذة المقابلة للمحل المغلق، بجواره وقفت ليليان وكانت تثرثر مشيرة إلى ثوب وطنى زاهى اللون، أخرج الباشا سيجاراً وقص نهايته بأسلوب من تعود أن يفعل ذلك طوال العمر، سافر الرجال فى الموعد اذن وأصبحت المدينة نظيفة

تماماً، دس الباشا السيجار بين أسنانه وأخرج ولاعة ذهبية أشعلها مرة دون أن يشعل السيجار ثم أطفأها وهو يميل على ليليان متحدثا إليها، وكان معنى هذا ان الفوج الثانى وصل ولم يغادر المطار لكنه لايزال فى الترانزيت، أعطاه الباشا ظهره فتحرك منصرفاً نحو بوابة الميناء وكان الزحام هناك شديداً، لم يكن فى حاجة إلى الاقتراب فسيارات الإطفاء تملأ المكان وسيارات الإسعاف تقف على استعداد والناس يتجمهرون فى محاولة لمعرفة ما حدث، ورجال الشرطة يحيطون المكان بسياج منيع... من مكانه البعيد رأى أبراج الحفار مائلة ميلا شديداً حتى لتكاد فى ميلها تلامس الرصيف، استدار نحو بناية فى الناحية الأخرى من الطريق، رفع عينيه نحو النافذة الثالثة فى الطابق الرابع، كانت ثمة فتاة أوربية ترتدى بلوزة خضراء اللون وحول عنقها «إيشارب» أبيض فى لون اللبن... قال نديم بصوت مسموع وهو يعبر الطريق: «الحمد لله»... كان معنى «الإيشارب» الأبيض، أن إصابة واحدة لم تحدث، وأن نقطة دم واحدة لم ترق، وأن العملية كانت «بيضاء» !!!

ظل نديم يسير ويسير، من شارع إلى شارع، ومن طريق إلى طريق... لم يكن يريد أن يكف عن السير، كان الخدر يسرى فى جسده حتى توقف فى شارع هادئ، توقف مستديراً فإذا بسيارة أجرة تأتى من بعيد، أشار إلى السائق فتوقف، دلف إلى السيارة وهو يهتف بالعنوان!

حملته السيارة إلى إحدى الضواحى، عند مشارف الضاحية غادرها وعاد يسير على قدميه حتى اطمأن تماماً... عاد إلى السير حتى مر بسور حديدى لمبنى مكون من طابقين، ما إن حاذى الباب حتى خطا إلى الحديقة الصغيرة، كان المبنى هو مقر القنصلية المصرية فى أبيدجان، وكان القنصل صديقاً قديماً له،

عندما سأل عنه قيل له إن اليوم إجازة ومازال القنصل فى مسكنه بالطابق العلوى، طلب من الموظف الذى التقى به ان يبلغ القنصل أن هناك من يريد أن يراه ... كان كل همه الآن أن يرسل برقية إلى القاهرة ... ولقد أرسلت البرقية بالشفرة فى تمام الساعة العاشرة والنصف من صباح الأحد ٨ مارس عام ١٩٧٠، وكانت تحمل كلمة واحدة، رغم سطورها العديدة، هذه الكلمة هى «مبروك» !!

صدر للمؤلف

١	زقاق السيد البلطى	رواية
٢	رأفت الهجان	رواية من ملفات المخابرات المصرية (كنت جاسوساً فى اسرائيل)
٣	البحار موندى (قصص واقعية من حياة البحارة)	مجموعة قصص
٤	الكداب	رواية

تحت الطبع

١	دموع فى عيون وقحة	رواية من ملفات المخابرات المصرية
٢	صور من مصر	مجموعة صور أدبية
٣	قصة زواج عصرى	رواية
٤	المهاجرون	رواية
٥	سامية فهمى	رواية من ملفات المخابرات المصرية
٦	حب للبيع	مجموعة قصص
٧	الصعود الى الهاوية	رواية من ملفات المخابرات المصرية

رقم الإيداع : ٥٩٣١ / ١٩٨٥

مطابع المنار العربى
١ شارع العامل الأول - امبابة - جيزة
تليفون ٣٤٥٢٢٦٤

الحفار

في عام ١٩٦٩ ، كانت مصر تحاول استخلاص النصر من براثن هزيمة كانت مدوية .. وكانت حرب الاستنزاف في ذروتها عندما أعلنت إسرائيل عن عزمها على شراء حفار للتنقيب عن البترول في شواطئ سيناء المحتلة .. ومنذ اللحظة الأولى لهذا الإعلان ، كان واضحا أمام الجميع ، أن الغرض من شراء هذا الحفار ليس اقتصاديا فقط ، ولا استيطانيا لتثبيت أقدام الاحتلال .. وإنما هو في الدرجة الأولى ، لإذلال مصر أمام العالم أجمع ، وإظهارها بمظهر العاجز حتى عن حماية موارده الطبيعية في أرضه !

وكان أحيط شراء الحفار بضجة إعلامية هائلة شملت العالم كله .. فلقد أحيط الحفار نفسه .. بسياج من السرية والكتمان .. وسياج رهيب من الحراسة التي بدت كحائط صلب من المستحيل اختراقه !

ولم يكن أمام مصر سوى طريق من اثنين .. إما أن تدمر الحفار قبل أن يعبر مضيق باب المندب إلى البحر الأحمر وشواطئ سيناء .. وإما أن تضربه مباشرة بالطيران المصري وتشعل نار حرب لم يكن الاستعداد لها قد اكتمل !

وهكذا .. أصبح على الرجال في جهاز المخابرات العامة المصرية .. أن يبحثوا عن الحفار في موانئ القارات الخمس .. وأن يعثروا عليه .. وأن يدمروه !

وبدأت واحدة من أغرب وأعنف المعارك وأشدها تعقيدا في هذا العالم السري المخيف

وكانت معركة مريرة اشتعلت فيها .. حرب العقول .. ووصلت إلى ذروة حبس لها العالم أنفاسه وكانت عملية الحفار .. واحدة من أهم العمليات السرية في القرن العشرين .. ولقد تحدثت عنها صحف العالم كله .. وعلقت عليها كل الدول .. وتحدثت كل الأطراف .. ما عدا مصر .. التي لزمت الصمت طوال خمسة عشر عاما كاملة !

وعندما تحدثت مصر .. كان هذا الكتاب !!